المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية اللغة العربية

قسم الدراسات العليا

الشعر وحروب الخلافة العثمانية

.... هـ .... م / ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ م

رسالة لنيل درجة الدكتوراة

في الأدب

إعداد

عبد الله بن ابراهيم بن يوسف الزهراني

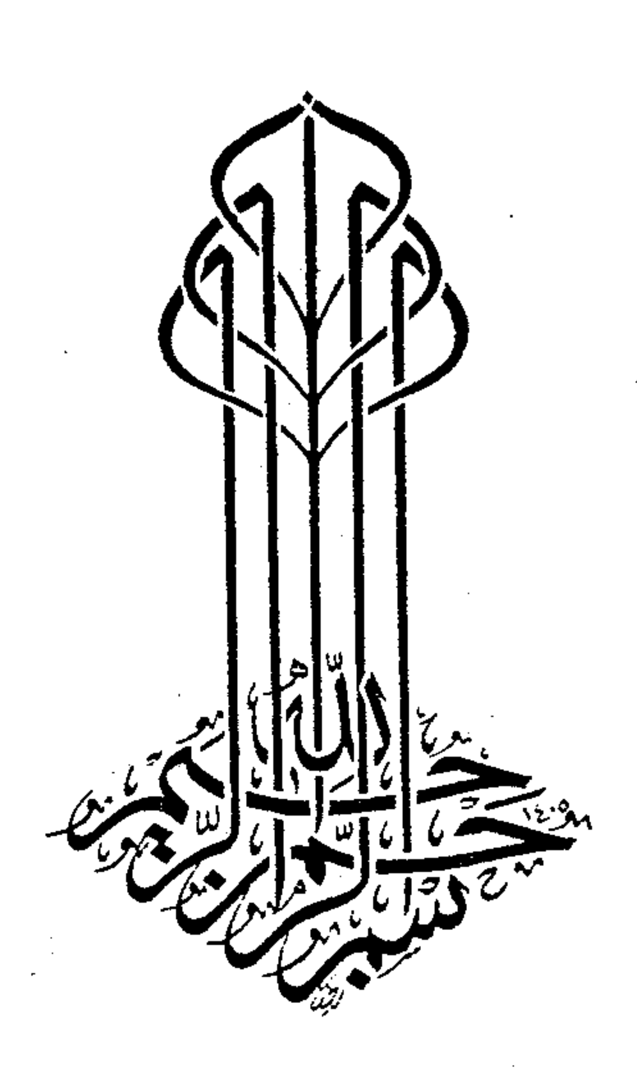
إشراف الأستاذ الدكتور

محمود عبد ربه فياض

الجزء الأول



١٤١٢ هـ



المقدمة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على الرسول الأمين ، وآله وصحبه ، ومن استن بسنته إلى يوم الدين . أما بعد :

فإن العصر العثماني شهد حروبا ضارية بين الدولة العثمانية ممثلة العالم الإسلامي ، والدول الأوربية ممثلة النصرانية ، وكان إتساع رقعة الدولة عاملا من عوامل تعدد الصراع مكانا وزمانا ، وكان من توفيق الله لي أن اخترت بمشورة من أستاذي الأستاذ الدكتور "محمود عبد ربه فياض" موضوعي لرسالة الدكتوراه "الشعر وحروب الخلافة العثمانية " لأمور منها :

* إن هذا العصر بحاجة ماسة إلى مزيد من الأبحاث لجلاء كثير من غوامضه .

* إنه جزء من التاريخ الأدبي لأمتنا ، فمن حقه علينا العناية به درسا وتمحيصا مهما كانت نظرة الناس إليه .

* الوقوف عن كثب على بداية الصراع الحضاري بين المسلمين والأوربيين ، و بيان رؤية الشعراء له .

* عدم التسليم بما يردده أكثر الباحثين عن هذه الحقبة ، مما حدا بي إلى الوقوف عن كثب على تلك الظواهر الشائعة عن هذا العصر ، وتأصيل ماقرر أو نفيه .

* إن الدراسات لشعر الحرب وقفت قبيل هذا العصر مما أغراني بإكمال مثل تلك الأعمال في تاريخ الأدب العربي .

لذلك كله وإيمانا مني بأثر تلك الحقبة في تاريخنا الراهن ، ولجت هذا الموضوع .

على أن آخر هذا العصر قد حظى بكوكبة من الشعراء الرواد كان لهم دور إيجابى فى مناصرة الدولة العثمانية فى جهادها الدفاعى عن البلاد الإسلامية ، يأتى فى مقدمتهم "محمود سامى البارودى" ، و"أحمد شوقى" ، و"حافظ إبراهيم" و"معروف الرصافى" ، و"عبد المحسن الكاظمى" ، و"شكيب أرسلان" إلى جانب عدد من الشعراء المغمورين "كأحمد الفقيه وعبد الجليل براده ، وأمين ناصر الدين ، وخيرى الهنداوى ، ومحمد سعيد العباسى" وغيرهم .

وكانت المادة فى الدواوين الشعرية المشهورة أقرب منالا بالنسبة للشعراء المعروفين ، أما الشعراء المغمورون الذين وُفِّقت إهتديت إلى أكثرهم بإشارة من أستاذى الكريم .

وقد اجتمع لديّ كم هائل من النصوص ، تعطى صورة واضحة عن مواكبة الشعر للأحداث ، تؤكد أنه استجابة فعالة للهزات والضربات العنيفة التى كانت تواجهها الدولة العثمانية من قبل الصليبية المقنعة فى ثوب إسداء الحرية لولايات الدولة حينا ، وللدفاع عن المسيحيين الخاضعين لسلطة العثمانيين حينا آخر ، كل ذلك فى سبيل دحر الإسلام ، والانتصار عليه فى عقر داره ، فشارك الشعر فى ذلك الميدان ، لاستنهاض همم المسلمين فى الذود عن حمى الدولة ، ولاشك أنه كان لحروب الدولة العثمانية أثر كبير فى إثارة حماسة الشعراء ، فقد أيدوها تأييدا مطلقا يدفعهم الشعور الدينى ، لأنهم كانوا يرون فى حروب الدولة العثمانية دفاعا عن الكيان العثمانى الذى هم جزء منه ضد أطماع أوربا الكافرة التى تريد القضاء على الدولة المسلمة ... فلانعجب أن نرى إجماع الشعراء - فى مشرق العالم العربى ومغربه - على الذود عن الدولة العثمانية ضد أى عدوان عليها .

وقد رجعت إلى مصادر جمة محاولاً ، لمّ شتات مادة قابلة للدراسة يأتي في مقدمتها :

* الدواوين الشعرية للشعراء المشهورين والمغمورين كالشوقيات لأحمد شوقي ، والسياسيات لأحمد محرم ، ودواوين كل من محمد عبد المطلب ، ومعروف الرصافي ، وشكيب أرسلان ، ومحمد الهاشمي ، والخزنة دار ...

* المجاميع الشعرية ، والدراسات التي عالجت الاتجاهات الوطنية في أدب إقليم من الأقاليم ، والتي حام بعضها حول موضوع شعر الحرب في العصر الحديث مثل الاتجاهات الوطنية للدكتور محمد محمد حسين ، والاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي ، والشعر والشعراء في ليبيا للدكتور محمد عفيفي ، والشعر العراقي في العصر الحديث للدكتور يوسف عز الدين ، والأدب التونسي في القرن الرابع عشر لمحمد السنوسي .

* بالإضافة إلى الجرائد والمجلات التي صدرت إبان تلك الحروب كالوقائع المصرية ، وجريدة مصر ، والمقتبس ، والقبلة ، والمقتطف ...

* المراجع التاريخية لاستجلاء سير تلك الحروب ونتائجها نحو تاريخ الدولة العلية لمحمد فريد ، والدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها للدكتور عبد العزيز الشناوي ، والتاريخ الإسلامي – العهد العثماني للدكتور محمود شاكر .

* إلى غير ذلك من المصادر والمراجع الشعرية والتاريخية مما سيوضحها ثبت المصادر والمراجع بإذن الله .

وقد اقتضت خطة هذه الرسالة أن تكون على الشكل التالي :

تمهيد :

عرضت فيه لأهم الدراسات التى تناولت شعر الحماسة قبل هذه الحقبة ، وأن هذا الموضوع سيكون جزءا مكملا لما بدأه الباحثون فى هذا الباب .

ثم قسمته إلى ثلاثة أبواب :

الباب الأول : الشعر وحروب الدولة العثمانية فى أوربا ويتكون من أربعة فصول :

الفصل الأول : الشعر وحروبها مع روسيا .

ويتضمن المباحث التالية :

المبحث الأول : الشعر والحرب الأولى سنة ١٨٥٥م .

بدأته بنبذة تاريخية ، ثم عرض وتحليل للقصائد التى عثرت عليها ، وفيها ظهر مدى التجاوب الإسلامى مع العثمانيين فى تلك الحرب، على الرغم من ضعف ذلك الشعر وركة لغته ، وقلة من شارك به ، وتضمن الموضوعات التالية :

* تركيز المدائح للخليفة على سجايا القائد .
* الجيش فى المعارك .
* وصف المعركة .

المبحث الثانى : الحرب الروسية الثانية ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م وفيها ظهر الشاعر الألمعى "محمود سامى البارودى" ، وتناولت فيه الموضوعات التالية :

* نبذة تاريخية .
* الإشادة بالسلطان تأييدا للخلافة .
* الإشادة بقواد الجيش العثمانى .
* فى سوح المعارك .
* تعبئة الجيوش .
* استنفار المسلمين للجهاد .

وذلك كله من خلال الشعر الذى وجدته ، وفيه ظهر إلى جانب البارودى ، "على ابو النصر" ، و"على الليثى" ، و"عبد الله باشا فكرى" ، و"أحمد فارس الشدياق" .

الفصل الثانى : الشعر وحروبها مع اليونان .

إن كانت حروبها مع اليونان اشد ضراوة وتنوعا ، وقد تناولت تلك الحروب فى المباحث التالية :

المبحث الأول : فتح القسطنطينية .

وفيه اشرت إلى الرسالة التى بعث بها "الاشرف إينال" إلى السلطان "محمد الفاتح" وقد تضمنت ابياتا متهافتة لم تكن على مستوى الحدث ، والمحت إلى بعض ماقيل من شعر تركى فى هذا ، وإشادة شاعرين عربيين بذلك إبان هجمة اوربا الاستعمارية بعد الفتح بقرون .

المبحث الثانى : ثورة "كريت" الأولى ١٢١٦هـ/١٨٦٩م .

وممن شارك فى إخمادها الفارس الشاعر "محمود سامى البارودى" .

المبحث الثالث : ثورة "كريت" الثانية ١٩٠٨م .

وقد اغفلها المؤرخون وسجلها شاعران هما : "احمد الكاشف" ، و"أمين ناصر الدين" ، وكانت قصيدة أمين نقلة نوعية فى الشعر العربى إبانئذ تدل على أن الشعر قد دبت فيه الحياة ، وبدات حركة النهضة تؤتى ثمارها ، وقد قسمت هذه القصيدة إلى لوحتين :

لوحة تصور الجزيرة فى صورة فتاة مستغيثة تشكو ماحل بها من الثوار ، واخرى تصور المسلمين فى صورة فتى هب لنجدة تلك الفتاة .

المبحث الرابع : حرب اليونان سنة ١٣١٤هـ/١٨٩٧م .

وقد اهملت هذه الحرب من قبل المؤرخين الذين اطلعت

على الرغم ماحققته الدولة العثمانية من انتصار مادى ومعنوى فيها ، إلا أن الشعراء سجلوا ذلك ، وظهرت فى هذه الحرب أصوات شعرية جديدة ، وكانت بائية "شوقى" سجلا حافلا للمعارك التى دارت إلى جانب شعراء آخرين من أمثال "أحمد محرم" ، و"محمد عبد المطلب" وغيرهما .

وقد صنفت موضوعات ماوجدت من شعر على المنوال التالى:

* تمجيد الخليفة رمز الإسلام .
* أسباب هذه الحرب فى منظور الشعراء .
* وصف الجيش العثمانى .
* وصف المعارك .

وكان "شوقى" من أحسن الشعراء وصفا لتلك المعارك بحرية وبرية ، وسجل فيها أماكن الصراع ، فُعدّت قصيدته مرجعا تاريخيا وجغرافيا إلى جانب كونها معلما من معالم تطور الشعر العربى ، إذ ظهرت فيها قريحته الفنية ، وثقافته الواسعة ، وعرضت فيها لما يميز هذه القصيدة عن غيرها من شعر الحرب هنا ، لاشتمالها على صورتين ، صورة الفتاة المسلمة التى تخوض المعارك ، وصورة العجوز الطاعن فى السن مع فرسه اللذين مارسا الجهاد ولم يفترقا .

* هجاء العدو والاستخفاف به .
* نشوة النصر .

المبحث الخامس : حرب اليونان سنة ١٣٤١هـ/١٩٢١م .

بدأته بإشارة تاريخية ، ثم رتبت مضمونات شعر هذه الحرب على الشكل التالى :

* الولاء للخلافة والخلفاء .

وفيه ظهر تعلق الشعراء بالخلافة وآمالهم فيها حتى وهى فى الرمق الأخير وانخداع الشعراء "بمصطفى كمال" .

* استعداد اليونان للقتال .
* جرائمهم .
* هزائمهم .
* وصف المعارك .
* ماانفرد بوصفه بعض الشعراء .
* ذكرى من وقائع "غاليبولى" .
* الجرحى والبر بهم .
* الدافع الدينى وراء الحرب .
* نشوة الظفر على اليونان .

الفصل الثالث : حرب البلقان ١٣٢٨هـ/١٩١٣م .

ذكرت فيه تحالف دول البلقان على الدولة واجتياحهم لبعض ولاياتها ، ثم رتبت ماعثرت عليه من شعر فى هذه الحرب على النحو التالى :

* فزع الشعراء لتساقط المدن العثمانية .

إذ تألم الشعراء لسقوط بعض المدن العثمانية ، وصدح "شوقى" بميمية رائعة فى رثاء مدينة "أدرنة" وكذا "خيرى الهنداوى" فى رثاء "سلانيك" .

* الطابع الصليبى لهذه الحرب .
* وصف المعركة والجند .
* الجرائم التى اقترفها العدو من منظور الشعراء .
* استنهاض المسلمين ، والاستغاثة بهم وتأكيد وحدتهم .
* الموقف من السلم .
* القوة هى الفيصل فى التعامل مع الغرب .
* الأخذ بأسباب العلم .
* الفخر والأمل فى غد مشرق .
* الهجاء .

وفيها ظهر شعراء يتراوحون بين القوة والضعف ، وكان للصحافة دور في ظهورهم ، مما يعني أن لها أثرها في نشر الشعر وإبراز عدد من الشعراء ، وكانت قصيدتا "شوقي" ، و"خيري الهنداوي" من أجود ماقيل في شعر هذه الحرب ، إذ أعادتا إلى الأذهان رثاء المدن الذي يطفح به الشعر العربي إبان المحن التي ألمت بالمسلمين على مر التاريخ الإسلامي لاسيما في الأندلس .

الفصل الرابع : من معارك الحرب العالمية الأولى في أوربا .

استهللته بمقدمة تاريخية ، ثم عرضت لموضوعات الشعر هنا فكانت على المنوال التالي :

* الدعوة لنصرة العثمانيين والإشادة بهم .
* الدعوا إلى مساعدة الخلافة .
* معركة "غاليبولي" وصداها في الشعر :

فرح الشعراء بالانتصار فيها ، ومباركة اختيار قائد المعركة ، هزيمة الحلفاء والتهكم بهم .

* من آثار الحرب .

سقوط "أيا صوفيا" ومراثي الشعراء لها .

حال المسلمين بعد هزيمة الدولة "غروب الشمس" .

مصير روسيا .

الباب الثاني : الشعر وحروب الدولة العثمانية داخل الوطن العربي .

ويتكون هذا الباب من ثلاثة فصول :

الفصل الأول : الشعر وحروبها في المغرب العربي – المغرب – الجزائر – تونس .

جاء العثمانيون إلى بلاد المغرب العربي في وقت كانت

تعانى المنطقة من تسلط الأسبان ، والبرتغاليين ، وقد كان مجيئهم استجابة للصرخات التى بدأها أهل الأندلس ، وخاضت الدولة العثمانية ومن والاها من أهل المغرب حروبا متعددة كان لبعضها صدى فى الشعر العربى ، وقمت بتقسيم ماعثرت عليه من شعر على النحو التالى :

المرحلة الأولى :

(١) استغاثة الأندلسى المجهول ، واستغاثة "على بن هارون".

وقيمة القصيدتين تنحصر فى الإطار التاريخى ، لما فى الأولى من تفاصيل عن معاناة من بقى من مسلمى الأندلس على يد النصارى المتسلطين ، ولما فى الثانية من دلالة على أن الإحساس العام لأهل المغرب ممثلين فى هذا العالم من تطلع إلى العثمانيين لإنقاذ المغرب .

(٢) معركة وادى المخازن .

(أ) المعركة وقيمتها التاريخية .

(ب) صداها فى الشعر ، وقد تناولت ثلاث قصائد وجدتها ، وحللتها إلى عناصر منها :

تمجيد القوة ، ثم صورة الجيش البرتغالى ، صورة الجيش الإسلامى ، صورة المعركة ، ذكرى الوقعة ، إثارة الحمية والحماسة عند "محمد بن ماء العينين" .

(٣) سقوط "أصيلا" ودعوة علمائها للجهاد ، قصيدة "عبد العزيز الفشتالى" بعد استعادة المدينة على يد "المنصور الذهبى" .

المرحلة الثانية :

بعد أن استقر "العثمانيون" فى بلاد المغرب ، إذ ساير الشعراء الجيوش المجاهدة تحريضا ووصفا للمعركة ، وقسمت شعر هذه المرحلة على النحو التالى :

(١) استغاثات الشعراء لنجدة "وهران" واستجابة العثمانيين لذلك .

وتناول الشعراء في هذا الحدث مدح القادة والولاة ، جور الاستعمار وتنكيله بالمسلمين ، الدعوة لإنقاذ وهران مع وصف الجيش المنقذ ، الفأل بالنصر ، وصف المعارك والهزيمة .

(٢) الحث على الجهاد ، استرداد "العرائش" و"طنجة" ، والشوق لفتح "سبتة" و"الأندلس" .

(٣) ملاقاة فرنسا "العلي باشا" ودحرهم في نظر "إبراهيم الخراط" "وخليفة بن قائد" .

المرحلة الثالثة :

إحتلال الجزائر في نظر شاعرين من تونس .

إذ حذر الشاعران أهل البلاد عامة من المستعمر الفرنسي ورثيا "الجزائر" ، وما آلت اليه على يد الفرنسيين ، وحثا الناس على الجهاد لاستردادها .

<u>الفصل الثاني</u> : الشعر وحرب طرابلس ١٩١١م .

بدأته بإضاءة حول الحرب ، اشرت فيها إلى أن هذه الحرب جزء من خطط استعمارية للاستيلاء على البلاد الإسلامية ، وصنفت شعر هذه الحرب إلى المجموعات التالية :

* الدعوة إلى الإتحاد ونبذ الفرقة إذ بدأت بواكير الجمعيات السرية القومية تؤتي ثمارها ، وبدأ الخلاف علنا بين العرب والأتراك ، ولمس الشعراء تلك الظاهرة ، فدعوا إلى الاتحاد ونبذ الفرقة بين الأمة الواحدة ، لمواجهة العدوان الإيطالي .

* الدعوة إلى الجهاد بالمال .

إذ عقدت الجمعيات الخيرية ، وتبنت دعوة الناس وحضتهم على التبرع لإخوانهم المجاهدين ، ونظم الشعراء أجود

قصائدهم في تلك الجمعيات ، واشتعل الشعر هنا وهناك فى أرجاء الوطن العربى ، كل يبين على طريقته فضل المال فى دعم الجهاد ، وحاجة المجاهدين له ، ولقد كان "احمد محرم" اكثر الناس نتاجا إذ اخذ يهتبل كل مناسبة ليسمع الناس حاجة أهل "طرابلس" إلى مد يد العون .

* الدعوة إلى الجهاد بالنفس .

حث الشعراء الأمة للانضمام إلى كتائب المجاهدين ، وانضم بعضهم لها "كشكيب أرسلان" ، وبينوا فضل الجهاد بالنفس عند الله ، وشحذوا الهمم إلى الاخذ باسباب القوة لرد الحقوق المغصوبة .

* شوق بعض الشعراء للجهاد .

إذ اشتاق بعض الشعراء من أمثال "محمد بن محمود" ، و"الرصافى" لمشاركة المجاهدين بانفسهم فى ميدان المعركة ، مما يدل على عاطفة إسلامية صادقة تجاه الجهاد والمجاهدين .

* نصرانية المعركة .

وفيها اكد بعض الشعراء الوجه الحقيقى لهذه الحرب وأن الصليبية من عوامل هجوم "إيطاليا" على "طرابلس" .

* وصف المعركة والجيش .

تناول الشعراء وصف الجيش وبلاءه فى المعركة وكذا وصف الجيش "الايطالي" وكشافته ، وهزائمهم بادىء الأمر أمام المجاهدين ، وعرض بعضهم لجرائم الطليان فى أثناء تلك المعارك .

* أنين الجريح .

إذ وصف "احمد محرم" الجريح ، بعد أن تلبس بشخصيته فكانت هذه القصيدة فريدة فى بابها ، إذ استمد الشاعر كل ذلك من مخيلته ، ووصف "صالح السويسى" احد الجرحى إلا انه

لم يكن بمستوى "أحمد محرم" .

* البعثات الطبية .

إذ بين "محرم" حاجة المجاهدين إلى الأطباء ، وأن ذلك عمل جهادى مطلوب وأثنى على من شارك فى ذلك العمل النبيل .

* المعدات القتالية .

جمعت نماذج متصافة لما ذكره الشعراء من معدات قتالية فى قصائدهم .

* الموقف من السلم .

وفيها فند بعض الشعراء مزاعم السلم الأوربية ، وأنها دعوة كاذبة لمباركة بقية الأوربيين لذلك العدوان الإيطالى .

الفصل الثالث : الشعر والحرب العالمية الأولى داخل الوطن العربى .

وقد احتفظت المجلات الأدبية إلى جانب الصحف الخبرية بكم زاخر من الشعر الذى يتصل بالحرب من قريب أو بعيد ، فانتخبت منه ماهو أكثر صلة بموضوعى ، ثم صنفته على مايقتضيه المقام :

* الثناء على الدولة وولاتها المؤيدين لها .

من أمثال "خليل باشا" والى العراق ، و"جمال باشا" والى الشام .

* الحض على مساعدة الدولة .

فدعا بعض الشعراء إلى الوقوف فى صف الدولة ومساعدتها وحمل السلاح لدرء عدوان الحلفاء .

* الثورة العربية .

تحدثت فيه عن القضايا التالية :

تأييد الثورة والتعريض بالأتراك .

إذ أيد بعض الشعراء الثورة العربية ، ونعى بعضهم على الناس سكوتهم عن مظالم الأتراك ، وأكدوا وقوف الشام والحجاز مع الثورة من أمثال "عبد المحسن الكاظمي" ، و"عبد المحسن المحاف" .

* الوقوف ضد الثورة .

كان لهذه الثورة معارضوها من الشعراء من أمثال "أحمد محرم" و"محمد عبد المطلب" .

* المعارك داخل البلاد العربية .

إذ فرح الشعراء المؤيدون للثورة باستيلاء الثوار والحلفاء على بلاد الشام ، كما أشاد الموالون للخلافة بهزيمة الحلفاء فى بعض المعارك .

على أنى من خلال عرض ماسبق فى هذين البابين ، كنت حريصا على تبيان حقيقة فنية ، مؤداها أن الشعر الذى قيل فى هذه الأغراض كلها لم يكن تسجيليا أو تقريريا وحسب ، ولكنه ارتقى أحيانا على يد بعض الشعراء الكبار إلى درجة فنية رفيعة ، كانت نبراسا لسائر الشعراء ، وساعدت على تطور الحركة الشعرية إبانئذ تطورا كبيرا .

<u>الباب الثالث</u> : الخصائص الفنية لشعر هذه الحقبة .

بعد أن أتممت الدراسة الموضوعية انتقلت إلى الدراسة الفنية وقسمت هذا الباب إلى فصلين :

<u>الفصل الأول</u> : الألفاظ والصور .

وقمت بتقسيمه إلى طبقتين من الشعراء :

(أ) الطبقة الأولى :

طبقة ضعيفة فى الألفاظ والصور ، فلاتوليد ولاتجديد عند هذه الفئة إذ تعاطى بعضهم الشعر على أنه مظهر من مظاهر

العلم والثقافة ، فكتبه ولما تكمل الأدوات لديه ، فبينت ذلك من خلال عرض لبعض مظاهر الضعف عند هذه الفئة .

(ب) الطبقة الثانية :

وهي الطبقة القوية أو الرائدة للبعث والتجديد يستوى في ذلك المشهور والمغمور ، برغم التفاوت فيما بينهم ، عرضت فيه لبعض الألفاظ القليلة الشيوع عند بعض شعراء هذه الفئة ، وكذا بعض الألفاظ العصرية التي أملتها الأحداث .

ثم ضربت أمثلة للصور عند هذه الطبقة سواء في ذلك الصور المستمدة من القرآن الكريم ، أو المتأثرة بالشعر القديم ، ثم أشرت الى نماذج لاتعوزها الجدة والابتكار والتميز ، وبينت أيضا استخدام هذه الفئة لألوان من المحسنات البديعية دلالة على التشبث بهذه الظاهرة .

الفصل الثاني : ظواهر مشتركة .

إذ أن هنالك ظواهر مشتركة عند شعراء هذه الحقبة يستوي في ذلك الشعراء المغمورون والمشهورون ، وقسمته إلى عدة مباحث :

* المنزع التاريخي .

إذ يحمل شعر الحرب في هذه الحقبة إشارات تاريخية كتسجيل أسماء الوقائع والأماكن وأسماء المعارك وقادتها والملوك والسلاطين مما يعد مرجعا تاريخيا من الممكن الاستئناس به في بابه .

* النزعة القصصية .

إذ عقد بعض الشعراء قصائد مستقلة ، وآخرون في ثنايا قصائدهم على شكل قصة نحو : "أمين ناصر الدين" ، و"خيرى الهنداوى" ، و"أحمد شوقى" ، وربما يكون هذا مدى للتيار الذي ظهر إبانئذ ، ودعوة تطبيقية إلى تبني القصص الشعرى .

* أساليب انشائية .

إذ كثر عند الشعراء الأساليب الإنشائية ربما لوجود النزعة الخطابية عند بعض الشعراء مما قد يستدعيه موضوع الجهاد والحرب من تحميس وإثارة .

* المعارضات الشعرية .

عرضت فيه لبعض المعارضات الشعرية ، التى كان لها اثرها فى شعر الحرب هنا ، إذ كانت من عوامل الانبعاث والتجدد الشعرى .

على انى قد أخذت فى دراسة هذا البحث بالمنهج التاريخى استهدافا لتوضيح تطور الحركة الشعرية ، عبر هذه الحقبة ، وتخلصها من عوارض الضعف وظهور امارات الصحة والقوة عليها ، كما اخذت أيضا بالمنهج البيانى التحليلى ، إذ كنت اختار النماذج مظهرا مابها من ضعف أو قوة فى احايين كثيرة .

خاتمة .

وقد جمعت فيها النتائج التى خرجت بها من دراسة الموضوع .

ولكننى ماإن بدات فى القراءة ولم شتات هذا البناء ، حتى خلت الابواب موصدة امامى ، وكلما جزت عقبة أتت أخرى ، فمن كتب تاريخية يتيه الباحث فيها للوصول إلى الحقيقة ، ودواوين شعرية لشعراء مضوا إبان بداية الطباعة ، وطبعت اشعارهم فى حياتهم ، ولم تعد طباعتها مرة أخرى ، مما أصبح الوصول إليها ضربا من المستحيل .

ومن جرائد ومجلات موجودة فى أماكن معينة والوصول إليها دونه خرط القتاد ، وتناثر المراجع هنا وهناك ، مما جعل الجهد مشتتا والفكر حائرا ، ولكن كان من طالع سعدى أن

وفقني الله بالأستاذ الدكتور "محمود عبد ربه فياض" إذ كان لي أبا عطوفا ، وصديقا ناصحا ، وأستاذا موجها ، يشرح صدري وقت احتدام الخطوب ، سهل لي كل عسير في هذا البحث بعد الله ، بل تعلمت منه النحو والبلاغة وغرفت من بحر أدبه الزاخر ، وقلمه اللماح ، ولم يضن على بجهد أو وقت حتى في أشد مرضه شفاه الله وأطال عمره وأحسن خاتمته ، والحق أن القلم لايستطيع أن يعبر عما بذله لي طيلة مدة هذه الرسالة فأجزل الله له المثوبة .

كما لاأنسى أن أشكر جامعة أم القرى وبالأخص كلية اللغة العربية عمادة وإدارة ورئاسة أقسام سابقا ولاحقا لما وفروه من وقت لي في سبيل الوصول إلى المبتغى ، كما أشكر عضوي المناقشة اللذين أخذت من وقتهما الثمين لتقييم هذه الرسالة ، والله أسأل أن يوفقنا جميعا لما فيه الخير والصلاح وصلى الله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

التمهيد

كان للحروب على مر التاريخ أكبر الأثر فى الشعر ، حيث ظهر عند كثير من الأمم مايسمى بفن الملاحم .

والعرب أمة حرب كما أنها أمة شاعرة ، فواكب الشعر حمحمة الجياد وصليل السيوف فى حروب العرب القبلية فى الجاهلية .

وما إن بزغت شمس الإسلام حتى رفد الشعر الفرسان فى معاركهم مع قوى الشرك فى أيام الإسلام الأولى ، وتفجر شعر غزير وأراجيز كثيرة فى الفتوح الإسلامية في بلاد الفرس والروم ، واستمر الأمر كذلك فى أيام الأمويين والعباسيين ، وكذا فى المعارك الضارية التى دارت رحاها بين المسلمين وعدوهم كالحروب الأندلسية والصليبية والمغولية مرورا بالعصر العثمانى إلى اليوم .

وقد اهتم القدماء بجمع الشعر العربى عامة ، وأولوا شعر الحماسة عناية خاصة وإن لم يتحدد مدلولها لديهم كما هو الآن ، حيث اتسع معناها كثيرا ولم تقف "عند حد الشعر الذى يعبر عن معانى الشجاعة والأنفة والشدة والإقدام فى ساحات الحرب والقتال ، بل اشتمل إلى جانب ذلك على الشعر المعبر عن العواطف الملتهبة والأحاسيس المتوقدة والشعور الجياش ، سواء أكان ذلك فى التعبير عن نشوة انتصار فى الحرب ، أم زهو بالنفس وافتخار بها ، أم فى التعبير عن خلجات الهوى والحب بالغزل ، وعن آهات الأسى والحزن بالرثاء وعن الهزة العاطفية فى المدح ... وماإلى ذلك من ألوان

الشعر وفنونه ".[1]

وصنف القدماء عددا وافرا في هذا الباب من أشهرها :

* حماسة أبي تمام "حبيب بن أوس الطائي" ٢٣١هـ .
* حماسة البحتري "الوليد بن عبيد" ٢٨٤هـ .
* حماسة ابن المرزبان "محمد بن خلف بن المرزبان البغدادي" ٣٠٩هـ .
* حماسة القرمسيني أبي أحمد "عبد السلام بن الحسين ابن زيد البصري القرمسيني" ٣٢٩هـ .
* الحماسة المحدثة لأحمد بن فارس اللغوي المشهور ٣٩٥هـ .
* الحماسة العسكرية لأبي هلال العسكري ٣٩٥هـ .
* حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء لأبي محمد عبد الله بن محمد بن الحسن العبدلكاني الزوزني ٤٣١هـ .
* حماسة الأعلم الشنتمري ٤٧٦هـ .
* الحماسة الشجرية لهبة بن علي بن حمزة العلوي الحسيني المعروف بابن الشجري ٥٤٢هـ .
* الحماسة البصرية لأبي الحسن علي بن أبي الفرج ابن الحسن البصري المتوفى ٦٥٩هـ .

إلى غير ذلك من الحماسات المؤلفة في هذا الفن ، وبوبت تلك الاختيارات الشعرية على حسب المعاني والموضوعات والأغراض ، وكان باب الحماسة أولها وأوفرها نصيبا لذا سميت تلك الاختيارات به من باب إنزال الشيء لمزية فيه منزلة كله .[2]

---

(١) حماسة أبي تمام وشروحها ، تحقيق عبد الله عبد الرحيم عسيلان ، ص ٢٧ ، ط/دار اللواء للنشر ، الرياض ١٣٩٩هـ .

(٢) نفسه : ص ٥٦ .

وعنى كثير من الباحثين المعاصرين بشعر الحرب نظرا لجدية هذا الموضوع ، وقامت حوله كثير من الدراسات أظهرت كنوزا أدبية دفينة ، ونفضت عنها غبار التاريخ أهمها :

* شعر الحرب في الجاهلية ، د. على الجندى .
* شعر الحرب فى أدب العرب ، د. زكى المحاسنى .
* شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام ، د.النعمان عبد المتعال القاضي .
* شعر الصراع مع الروم فى ضوء التاريخ – العصر العباسى حتى نهاية القرن الرابع – د. نصرت عبد الرحمن .
* شعر الحرب فى ظل سيف الدولة ، د.محمود ابراهيم .
* الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى بمصر والشام ، د. محمد سيد الكيلانى .
* الحياة الأدبية فى ظل الحروب الصليبية بمصر والشام د. أحمد أحمد بدوى .
* شعر الجهاد فى الحروب الصليبية ، د. محمد الهرفى.

إلى غير ذلك من الدراسات الكثيرة التى تنبىء عن دور الشعر فى المعارك الحربية .

ومن الملحوظ أن تلك الدراسات وقفت بعد الحروب الصليبية ولم تتعدها/ وهى فترات قوة بالنسبة للمسلمين ، وكان الشعر فيها قويا فى المعانى والأخيلة والألفاظ والتراكيب .

أما العصر العثمانى فلم أجد من أفرد له دراسة مستقلة على الرغم مما أسر كثرة ماقيل فى حروب الدولة العثمانية الدفاعية مع أوربا ، إذ مرت الدولة العثمانية بثلاث حقب تاريخية :

(أ) حقبة الفتوح :

وهذه لم أستطع الحصول فيها على شعر يذكر ، لأن احتكاك

العثمانيين بالعالم العربى كان فى أوائل القرن العاشر الهجرى .

(ب) حقبة ضم العالم العربى مع توقف في الفتوحات داخل أوربا ، بل ظل جزء منها يعتبر فترة كر وفر ، ومحاولة المحافظة على حدود الدولة .

وقد وجدت قدرا من الشعر لابأس به فى جهادها للأسبان والبرتغاليين فى المغرب العربى .

(ج) الحقبة الثالثة :

التى نحن بصدد دراستها وهى من أحلك الفترات فى تاريخ الأمة الإسلامية ، حيث تكالبت دول أوربا على الدولة العثمانية حين طفق الضعف يدب فى أوصالها ، وبدأت شمسها فى الأفول ، بينما بزغت فى أوربا ، وقطعت فى سنوات قلائل أشواطا بعيدة فى سلم الحضارة المادية . لذا أعرض كثير من الباحثين عن هذه الحقبة ظنا منهم أن نهر الثقافة العربية قد منى بالخواء ، وأن التنقيب عن الحركة الشعرية لايجدى فتيلا لضعف الشعر ، أو شح مصادره ، وفقد كثير منها ، فى زمن لم تكن المطبعة العربية قد ظهرت بعد .

وربما عزز هذه النظرة ماتأثر به بعض الباحثين من سوء ظن بدولة الخلافة ، وأنها أعقمت الثقافة العربية وكانت سببا فى تخلفها ، وهى نظرة روجها الاستعمار الأجنبى فى بعض البلاد التى أقام بها ، نقضا للأواصر العربية العثمانية .

لكن الوقائع أثبتت فيما بعد أن نهر الثقافة ظل متصلا وإن عراه فى الحقبة الأخيرة كثير من الركة والسقم ، وأن المثقف العربى ظل ينظر إلى الشعر على أنه الوسيلة الفنية التى تحقق انتماءه لثقافته الموروثة .

والدليل على ذلك مافاضت به أنهار الصحف أوائل صدورها من أسماء شعراء كانوا مغمورين مجهولين ، ومن شعر غزير فى المناسبات المختلفة . صحيح أن هذا الشعر لايختلف فى تهافته وضعفه عنه فى القرن الذى سبقه ، إلا أن الباحث المدقق يلحظ أن الأحداث المتعاقبة فى دولة الخلافة ، والحروب التى نشبت بينها وبين بعض البلاد الغربية كانت ترج وجدان الشاعر العربى ، وتخرجه من عزلته العقلية والثقافية رويدا رويدا .

وهنا تتداخل عوامل كثيرة مع عامل الحرب فى استعادة شعر الحماسة قوته كظهور المطبعة العربية التى بفضلها خرج كثير من دواوين الشعراء إلى النور ، وكانتشار التعليم وزيادة الإقبال عليه .

إن الحروب العديدة التى نشبت بين دولة الخلافة ودول أوربا ، سواء فى أوربا نفسها أو فى بعض البلاد العربية أعادت للشعر العربى مجالا من أهم مجالاته ، كما حركت وجدان الشاعر دفاعا عن دينه وأمته .

لكن هذه الحركة وإن بدت بطيئة الخطى إلا أنها ظلت تتزايد ، حتى استعاد الشعر خصوبته ، بقدر المواهب التى ظهرت لدى كل شاعر على حده .

الباب الأول

الشعر وحروب الدولة العثمانية في أوروبا

الفصل الأول : الشعر وحروبها مع روسيا .

الفصل الثاني : الشعر وحروبها مع اليونان .

الفصل الثالث : الشعر وحرب البلقان .

الفصل الرابع : الشعر والحرب العالمية الأولى في أوربا .

الفصل الأول

الشعر وحروبها مع روسيا

الحرب الروسية العثمانية

١٢٦٩هـ – ١٨٥٣م

(١) بواعث الحرب .

(٢) تركيز مدائح الخليفة على سجايا القائد .

(٣) الجيش فى المعارك .

(٤) وصف المعركة .

بواعث الحرب :

كانت امارات الضعف التى بدأت تلوح على الدولة العثمانية إشعارا بانها عجزت عن المحافظة على استمرار قوتها ورهبتها ، ومن ثم اخذت بعض الدول الأوربية المتاخمة تطمع فى أطراف منها ، أو تتمرد عليها بعض الولايات الخاضعة لنفوذها .

ففى عام ١٢٦٩هـ/١٨٥٣م طمعت روسيا فى ولايتى "الافلاق والبغدان" (رومانيا الحالية) الخاضعتين للدولة العثمانية واستولت عليهما ، مما تمخض عن حرب بين الدولتين ، تمكن الجيش العثمانى فيهما بقيادة "عمر باشا"(١) من إحراز نصر ، حال برد الشتاء دون البلوغ به إلى نهايته الحاسمة ، وإذ ذاك بادرت بريطانيا وفرنسا بالانضمام إلى الجيش العثمانى ، لاموالاة للعثمانيين ولكن خوفا على مصالحهم من اطماع الروس وكراهة لهم .

واستطاعت الجيوش المتحالفة أن تنقل المعركة إلى الاراضى الروسية ذاتها بعد انسحاب الروس عن (الأفلاق والبغدان) فاغتنمت النمسا الفرصة السانحة ونزلت بالولايتين معلنة انضمامها إلى الحلفاء الذين توالى انتصارهم حتى استولوا على ميناء "سيبا ستيتول"(٢) فى ١٢٧١/١٢/٢٩هـ .

وبعد أن لمست "روسيا" تفاقم خسارتها فى الحرب ، اعلنت وقفها ، وموافقتها على أن تبقى "الافلاق والبغدان"

---

(١) قائد عثمانى أصله من النمسا خدم مدة بالجيش النمساوى ثم هاجر إلى البوسنه من البلاد العثمانية وأسلم وعمل بالجيش العثمانى وترقى فى مناصب قيادية عالية . انظر : الدولة العلية العثمانية ص ٤٩٧ .

(٢) يقع على ساحل البحر الأسود .

تحت حماية الدولة العثمانية ، ولم تلبثا طويلا فخرجتا من تبعيتها بعد معاهدة عام ١٢٧٥هـ (١) .

إذ ذاك ترامت أنباء الحرب إلى أقاليم الدولة ، ومنها البلاد العربية ، فقرعت الأحداث شعراءها ، وأفاقتهم من غفوة طويلة ، كان الشعر فيها قد بلغ حدا من السقم والركة والتهافت التي تبدَّت في فسولة المعاني ، وتكلفها ، وفي شيوع الألفاظ المبتذلة ، وفي اختلال الوزن ، والخروج على قواعد اللغة حينا ، وفي الإسراف .

كانت أحداث هذه الحرب منبها يختلف عن غيره من المنبهات الضعيفة التي تلابس حياته ، ومن هنا بدأ وجدان الشاعر يفيق على حدث مهم ، وبدأ شعراء لم يُسمع بهم يظهرون على وقع هذه الأحداث .

استلفتت ظاهرة الكثرة هذه "أحمد فارس الشدياق" فكتب عنها مقالا مسهبا ، مما قال فيه : "... يظهر أن عدد الشعراء بمصر الآن كعدد الكتاب ، أو في الأقل كعدد محبري الرسائل المسجعة ، هذا مع عدم ارتكاب الضرورات المباحة للشعراء ، ومبادلة الحروف ، وقلق القوافي ، وتجنب الإخلال بقواعد وأساليب العربية .

فمن أين نشأ هؤلاء الشعراء المجيدون ؟ وكيف كانت أسماؤهم مخفية عنا حتى انبثقت أشعة براعتهم الآن بمرة واحدة ؟ مع أنه في زمن «محمد على» لم يكن مشهورا في «مصر» كلها من الشعراء المجيدين سوى أربعة ، أشهرهم المرحوم

(١) انظر : العثمانيون والروس ص ١٠٩-١١٧ ، د. على حسون ، ط/المكتب الاسلامي ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٤٩١ ، التاريخ الاسلامي – العهد العثماني ص ٤٧٧ ، د. محمود شاكر ، ط/المكتب الاسلامي ١٤٠٧هـ .

«محمد شهاب الدين» ، والثاني المرحوم الشيخ «علي الدرويش» ، وكان يقال فيه : إنه بارع في فن واحد من فنون الشعر ، والثالث المرحوم الشيخ «عبد الرحمن المفتي» ، والرابع المرحوم «أحمد الأزبكاوي» ، وكان كلامه مغلقا ، وكان الناس يفضلون الشيخ «محمد شهاب الدين» لتضلعه باللغة ، وانسجام كلامه ورقة معانيه إلا أنه لم يكن له باع في الحماسة ، إذ كان مقاله عبارة عن رقة طباعه وأخلاقه .

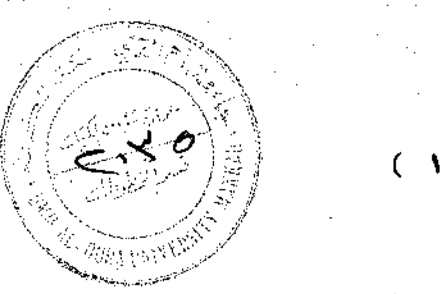
أما شعراء «مصر» اليوم فإنهم أخذوا بجميع طرق الأدب من حماسة ونسيب ووصف وبلاغة وجزالة ..." (١) .

اكتفى الشدياق بتسجيل الظاهرة ، ولم يعن بتحليلها ، ولا الإشارة إلى أسبابها ، والحق أن هذه الظاهرة استلفتت الباحث في بقية البلاد العربية بنسب متفاوتة في الوقت ذاته تقريبا ، لكن لم يتح لها في حينها من وسائل النشر ما أتيح لها في «مصر» . وقد يكون لهذه الكثرة في «مصر» أسباب أخرى تضافرت مع أحداث الحرب ، إلا أن هذه الأحداث كانت من أظهر البواعث التي نبهت وجدان الشاعر ، لما تنطوي عليه من إثارة المشاعر الإسلامية ، حيث انفرد العامل الديني وقتذاك بتفسير هذه الحرب بين الدولة العلية وعدوها .

ومع هذه الكثرة فلم يستطع الشعراء الفكاك من أسر الشعر الذي ورثوه عن عصر الضعف ، في الأساليب وفي الصور واللغة ، إلا بقدر يسير من أمارات التجديد كانت تلوح ببطء وبقدر ما بين الشعراء من استعداد وموهبة .

---

(١) الوقائع المصرية ـ العدد ٤٦ في ٢٩ جمادى الأولى ١٢٨٣هـ ، نقلا عن د. محمود فياض ، الصحافة الأدبية ، رسالة ماجستير لم تنشر .



تركيز مدائح الخليفة على سجايا القائد :

ارتكزت قصيدة الحماسة وقتذاك على عدة محاور ، من بينها "المدح" فالشاعر يتجه بمدحه إلى الخليفة ، لاللاستجداء والنوال ولكن لأنه قائد الدولة ، وموجه سياستها ، ومدبر أمورها ، ويتجه إليه في أوقات النصر ، أو فيما حسبه نصرا مشيدا بمحامده وأفضاله التي عمت أرجاء الدولة فاستحقت جيوشه النصر في الميدان .

وقد يستهل الشاعر قصيدته بهذا المديح كالذي يخاطب به "سليمان الصولة"(١) الخليفة عبد المجيد خان(٢) في مطلع قصيدته :

نصرتَ لواءَ الحقِّ أيدكَ العدلُ فَشطَّ مَزارُ الجوْرِ وابْتهجَ العدل(٣)

أو يبثه في ثنايا القصيدة ، كالذي نجده عند عبد القادر الجزائري(٤) فقد استهل بقوله :

يا ربِّ يا ربَّ الأنامِ ومن إليه مَفْزعُنا سرًّا وإعلانا

ثم قال :

---

(١) سليمان بن ابراهيم الصولة شاعر شامي ولد في ١٢٢٩هـ ، رحل إلى مصر وتعلم بها ثم عاد إلى الشام ، وكان على اتصال بالأمير عبد القادر الجزائري ، كان شيعيا متعصبا سافر إلى مصر مرة أخرى فتوفي بها سنة ١٣١٧هـ . انظر : مقدمة ديوانه ، الآداب العربية في القرن التاسع عشر . لويس شيخو

(٢) السلطان عبد المجيد خان بن السلطان محمود الثاني ، ولد عام ١٢٣٧هـ ، تولى الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م ، وهو دون الثامنة عشرة ، توفي سنة ١٢٧٧هـ .
انظر : العثمانيون والروس ص ١٠٨ .

(٣) ديوانه ص ٢٢٧ ، ط/المعارف بمصر بدون تاريخ .

(٤) عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى الجزائري ، ولد سنة ١٢٢٢هـ بوهران ، حفظ القرآن مبكرا ، ورافق والده في رحلته إلى الحجاز ، تثقف على والده ، وتعلم فن الفروسية عندما احتلت فرنسا الجزائر بايعه أهلها على الإمارة والجهاد ، فنازل الفرنسيين مرات عديدة ، أسر سنة ١٢٦٥هـ ، ثم أطلق سراحه فاستقر بدمشق إلى أن توفي سنة ١٣٠٠هـ .
انظر : الأمير عبد القادر الجزائري ، بسام العسلي .

يارِبَّ أَيِّد بروحِ القدْسِ ملجأنا .عبدَ المجيدِ ولاتبقيه[1] حيْرانا[2]

أمـا «أحمد الشدياق»[3] فيختم قصيدته بهذا المديح ، فيقول في ختام مطولته في الحرب :

مَنْ كان من بيْنِ الورى سلطانَه .عبدُ المجيدِ فإنه لَمُظفّـرُ
سلطانُنا الأسْمى الذى سَعِدَتْ به أيامُنا وزَهَتْ فَدَتْهُ الأعْصُر
نَشَرَ العدالةَ فى البلادِ فكلّنا مُستأْمَنٌ فى ظلّه مُستبشِـرُ
ولكلّ جيلٍ فـى ممالِكـه يـدٌ منه وآلاءُ تعـمُّ وتغمُـرُ[4]

ويستوقف الدارس لمحة مهمة ، أن معظم هذه المدائح كانت تركز على اتّصاف الخليفة بالعدل ، والعلة أن الأوربيين كانوا يتهمون الدولة بالجور على النصارى ويزعمون أن الدولة تهملهم ، وتغبنهم ، سبيلا إلى التحرش بها ، والتدخل فى شئونها ، من هنا نجد «الشدياق» يركز على صفة العدل ، وأن جميع الرعية مستأمنة فى ظل الخليفة ، كما نجد «سليمان الصولة» يركز على المعنى ذاته فى قوله :

لقدْ زَعَمَ الواشون أنّك ظالـمٌ
وعندكَ لايَسْطو علَى الحَمَلِ الشِّبْلُ
لِيَنْظرْ ذوو الإنْصافِ حالَ بلادِنـا
ويأتوا بحكمٍ لايُكَذِّبُـهُ النَّقْـلُ

---

(١) الصحيح : ولاتبقه ، لأن الفعل يجزم بلا الناهية .
(٢) ديوانه ص ١٩٤ ، ط/المطبعة التعاونية اللبنانية ١٩٦٤م تحقيق ممدوح حقى .
(٣) أحمد فارس بن يوسف الشدياق ، ولد سنة ١٢١٩هـ/١٨٠٤م من أبوين مسيحيين ، جال فى أقطار كثيرة ، أتقن عدة لغات ، أسلم بتونس ، أنشأ جريدة "الجوائب" بطلب من الدولة العثمانية ، عالم باللغة والأدب ، له عدة تآليف منها الجاسوس على القاموس ، والساق على الساق فيما هو الفارياق ، وسر الليال فى القلب والإبدال ، مات بالاستانة سنة ١٣٠٤هـ/١٨٨٧م .
انظر :
(٤) الساق على الساق ص ٦٥٤ ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .

يَروا أنَّك المُعطِي الحقوقَ لأهْلِها
باعدلٍ قسطٍ لايلمُّ به زحْل
ليعلمْ مليكُ الروسِ أنَّ حقوقَنا
لديك حقوقُ المسلمين وإنْ جلّوا
وأنَّ دمَ الذّمي يُحْقَنْ عندكم
كما أمَرَ الْبَاري وأحْكَمتْ الرُّسُلُ
طعامُكُمْ حِلٌّ لنا وطَعَامُنا
لكم وَعلَيْنا مَاعلَيْكم ولايَغلو (١).

فالخليفة عادل ،والوية عدله تخفق على الرعية بلاتمييز ولذلك امن الضعيف سطوة القوي ، لافرق بين ذمى ومسلم ، رعاية لامر الله الذى جاءت به الرسل .

وثم لمحة اخرى فى هذه المدائح تشخص امام الباحث ، تظهر فى الإشارة إلى انَّ الخليفة أعاد الجهاد فى سبيل الله بعدما وهن المسلمون عنه ، وتقاطرت حولهم الذئاب الطامعون وانه انفق الاموال بلاضن على الجهاد كما يحض الدين .

ويتضح هذا فى قصيدة للأمير،عبد القادر الجزائرى،يمدح بها السلطان :

ابنُ الخَلائفِ وابنُ الاكرمين ومن
تَوارثوا الملكَ سُلطاناً فسلطانا
أحيا الجهادَ لَنَا من بعْد مادُرِسَتْ
وضَاعفَ الْمالَ أنواعاً وألْوانا
وانصرْ وأيِّد وثبِّتْ جيشَ نُصرْتِه
انصارُ دينِك حقاً آل عثمانا

---
(١) ديوانه ص ٢٢٨ .

الباذلونَ بيوم الحَرْبِ أنْفسَهم
لله كمْ بذلوا نَفْساً وأبْدانا .

والضّاربون ببيضِ الْهندِ مُرهَفةً
تخالُها في ظلامِ الحربِ نيرانا

والطاعنون بسُمْرِ الخَطِّ عاليةً
إذا الْعَدوُّ رآها شرّعتْ بانا

والمُصْطلون بنارِ الحربِ شاعلةً
مطلوبُهم منك ياذا الفضْلِ رِضْوانا .(١)

وبسبب من النظرة إلى الخليفة ، وأنه المدبر لشئون الدولة في خضم الحرب فلاغرو أن يحض الشاعر على طاعته ، والائتمار بأمره ، وعدم الخروج عليه ليتم النصر على العدو.

يقول الشدياق :

ولّاهُ أمرَ الدينِ والدنيا معاً فهو الإمامُ الحاكمُ المُتآمِّر(٢)

ويقول عمر أنسي (٣) :

سلطانُنا العالي على فلك العلى
عبدُ المجيد الأوحدُ السّامي الذُّرى

وهبَ الْإلهُ لهُ المعاليَ مثلَما
أوْلاهُ بالعزِّ المُشيِّدِ مَظهرا

ويستمر في الثناء على الخليفة من هذا المنطلق عينه ، فالخليفة ذو رأى رشيد سديد ، وحلمه شمل الأنام .

يافاتحَ الفتحِ الجديدِ وصاحبَ ال
م ملكِ السَّعيدِ مُؤيَّداً ومُظفّرا

---

(١) ديوانه ص ١٦٢-١٦٣ .
(٢) الساق على الساق ص ٦٥٤ .
(٣) عمر بن محمد بن أعرابي الأنسي ، ولد ببيروت سنة ١٢٣٧هـ ، تولى قضاء حيفا وصيدا ، اشتغل بالتدريس بعد عزله من القضاء ، توفي سنة ١٢٩٣هـ .
انظر خاتمة ديوانه .

ومقلّد الخلق الحميد نزاهة ... ومسدد الرأى الرّشيد تبصّرا

لله درّك من مليكٍ حِلمُه ... شمل الورى لاريب فيه ولامِرَا (١)

ولأن القصيدة ألقيت بين يدى «محمود نديم باشا» (٢) صاحب إيالة «صيدا» ، فقد أطراه بالجود والعلم والأخلاق الحميدة .

لاسيما والى إيالتنا الذى
قد فاخرتْ فيه السنينُ الأعصُرا

اعنى نديم السعد «محمود» الذى
بين المَلا بمناقبٍ لن تُنكرا

إن قلتُ كالعَلَم الشهير لدى الورى
كانت مناقبُه أعزّ وأشهرا

وصفاءُ أخلاقٍ لفَرْط صفائها
ماقطّ منهلُها الشهىّ تكدّرا

وسناءُ وجهٍ بالبشاشة لو بَدَا
لك فى الدُّجا عاينت صبحا مُسفرا

وسخاءُ كفٍ لو ألمَّ بك الظما
شاهدْتَ منه لطيب وِرْدِك كوثرا (٣)

وتوحى إلينا هذه الإشارات التى انطوت عليها هذه المدائح ـ سواء استقلت القصيدة بالمديح أو ورد المديح فى ثناياها ، أو ختمت به ـ توحى بأن السجايا التى استلفتت الشعراء فركزوا عليها هى السجايا التى تليق بشخصية القائد المحارب ، الذى يسوس أمور الدولة فى الحرب ، وأن العاطفة التى تصدر عنها هى الغيرة على الدين والوطن .

يقول «أحمد الشدياق» :

---

(١) ، (٣) ديوانه الورد العذب ص ١١٠ بدون تاريخ ولادار طباعة جمعه عبد الرحمن أنسى طيب .
(٢) لم اعثر على ترجمته .

لسنا نَروْمُ بغيرِ طاعتِهِ إلى الرحمن من زُلْفى ولانتخيَّرُ
كلّا ولا فى غير خدمتِنا لَــهُ غَرضٌ وإخلاصٌ لنا وتبـــرّر (١)

فمدح الخليفة فى غضون هذه الأحداث ليس قصدا لإحراز منفعة ، ولارغبة فى مال ، إنما هو ولاء للإسلام والوطن ، وللخليفة الذى يحمى الإسلام والوطن ويقود جيوش المسلمين دفاعا عنهما ، لاسيما وقد عرفنا من أسباب الحرب الروسية العثمانية أنها بدأت بعدوان على حقوق الدولة فى ولايتى «الأفلاق والبغدان» ، وهذا التطور فى شعر المديح ملحظ مهم ، دفعت إليه أحداث الحرب .

الجيش فى المعارك :

لاريب أن أخبار التحرش بالدولة ، وتعبئة الجيوش والاستعداد للحرب كانت تنتهى إلى الشعراء بالطريقة التى كانت تتداول بها الأخبار آنذاك ، فيتصورون الجيشين المتحاربين على مايتخيلون من بأس جيش المسلمين وحسن بلائه وضعف جيش العدو وتشرذمه ، وليس الشاعر مطالبا بأن يؤرخ للحدث ، وأن ينقل عن الواقع نقلا مطابقا ، وإنما تملى عليه طبيعته الفنية أن يصف كما يتخيل .

وهنا نجد الشاعر يستلهم بعض صوره وألفاظه من شعر الحرب فى الأدب العربى عند «أبي تمام» و«المتنبى» و«أبى فراس» وغيرهم ممن خلدوا الوقائع بين المسلمين وعدوهم .

فى إشارة ظاهرة إلى ماكان عليه جيش الروم من كثرة العدد ، ينبه «أحمد فارس الشدياق» إلى أن الكثرة والقلة فى عدد المقاتلين ليست مدار النصر والهزيمة ، وإنما العبرة بالحق الذى يدافع عنه جيش المسلمين ، فيقول :

---

(١) الساق على الساق ص ٦٥١ .

طغت الطغاةُ الروس لمّا غرّهم   فى الأرض كُثر سوادِهم وتجبّروا

لايغررنّكمْ كثيـر جموعهـم   فالحقّ ليس يُضيره المستكثـرُ (١)

وينبه «عبد الله فكرى» إلى ذات المعنى فيقول :

وقد غرّهم من قبلُ كثرةُ جيشهم

فلم يُغنِ عنهم ذلك الجيشُ والرّكْبُ (٢)

ويشترك الشعراء فى الحرص على إبراز الحمية والغيرة على الإسلام لدى الجندى المسلم ، فهو لايقاتل عن غرض دنيوى لاغير ، بل يقاتل حماية للدين ولأرض المسلمين ، ولذلك فهو يبادر إلى التطوع فى الجيش ، ويعتبر التضحية بالنفس شهادة وأن الله يمده بما يعينه على النصر ، ومن هذه الروح القوية تكون شجاعته وبلاؤه فى القتال .

وفى ذلك يقول «الشدياق» :

ام يُعجزون اللّهَ إذ يُمْلى لهم   عن أنْ يَغارَ لقومِهِ أو يَنصُروا

او أن يمدّهم بجندٍ لاتُرى   وبمُنْشئاتٍ مُخَّرٍ لاتُبحرُ

او يُرسلُ الطيرَ الأبابيلَ التى   قد أهْلكتْ أمْثالَهم لاكُثّروا

من كان يُرضى اللّهَ خالصُ سعيه   فى الناسِ فهو بكلِّ خير يَجْدرُ

انتم عبادُ اللّهِ حقاً فاعْبدوا   للدينِ فهو بكم يَعزُّ ويجبرُ (٣)

فالله ينصر المسلمين إذا أخلصوا سعيهم له ، والدين يعز بهم إذا انتصروا على عدوهم .

ويشير «عبد القادر الجزائرى» إلى هذا الوازع الإسلامى الذى يحرض المسلمين على القتال فى قوله :

---

(١) السابق ص ٦٥١ .

(٢) الآثار الفكرية من نظم ونثر ، عبد الله باشا فكرى ص١٣ الطبعة الأولى ١٣١٥هـ ، جمع أمين فكرى باشا .

(٣) الساق على الساق ص ٦٥٣ .

الدافعون عن الإسلام كلَّ أذىً بأنفسٍ قد غَلَتْ قَدْراً وأثمانا
كم غُمَّةٍ كشفوا كم كُربةٍ رفعوا وكم أزاحوا عن الإسلامِ عُدوانا (١)

استثارة همم المسلمين :

ومن الموضوعات التى عرض لها شعراء هذه الحرب استثارة همم المسلمين للقتال ومواصلة الجهاد ، وقد تنوعت تلك الاستثارة لارتباطها بوجدان الناس .

منها ذكر أبطال الإسلام وأمجادهم ، والتنويه بالمعارك الكبرى ، إذ إنَّ الرجوع بالذاكرة إلى أبطال الإسلام عبر التاريخ مدعاة لبعث الحمية المستكنة فى قلوب المسلمين ، وازاحة الرماد عن الجذوة لتعود متقدة فى نفوسهم وبعث روح الجهاد ، ثم إنه يصلهم بالماضى العظيم الذى حقق فيه المسلمون النصر على أعدائهم .

فهذا يوم بدر أعز الله فيه الإسلام والمسلمين هولكم ذكرى وعبرة أيها المجاهدون كما يقول أحمد فارس :

فى أهل بدر عبرة لكم ياقوم فَلْيَتَذَكَّرِ الْمتذكر (٢)

ويدعو عبد القادر الجزائرى ـ متوسلا بأهل بدر ـ (٣) لأنهم أول من نصروا الإسلام ، بأن ينصر الله المسلمين ويقطع دابر الظلم والكفر وأن يلقى السكينة فى قلوب المسلمين ويزيدهم إيمانا إلى إيمانهم .

ياربِّ زِدْهم بتأييدٍ إذا زَحَفُوا
واقطعْ بسيفِهمُ ظُلْماً وكُفْرانا
أَلْقِ السَّكِينَةَ ربِّي في قُلوبِهِم
وزِدْهم يا إله العرْشِ إيمانا

---

(١) ديوانه ص ١٦٤ .
(٢) السابق ص ٦٥٣ .
(٣) إن التوسل بالأموات أمر لم يرد فى السنة ولم يثبت عن أحد من الصحابة ، لذا لايقر على مثل هذه الأمور البدعية وهذا هو الصحيح من مذهب السلف .

وجّهتُ وجهي انّني مادعوتُ به
باهلِ بدرٍ حماةَ الدّين اركانا (١)

ومنها استثارتهم للدفاع عن الإسلام والغيرة عليه من الأعداء ، لئلا يستبيحوا بيضة المسلمين ، إذ أن الدين بكم أيها الجنود المرابطون يعز ويجبر ، لأنكم عباد الله حقا ، وحماية الدين فرض لابد من القيام به لترفعوا أعلامه خفاقة ، ولكم ان تفخروا بذلك .

ويستثارون بالدفاع عن الأوطان الإسلامية لئلا يسمعوا اجراس النصارى ، تدق بدلا من ـ الله اكبر ـ ولئلا تنجس المنابر الإسلامية من قبل أولئك الأعداء .

انتم عبادُ اللّه حقاً فاعبدوا للدين فهو بِكم يَعزّ ويجبر
واحموا حقيقتكم فحفظُ ذِماركم فرضٌ عليكم ليسَ عنْه تأخّر
غاروا على الإسلام حتى تَرفّعوا اَعْلامَه فلكم به أن تَفخروا
لاتُسمع الأجراسُ في أوْطانِكم بدلَ النّداء ولاينجّسْ مِنبَر (٢)
وليسمعن اليوم في ارجائكم قرع النواقس بالظبي أوتحذروا

ويستثارون من جهة أعراضهم لئلا تنتهك من قبل أولئك الأنذال ، ولاتتذرعوا بالصبر حين تنتهك الأعراض ، ولاخير في عيش مصحوب بالذلة والمهانة ، وعليكم بالتصدي لهؤلاء فحاشا لمثلكم ان يولي الأدبار في المواقف العصيبة .

غَارُوا على حرم مُخَدّرة لَكُم قَدْ طَالَمَا احْصِنّ عَمّن يَعْهَر
ايقودُهنّ اليوم عِلْجٌ فاجِرٌ وسيوفكم بدمائِهمْ لاتَقْطُر
الصبر محمود ولكن حين تُنْتَهكْ الْمحارِمْ لاأرَى ان تَصْبِروا (٣)
لاخير في عيش يقارف ذِلّةً حاشاكم ان تفشلوا اوتُدْبِروا

---

(١) ديوانه ص ١٦٥ .
(٢) ، (٣) الساق على الساق ص ٦٥٢ .

وإذا كان الدافع إلى القتال هو الغيرة للدين وحمايته فلاغرو أن تكون أوصاف المقاتل منسجمة مع العاطفة الإيمانية التي تجيش بقلبه ، فهؤلاء المقاتلون يلبون النداء إذا دعا داعي الوغى فرسانا وراجلين ، وهم أثبت من الجبال الرواسي ولايصبر عليهم من يلاقيهم ، وهم أشد بأسا من أسود الغاب إذا غضبت وهاجت ، فلاعجب أن يدهش عدوهم من بطولتهم الفذة .

وفي هذا يقول «عبد القادر الجزائري» :

جيشٌ إذا صاح صيّاحُ الحروبِ لهم
طاروا إلى الموتِ فُرسانًا ورجلانا

همْ الجبالُ ثباتاً يوْم حَرْبِهِم
فصابرٌ مَنْ عَدَاهم ، صبرُه خانَا

هم الليوثُ ليوثُ الغابِ غاضبةً
والليثُ لايُلْتقى إن كان غضبانا

هم الألى دأْبُهم شقُّ الصُّفوف لدى
حملاتهم صارَ جيشُ الكُفْرِ حَيْرانا (١)

وفي النص تهافت وعي في المعاني ، ودليل على ما انتهى إليه الشعر قبيل هذه الحرب ، لكنه من ناحية أخرى يتضمن هو وأشباهه دليلا على الاستجابة الشعرية لأحداث الحرب ، واستمرار هذه الاستجابة وانتشارها مما هيأ المناخ الفني للشعراء الموهوبين .

أما «عمر أنسي» فيقدم صورة أكثر تفصيلا لجيش المسلمين فيقول : إنه جيش منصور حاز المفاخر كلها ، فرسانه تفتك بأعدائها كما تفتك أسد الشرى بفريستها وسط الفلاة ، كل

---

(١) ديوانه ص ١٦٤ .

فرد من أفراده لايهاب التقدم ، ويحافظ على سمعته فلايتأخر ، يشرى النفوس يوم الطعان ، لأن الموت ألذ لنفسه ، وطلب العلا مبتغاه ، وذلك خير من أن يعيش ذليلا حقيرا بين أعدائه .

ومعانقة الهندى أطيب له من معانقة ذوات الحسن والجمال ، كما أن رائحة البارود وسط الوغى أبهج لنفسه من ريح العنبر .

لله درُّ العسكرِ المنصورِ كـمّ
قد حاز عزّاً فى الأنام ومفخرا

فتكتْ فوارسُه بأعْدَاهــا كَمُـا
فتكتْ براتعةِ الْفلا أُسْدُ الشّرى

من كل أروعَ لايهــابُ تقدمــاً
ويهابُ ذلَّ الْعارِ أنْ يَتَأخّــرا

وَسُمَيّدعٍ يشْرِى النّفوسَ رخيصــةً
يوم الطّعَانِ وقدْ غَلاَ وتَسعّـرا

أشهى له الأجلُ المتاح أوالْعلا
من أن يعيشَ لدى الأنام مُحقّرا

وعناقه ماضى الغِرَارِ مهنّـداً
أهْنَا له من أنْ يُعانقَ جُؤْذَرا

ودخانُ بارود الوغى أذْكَى لـه
من أن تروّحهُ المجامرُ عنْبـرا (١)

وإذا كان الشعراء السابقون التفتوا إلى الأدوات القتالية ، فإن شعراء هذه الحرب لم يغفلوا عن ذكرها ، إذ سجلوا دورها فى ثنايا قصائدهم كالمدفع ، والبوارج ، والخيل ، والسيف والرمح .

---

(١) ديوانه ـ المورد العذب ص ١١١ .

فالمدفع عندما يطلق يغطي دخانه السماء وتندفع نيرانه في كل مكان ، صوته شبيه بصوت الرعد ودويه كما قال عبد الباقي العمري (١) :

مدافعُ غطّت الدّنيا غمائمُها فغادرتْ صبحَ يوم الحرب دَيْجورا
أفواهُها دَلَعتْ للنّار ألسنةً فقرّرتْ دَرْسَ مُلك الروس تقْريرا (٢)

وفيها قال عمر أنسي :

وكأنّ أصواتَ المدافعِ في الدّجى رعدٌ تألّق برقه مُستمطرا (٣)

وقال عبد الله فكري :

إذا رَعَدَتْ فيها المدافعُ أمطرتْ
كؤوسَ منون قصّرتْ دونها السُّحُب (٤)

وفي هذه الحرب عرفت البوارج الحربية واشتركت في القتال إلى جنب الجيش العثماني ، لكن يبدو من القرائن أنها كانت لبريطانيا .. وفي وصفها يقول سليمان إبراهيم الموصلي :

وقد بعثتْ فكتوريا لبحارك الَّ بوارجَ تعلوها الفُضارفةُ العُبْل (٥)

وقبل أن تظهر أدوات القتال الحديثة ظلت الخيل – كما كانت على مر التاريخ – من أهم وسائل القتال وتحقيق النصر في ميادين الحرب ، وظلت الدول إلى ذلك الحين تعنى بها

---

(١) عبد الباقي العمري الفاروقي ، ولد سنة ١٢٥٠هـ ، اشتغل في بدء حياته بتحصيل العلوم وزار عاصمة الخلافة عدة مرات ، تولى قضاء كركوك وغيرها ، له عدد من المؤلفات منها : البهجة البهية في إعراب الأجرومية ، وله ديوان ضخم ، توفي ببغداد سنة ١٢٩٢هـ .
انظر : المسك الأذفر في نشر مزايا القرن الثاني عشر والثالث عشر ، محمود شكري الآلوسي ، تحقيق عبد الله الجبوري ، مقدمة ديوانه : الترياق الفاروقي .

(٢) الترياق الفاروقي ، ديوان عبد الباقي العمري ص ٣٨١ ، دار النعمان للطباعة والنشر ، النجف ، الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ .

(٣) ديوانه – المورد العذب ص ١١١ .

(٤) الآثار الفكرية ص ١٣ .

(٥) ديوانه ص ٢٢٩ .

عناية كبرى ، ولذلك التفت الشعراء إلى وصفها كما التفتوا إلى وصف غيرها من الأدوات والمعدات ، فهي خيل ضامرة لتكون حركتها سريعة أثناء المعركة ، قوية تخالها في الحرب عقبانا في شدة انقضاضها على الأعداء كما يقول «عبد القادر الجزائري» :

والراكبون عِتاقَ الخيلِ ضَامرةً
تخالُها في مجالِ الحربِ عُقبانا (١)

وعندما تطارد الأعداء فإن الغبار يتعالى من تحت سنابكها عند «عمر أنسي» :

ولدى طرادِ الخيلِ في إثْر العِدى   عقدتْ سنابكُها عليه عِثْيرا (٢)

أما السيف فسلاح أثير لدى المقاتلين «ولاسيما إذا ما تلاحموا ، ونجد «عمر أنسي» يشير إلى شغف الجنود به لدرجة أنه أهنأ وأقرب لنفوسهم من معانقة ربات الجمال :

وعِناقُه ماضي الغِرار مهنداً   أهْنأ له من أن يُعانق جُؤذرا (٣)

ويقول «عبد القادر الجزائري» : إنك تخال السيوف أثناء المعركة نيرانا وسط الظلام الدامس :

الضَّارِبون بِبِيضِ الهندِ مُرْهَفةً   تخالُها في ظلامِ الحربِ نِيرانَا (٤)

ويقول «العمري» إن السيف عندما علا هامات الأعداء من شدة فرحه غنى طربا حتى كأنه شُحْرُور على غصن يزغرد بصوته الشجي :

والسيف غنَّى على هاماتِهم طربًا
حتَّى حسبْناهُ فوق الغصنِ شحرورا (٥)

---

(١) ديوانه ص ١٦٤ .
(٢) ديوانه ـ المورد العذب ص ١١٢ .
(٣) نفسه ص ١١١ .
(٤) ديوانه ص ١٦٣ .
(٥) ديوانه ـ الترياق الفاروقي ص ٣٨١ .

لكـن السيف وإن كان عضبا مرهفا فلايعمل عمله إلا فى يد مـؤمن باللـه ، أمـا لو كان فى يد متخاذل قليل الإيمان فلن يساوى عصا .

لن يعملَ البتّارُ إلا أن يشاء اللـه ماشَىءْ سواهُ مؤثر (١)

ونجـد الرماح من أنواع الأسلحة التى استعملها الجيشان المتحاربان إذ يقول أحمد فارس :

ولربّما شَرَعُوا الرّماحَ عليكمْ
لكنْ على إنْفَاذِها لن يَقْدِرُوا (٢)

ويقـول عمـر أنسى إن هذه الرماح السمراء اللينة ذات الكعـاب المتعـددة أحـب إلى نفس الجندى العثمانى من البيض الكواعب .

واحبُّ من بيضِ الكواعبِ خُرّدًا تقليبه اللّدنَ الكُعوبَ الأسْمرا (٣)

ومـن صفات الجندى الطعن بالرماح ، وماإن يراها العدو مشرعة نحوه حتى يولى هاربا بعيدا عن ميدان المعركة .

والطّاعنون بسُمْر الخُطِّ عاليةً إذا العدوُّ رآها شرّعت بانا (٤)

ويقول المولة إن وجوه الأعداء متغيرة يصول فيهم الرمح والنصل .

أعاديك كانوا فى اللّقاءِ كَواسفَ ال
مُ وُجوه يخوضُ الرمحُ فيهم والنّصلُ (٥)

ومـن خلال هذه النصوص السابقة نجد الشاعر قد التفت فى قصيـدة الحرب إلى أدوات القتال التى كانت معروفة وقتذاك ، وإن لـم يتحـقق له فيما اشتملت عليه المصادر الشعرية التى

---

(١) ، (٢) الساق على الساق ص ٦٥٢ .
(٣) ديوانه ـ المورد العذب ص ١١١ .
(٤) ديوانه ص ١٦٣ .
(٥) ديوانه ص ٢٢٨ .

رجعت إليها إبان هذه الحرب المعنى الجديد أو الصورة الفنية البديعة .

وصف المعركة :

يذكر الشاعر احمد فارس شيئا مما ينصح به جنود المسلمين قبيل النزال فى ساحات الوغى ، فهو ينصح بالتمسك بالعروة الوثقى ، والصبر على القتال ، ثم يدلهم على شئ يغنيهم عن السلاح الأبتر ألا وهو التكبير والتهليل ، لأنه سيهز قلوب الأعداء ويلقى فيها الذعر ، وأن ذلك من أسباب الظفر عليهم ، ثم عليكم أيها الجنود أن تغزو العدو بحرا وبرا ، واحشدوا كل مالديكم من فرسان واعلموا أنه لو لم يكن منكم سوى نفر قليل لغلبوا الأعداء فكيف بكم وانتم قوة لايستهان بها :

وتمسَّكوا بالعُروةِ الوثْقى من الصـ
ـبرِ الجميلِ على القتالِ وذمِّروا

يُغنيكمُ التَّكْبيرُ والتهليـلُ عَـنْ
أن تُعْمِلوا فيهم سِلاحًا يبْتَر

فالقَوْمُ بهما كِفاحًا تظفروا
وعليهمُ صُولُوا وطُولوا وانفِروا

واغزوهمُ بحرًا وبرًّا واحْشِدُوا
رَكْبًا وفُرسانًا ونسرُهم انْشُروا

لوْ لمْ يكنْ منكم سوى نفرٍ لَمَا
غُلبوا فكيْف بِكُمْ وأنْتم أكْثر (١)

---

(١) الساق على الساق ص ٢٥٢ .

ويصف عمر أنسي أحد أيام المعركة :

بأنه يوم التبس فيه الليل بالنهار ، لأن النيران المنطلقة من المدافع أضاءت ساحة المعركة فحولت الليل نهارا لكثافتها ، إلى جانب قدح الشرر أثناء الظلام من التقاء السيوف بعضها بعضا ، ثم إن النهار أشبه الليل لتعالي الغبار الكثيف من ساحة المعركة ، حتى إنه من شدة كثافته غطى الشمس فأظلم النهار .

كما أن دوي المدافع وانطلاقها في وسط الليل الحالك كانت أشبه برعد تألق برقه .

وكان صليل سيوفنا مخضبة بدم أعدائنا أعذب في آذاننا من صليل الحلي في أيدي الغواني ، بينما الخيل تطارد الأعداء وتثير سنابكها الغبار الكثيف فيتصاعد من ساحة القتال نقابا على الشمس يمنعها الظهور .

يومٌ به التبسَ الدُّجى بنهارِهِ
ونهارُه بدُجاه أشبهُ ما يُرَى

وكأنَّ أصواتَ المدافع في الدُّجى
رعدٌ تألَّقَ برقُهُ مُستمْطِرا

وصليلُ قعقعةِ السِّلاحِ مُخَضَّباً
أزْرَتْ بصلصلةِ الحليِّ مُجَوهرا

ولدى طِرادِ الخيلِ في إثْرِ العِدى
عَقَدَتْ سنابكُها عليهِ عِثْيرا

وبنى العَجاجُ لدى الهِياجِ سُرادِقاً
مَنَعَتْ شموسَ نهارِهم أن تظهرا (١)

---

(١) ديوانه ـ المورد العذب ص ١١٢ .

وهكذا يوافينا «عمر أنسى» بصورة من صور المعركة ، لكنَّه يكرر معانيه بين بيت وآخر ، إلى جانب اتكائه الواضح على صور من الماضي مما جعل معانيه تجدُّ في اللحاق بمعاني «بشار» فلاتسعفه موهبة الشاعر .

ومن صور هذه المعركة أن الأعداء قد ذلوا وانهزموا في كل موقعة وأصبح الفضاء على رحابته ضيقا ، لأن النفس لم تعد تطيق تلك الحرب التي من فرط هولها أصبح الولدان شيبا ، وذاب الصخر الشديد ، والصارم المصنوع من أجود أنواع الحديد .

وأن المدافع تمطر موتا محققا ، والعدو في ذلك اليوم يحسبهم الناظر سكارى ، من هول ماأروا من بأس الجنود العثمانية ، وأن السيوف طربت وانتشت في رؤوسهم .

وقادة المعركة يسرعون الخطى ، ليولوا هاربين بجيشهم وقد تفرق جمعهم مابين فار من المعركة أو مقتول ، أو مأسور ثم إن ذلك الذي هرب وهو لايولي على شيء أنى له النجاة ، وقد أغذ الجنود في اللحاق به على خيل مسومة شهب ، ومن نجا ولم يؤسر فأنى له الراحة ، وقد امتلك الرعب مجامع قلبه لامحالة سيهلكه الرعب كما يقول «عبد الله فكري» :

وقد ذَلَّت الأعداءُ في كلِّ جانبٍ
وضاقَ عليهم من فسيح الفضا رُحْبُ

بحربٍ تشيبُ الطِّفلَ من فَرْط هَوْلِها
يكادُ يذوبُ الصَّخْرُ والصَّارِمُ العَضْبُ

إذا رَعَدَتْ فيها المدافعُ أمْطَرتْ
كؤوسَ منونٍ قصَّرتْ دونَها السُّحْبُ

تراهم سُكارى للظُّبا في رؤوسِهم
غِناءٌ ومن صَرْفِ المنايا لهمْ شُرْبُ

وقد غرّهم من قبلُ كثرةُ جيشهم
فلم يُغنِ عنهم ذلك الجيشُ والرّكبُ
وولّوا يجدّون الفرارَ بعسكرٍ
تحكّم فيه القتلُ والأسرُ والسّلبُ
وأين يسومون النجاةَ وخلفهم
تسابقت الخيلُ المسوّمةُ الشّهبُ
ولو سلِموا من مُرْهفِ السيف أوخلّوْا
بأنفسهم يوماً لأفناهمُ الرّعبُ (١)

ونجد «عبد الباقى العمرى» يذكر :

أن الجيش العثمانى واجه الروس بعزم جعل الجبال الشوامخ ترتجف من هول مارأت من التدمير المحدق بالمناطق الحصينة لدى العدو وضربات المدافع غطت بدخانها السماء ، وكان صباح ذلك اليوم أشبه بظلام دامس ، وأدلعت أفواه المدافع ألسنة من النيران وأعطت بذلك الروس درسا لن ينسوه .

ويذهب «العمرى» فى وصف المعركة مذهب «عبد الله فكرى» . فجيش العدو فر من ميدان المعركة ، حتى أن القليل الذى بقى فى الساحة لم يقاتل ولما رأى أن أكثر الجيش ولى مذعورا هاربا تبعه ، لأنه يوقن أنه إما مقتول أو ماسور ، وأنهم لالوم عليهم لأن الجيش العثمانى حول البر بحرا من دماء الأعداء ، والبحر برا من أشلائهم .

بسطوةٍ دعتِ الأطوادَ راجفةً دمّرتموا محصناتِ الروس تدميرا

....

(١) الآثار الفكرية ص ١٣ .

مدافعٌ غطّت الدُّنيا غمائمُها
فغادرت صُبحَ يوم الحرب دَيْجورا
أفواهُها دَلَعتْ للنّار ألسنةً
فقرّرت دَرْسَ مُلْكِ الرّوس تقريرا
رعدٌ وبرقٌ وغيمٌ من صدىً ولظىً
ومن دخانٍ أعادَ الكونَ مطمورا
أقلُّهم فرَّ لما فَرَّ أكثرُهم
لكونِهِ باتَ مقتولا ومأسورا
غادرْتمُ البرَّ بحراً يستفيضُ دماً
والبحرُ برّا على الأشلاءِ مَعبورا (١)

(١) ديوانه ـ الترياق الفاروقي ص ٣٨١ .

الحرب الروسية الثانية
١٢٩٤هـ - ١٨٧٧م

(١) الإشادة بالسلطان تأييدا للخلافة .

(٢) الإشادة بقواد الجيش العثماني .

(٣) في سوح المعارك .

(٤) تعبئة الجيوش .

(٥) استنفار المسلمين للجهاد .

كـانت الحـرب «الروسـية» الأولى اختبارا لدولة الخلافة ، ومـدى منعتهـا وقوتهـا فـى الذود عن حماها ، ثم كانت الحرب الثانيـة ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م نذيرا بغروب شمسها عن أقاليم كثيرة فـى الشمال أظلتها راية الخلافة حقبة من الزمن ، حين أغرى «الروسـيا» اسـتمرار تدهور أحوال الدولة العثمانية ، وتراخى مقاومتهـا لعـوامل الضعـف التى تسربت إليها ، كما أنست من شعوب "صربيا والجبل الأسود ورومانيا" نزوعا إلى الانتقاض ، والتـألب عـلى العثمـانيين ، فتضـافروا جميعـا فى ملاقاتهم للجـيش العثمـانى ، ودارت حرب ضروس ، أظهرت بطولات فذة بين المحـاربين ، وتـرامت أصداؤهـا إلى أرجاء العالم الإسلامى ، وطفق المستنيرون يفيقون من سباتهم أكثر فأكثر على وقع هذه الأحـداث ، لاسـيما حـين أمسـى الـروس عـلى مشـارف العاصمـة العثمانيـة ، وهـو ماحمل الدولة على الإذعان ، وعقد معاهدة للصلـح عام ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م ،وهى التى عرفها التاريخ بمعاهدة "سـان سـتيفانو" نـالت بهـا استقلالها عن الدولة "رومانيا والصـرب والجـبل الأسـود" بينمـا منحـت "بلغاريـا والبوسنة والهرسك" اسـتقلالا إداريـا ، وتكـفلت دولـة الخلافة بغرامة باهظة تدفعها للروس .(١)

تركت هذه الحرب أصداء واسعة النطاق في الصحف العربية آنـذاك ، نبهـت الأذهـان ، وحـركت المشاعر والقلوب ، وكانت بـذلك فجـرا صادقـا لصحوة أدبية على صعيدى النثر والشعر ، وفى الشعر تزايد عدد الشعراء ، وكثر المجيدون ، وتألقت شمس "البارودى" رائدا مجيدا ومجددا للشعر الحديث ، وأخذ الشعر مـن خلال هذه الأحداث تنبعث فيه إرادة الحياة ، وتنعكس عليه باطراد ملامح الصحة والتأثير .

---

(١) العثمـانيون والـروس ص ١٣٤-١٤١ ، د. عـلى حسـون ، ط/المكـتب الاسلامى ١٤٠٢هـ ، ومجلة "المجتمع" الكويتية عدد ٣٧٠ السنة الثامنة .

إشادة بالسلطان تأييدا للخلافة :

أدرك بعض الشعراء من الوهلة الأولى لهذه الأحداث مايستكن وراءها من مآرب العدوان على الدولة، والتخلص من المسلمين ، فنظروا إلى السلطان لاباعتباره أميرا يمنح ويمنع ، ويهب العطايا بغير قيود ، لكن باعتباره رمزا للخلافة ، تأييده انتصار لها ، وعمله في سبيل عزتها عمل للإسلام . وهذا المنحى في ذاته توجيه جديد لرسالة شعر المديح ، ينم على بداية التغير في نظرة الشاعر ، والمرتقى الذى أخذت تدرج عليه معانيه .

يلتفت على الليثى (١) الى هذا المعنى ، ويذكر به قائلا : إن ملة الاسلام عزت بوجوده ، وإن السلطان عبد الحميد أجل بني عثمان وأعظمهم ، لانه يحمى المسلمين ، ويدفع عن الإسلام وانه بقيادته وقوة بأسه على العدو جعل قيصر روسيا يبدو ذليلا حقيرا .

ونصرُ أمير المؤمنين الذى غدَتْ
به الملّةُ الغرّاءُ ساميةَ القدْر

أجلّ بني عثمان عبدِ الحميدِ مَنْ
أعادَ عظيمَ الروسِ أحقرَ مِن ذرّ (٢)

---

(١) علي بن حسن الليثى ، ولد سنة ١٢٥٢هـ ـ على الأرجح ـ أحد الشعراء المصريين الذين مهدوا للنهضة الشعرية ، اتصل بالسنوسى وذهب معه وأخذ طريقته ، نال حظوة عند الخديو توفيق فكان من ندمائه ، كان صاحب ظرف وفكاهة خلف ديوان شعر لم يطبع ، مات بالقاهرة سنة ١٣١٣هـ . انظر : الآداب العربية في القرن التاسع عشر ٨٠/٢ لويس شيخو ، تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر ، أحمد تيمور ، شعراء مصر وبيئاتهم ، عباس العقاد .

(٢) الوقائع عدد ٧٢٢ فى ١٢ أغسطس ١٨٧٧م .

ويذهب "حمزة الفقى" (١) هذا المذهب ذاته ، وهو يشيد بالدولة وبالسلطان "اقتداره وصولته وحزمه فى قيادتها ، فدانت لها الأرض والجبال .

وللدَّولةِ العلياءِ فضلٌ مقدَّسٌ
وفضلُ سواها باطلٌ وغرورُ

لسلطانِها الغازى اقتدارٌ وصولةٌ
أرَى الأرضَ منها والجبالَ تمورُ (٢)

وهذا الملحظ الذى التقى عليه جمهور شعراء المسلمين لاينقضه أن نجد بعضهم يغتنم مناسبة شخصية كالتهنئة بذكرى توليه العرش فيمدحه ويطريه ، ولاعيب فى شعر المناسبات إذا صدق ، وخلا من الزيف والتملق ، وأجاد فيه قائله .

ومن قبيل هذه المناسبات ذكرى تولى السلطان عرش الخلافة ، وقد صادفت هذه الذكرى وقائع الحرب ، ولهذا وصل "سليمان الصولة" هذه المناسبة بالظروف الملابسة لها ، فقال : إن هذه الذكرى مصدر غبطة للمسلمين ، ومصدر شقاء ونكد لكل جبار يكابر الدولة ويعاندها ، ويعنى بهم الخارجين عليه من شعب "الجبل الأسود" .

جلوسُ مليكِنا عبدِ الحميدِ	يُبشِّرُ بالسعادةِ كلَّ عيدِ
ويُكمِدُ كلَّ جبَّارٍ عَنيدٍ	ويُخزى كلَّ شيطانٍ مَريدِ (٣)

ويعد ذلك اليوم من أيام الصفاء والبهجة ، لأنه أشرق بطلعة أمين الله ، سلطان الوجود :

فيايومَ الخميسِ لك التَّهانى	برَوْنقِ عاهلِ الزمنِ السَّعيدِ
حَظِيتَ بطلْعةِ الملكِ المُفدَّى	أمينِ اللّه سلطانِ الوجودِ

---

(١) لم أعثر على ترجمته .
(٢) جريدة مصر عدد ٢٧ سنة ١٨٧٨م .
(٣) ديوانه ص ٦٦ .

فظلتَ أميرَ أيام البرايــا   وسعْدَ سعودِ أوقاتِ السُّعود

وصارَ بك الزمانُ لنا جنانـاً   يَبُشُّ بشاشةَ السمع الودود (١)

وهذا مثل – وله أشباه كثيرة فى شعر ذلك الجيل – قد لايروقنا منه برودة العاطفة وقلة المعاناة ، وسذاجة المعانى ، مع جنوح ظاهر إلى الإغراق فى الصفات ، وكثرة الإضافات والتكرار ، كقوله "وسعد سعود أوقات السعود" ، لكنها كما نوهت من قبل مظاهر ضعف لم يتخلص منها الشعر بغتة ، كما أن المريض لاتعود إليه العافية فجأة ، وهو قانون يحكم الماديات والمعنويات على سواء .

وإذا ظفر السلطان بنصيب كبير من هذه المدائح لأنه رمز الخلافة الإسلامية فإن بعض الولاة الذين ظاهروا السلطان فى هذه الحرب وأمدوه بعسكر من ولاياتهم لم يحرمهم الشعراء من مثل هذا المديح والإطراء ، وكانت «مصر» آنذاك فى مقدمة من عزز جيش الخلافة ، فرفدته بأمداد متعاقبة من العسكر .

ولذلك اثنى الشيخ «على الليثى» على الخديو «اسماعيل» مشيدا بأعماله وقال :

أجلُّ مليكٍ قامَ فى عرشِ مُلْكِها
فـأَثْنَتْ على إِحكـامِ أَحْكَامِهِ الغُرُّ

فسلْ عن مساعيهِ حكومتَهُ التى
قد انتظمتْ بالحلْمِ والعلْمِ والبِرّْ

تُجِبْكَ ومشهودُ العيانِ مُحقِّقٌ
إِجابتَها بالفضلِ فى الجهر والسِّرّ

وهيهاتَ قَبْلاً لم يُشرِقْ سريرُها
مليكٌ جليلٌ مثلُهُ ثاقِبُ الفكر

---

(١) السابق ص ٦٦ .

ومَنْ لم يُسَسْ بالحزم والعزم مُلْكُهُ
سياسةَ إسماعيلَ لم يحظ بالشكر

فكيفَ ومايُبْديه أعدلُ شاهدٍ
على أنَّه في مجدِه أوحدُ العصر

ومِنْ سعيه المشكورِ تجهيزُ جُنْدِهِ
لِنُصْرةِ دين الله مُغتنِم الأجْر (١)

وعلى غرار «الليثي» أشاد زميله «علي أبو النصر» (٢) بالخديوي مبالغاً في تمجيده والاطراء عليه كما جرت بذلك عادة معظم شعراء جيله .. فهو ملجأ تحيا النفوس به ، رفيع القدر عزيز المرتقى .

فانهضْ إلى ملجإٍ تحيا النفوسُ به
وهو الخديوي العزيز المُرْتقى شرفا

صدرُ الأكارمِ لاتُحصى مآثرُهُ
كنزُ المكارمِ كم أبْدى لنا طُرَفا

أحْيا بتدبيره الأوْطانُ فانْتظمتْ
ارجاؤُها نَظْمَ عِقْدٍ درُّه ائتلفا

وقامَ للدولةِ العليا بواجِبِها
فكان عوناً لها إذْ خصمُها زَحَفا

وجهّزَ الجيشَ بعدَ الجيشِ مُنْتخِباً
رجالَ صدقٍ أعادوا مجدَ من سلفا (٣)

---

(١) الوقائع عدد ٧٢٢ .

(٢) علي أبو النصر ، ولد بمنفلوط ينتسب إلى الأشراف ، رحل إلى القسطنطينية مرتين ، كان من ندماء الخديوي إسماعيل لظرفه وفكاهته ، ممن مهدوا الطريق لشعراء الانبعاث ، خلف ديوانا طبع ولم يحو كل شعره ، توفي في ١٢٩٨هـ .
انظر : مقدمة ديوانه ط/الأميرية ببولاق ١٣٠٠هـ ، تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر ج٢ .

(٣) الوقائع عدد ٧٢٢ .

فكلا الشاعرين «الليثى وأبى النصر» يعتمد شعرهما الذاكرة ، ويخلو من المعاناة التى تنتقل إلى المتلقى فتحرك وجدانه ، ولذلك تقل فيه المعانى الطريفة ، والصور الحية التى تجدد الشعور ، وتبعث الخيال ، وتجنب الشعر هذه السطحية التى نلمسها .

الإشادة بقواد الجيش :

قاد الجيوش المصرية التى أمدت الجيش العثمانى "حسن ابن اسماعيل الخديو" ولاه أبوه عليها ، ولاء للسلطان ، ورجاء فى إحراز النصر ، فلاغرو أن يشيد شاعرا القصر "الليثى وأبو النصر" بهذا القائد الشاب كما يشيدان بأبيه .

ومما قال «أبو النصر» :

وقائدُ الجندِ فيهم رأيه حَسَنٌ
عزمٌ وحزمٌ وإقدامٌ وحُسْنُ وفا
بُشراهُ إذْ خصّه تاجُ الملوكِ بما
يبقى لهُ شرفاً مادامت الخُلفا
نجل الخديوى أعزَّ اللّهُ دولتَه
وزادَهُ فى فنا أعدائِه سَرَفا
فلاتزال بــه الأنجالُ راقيةً
أوْجَ المعالى سراةً سادةً شُرفا
فهو المبشّرُ بالإسعادِ طالعُه
فكلُّ ذى مظهرٍ مِن بحرِه اغترفا (١)

ويذهب «الليثى» مذهب صاحبه «أبى النصر» كأنهما جوادان متوازيان يجريان فى مضمار ، فالمعانى قريبة تخلو من الجدة والعمق ، والألفاظ والتراكيب سهلة شائعة .. يقول فى إحدى قصائده :

(١) الوقائع عدد ٧٢٢ .

ومن سرِّ صدقِ الوعدِ إرسالُ نجلِه
مشيراً على أقوى كتائبه الخضر

فتى الحربِ لايثنيهِ عمَّا يرومُه
من الشرفِ الأعلى نفيسٌ من الذخر

هنالك يبقى الذكرُ والفخرُ خالداً
وياحبذا فخرٌ لدى البيض والسمر (١)

ويعنى الشاعر "بالمشير" رتبة القائد فى سلم الألقاب العسكرية ، كما يوحى البيت الثانى فى المقطوعة بأن الممدوح انصرف عن حياة الترف والنعيم إلى حياة الجهاد فى سبيل الله ، حيث الفخر وخلود الذكر ، ومطمح الذين يذودون عن الإسلام .

ولم يكن الأمير «حسن» وحده هو الذى خصه الشعراء بالمدح والاطراء ، بل كان القواد العظام الذين خاضوا الحرب ضد الروس ومن معهم ، كان هؤلاء يستلفتون أنظار الشعراء ، وكانت بطولاتهم مناط الفخر والإشادة ، ومنهم مثلا «عثمان باشا» (٢) الذى قاد فيلقا من الفيالق الستة فى معركة "بلافنا" (٣) وأبدى شجاعة فائقة إلى أن وقع فى الأسر مصابا .

وممن هزهم مصاب هذا القائد الشاعر «حمزة الفقى» ، وله مطولة يطرى فيها بطولة «عثمان باشا» ويأسى للمصير الذى انتهى إليه ، يقول فى مطلعها :

---

(١) الوقائع عدد ٧٢٢ .
(٢) ولد عثمان باشا سنة ١٢٤٧هـ بتركيا ، تخرج من الأكاديمية العسكرية فى استانبول ، كان له دور فى حوادث لبنان سنة ١٢٧٧هـ ، أظهر شجاعة نادرة فى هذه الحرب الروسية ، وجرح فيها وأخذ أسيرا ، ثم أطلق بعد الحرب ، عمل وزيرا للحربية عدة مرات .
انظر : تاريخ الآداب العربية فى القرن التاسع عشر ، وأخباره متناثرة فى : العثمانيون والروس ، تاريخ الدولة العلية .
(٣) تقع اليوم فى شمال بلغاريا قرب الحدود مع رومانيا .

عليكَ مبيتُ الدّمعَ وهو غزيرُ
وفى القلبِ شىءُ ماحواه ضميرُ
وأنتَ لسيفُ اللّهِ لافُلَّ حدُّه
وبدرٌ بليلِ المعضلاتِ منيرُ
إليك تناهى المجدُ والشرفُ الذى
وحقّك رضوى دونه وثبيرُ
ثلاثونَ ألفاً بالحُسام محوتَها
لأجسادِها جوفُ البُغاثِ قبورُ (١)

ثم يقول : كم سمت الروس ،وجعلت رءوسهم تطرق ذلا ، وصار قيصرهم يقصر عن مكانتك العالية . وإذا كانت العيون بكت لأسرك فكم أضحكت الثغور بانتصاراتك .

وكم جُلتَ فى جيشِ العدوِّ مُحارباً
وساومْتَهُ هوناً وأنتَ أميرُ
وللرّوسِ كمْ روسٍ من الذلِّ أطرقت
وقيصرُهم عن مُلتقاكَ قصيرُ
فياهازمَ الجيشِ العرمْرَمِ وحده
وللبيضِ فيهِ وقعةٌ وصريرُ
إذا مابكتْ عينُ لأخذِكَ غيلةً
فكم ضحكتْ مما فعلتَ ثغورُ (٢)

وكم يكبر علينا جميعا أن نسمع بأسرك ، وأنك مصاب ، وقد طبقت الآفاق خبرك ، فهلا أتانا بشير خير عنك ؟!

يَعِزّ علينا بعد عزّك فى الوغى ... بأرضِ الأعادى أنّ يقالَ أسيرُ
وقالوا مصابُ قلتُ ألفُ مُصيبةٍ ... فهلّا أتانا بالشفاءِ بشيرُ

---

(١)،(٢) جريدة مصر عدد ٢٧ سنة ١٨٧٧ .

وشلّت يدٌ نحو الهُمام تطاولت ... وتبلى بقطعٍ والإلهُ قديرُ

ثم ينذر «الروس» ويتوعدهم بقيّهم وبغيهم :

فياعصبةَ الأعداء مهلاً فكلّنا ... ليوم كفاحٍ باسلٌ وهَصورُ

ستلقون يومَ الزحفِ كلَّ سَميدَعٍ ... على كلِّ طَرْفٍ للحروبِ يُثيرُ

ويبدو مما تشى به الأبيات اللاحقة أن بعض القواد فى هذه المعركة خانوا أمانة الله والوطن ، وتهاونوا فى الدفاع عن مواقعهم فكانت الهزيمة ، حين سلّموا حصونهم للعدو .

وتباً لمن بالوُكْس دنّس عِرضَه ... وسُخْطاً له إن الإلهَ بَصيرُ

سَيُفضَحُ يوم الحشرِ شرَّ فضيحةٍ ... ومأواهُ فى دارِ الجزاءِ سعيرُ

وقل للذى قدْ قامَ للفخرِ يَدّعى ... هل الفخرُ شيءٌ هيّنٌ ويَسيرُ (١)

ويقول المؤرخون : إن بلاء «عثمان باشا» فى هذه المعركة الكبرى فاضت به الأخبار ، فلما أدخل على قيصر «الروس» قال : "لقد رفعت اسم الجندية العثمانية ، إنك والحق يقال بطل" (٢) .

وفى قصيدة "الفقى" مايدل على تأثره بهذه الفجيعة ، ومافى قلبه من أسى لم يحوه ضمير كما قال ، إلا أن القصيدة لم ترق من الناحية الفنية إلى مستوى الحدث الذى فاضت به أنهار الصحف والدوريات وقتذاك ، كما أنها عمرت بالمحسنات التى لاتخلو من تصنع وتكلف ، والتى كثر فيها التماس الشاعر للجناس والطباق مثل "وللروس كم روس ... وقيصرهم عن ملتقاك قصير ... إذا مابكت عين ... فكم ضحكت ثغور ..." .

ويقودنى القول عن المدائح فى ظلال هذه الحرب إلى أن غرضها تحول عن إطراء الممدوح طلبا للنوال ، إلى أنه رمز للدفاع عن الإسلام وبلاده ، تبعثه عاطفة الغيرة على

---

(١) السابق .
(٢) مجلة المجتمع الكويتية عدد ٣٧٠ .

الدين ، بيد أن هذه المدائح معظمها لم يكن من حيث الجودة الفنية بالقدر الذى يضاهى هذه المشاعر فى تلك الآونة .

فى سوح المعارك :

فى ثنايا القصائد التى دارت موضوعاتها على الحرب الروسية العثمانية إشارات كثيرة متفرقة لسوح المعارك ، ومعظمها تصورات أوحتها إلى خيال الشعراء ماكان يرد عنها على صدور الصحف العربية ، اما اهم هذه الأوصاف فما انطوت عليه بعض قصائد الشاعر الفارس "محمود البارودى"(١) الذى شارك فى هذه الحرب بسيفه وقلمه ، ورآها رأى العين ، فضاعف بشاعريته القوية ، ولغته الجزلة من أثر التجربة فى شعره .

صور المواقع التى دارت فيها المعارك بأنها متاهات تخاف منها الجن ، ويضل فيه القطا ، وأقطارها متباعدة لو جرى بها "السُّليك" لسقط إعياء ، وقضى نحبه . يتوج السحب قمم جبالها حتى أضحت لها كفروة «السَّمُّور» ، وتتناوح بها الأصداء فى دجنة الليل كصياح الثكالى هيجتها النوائح ، وتموج أوديتها بالسيول لكثرة أمطارها .

فى هذه المجاهل ينشغل الإنسان بنفسه ، وينسى الخليل خليله ، ويهلك فيها المرء بكثرة أهوالها ومخاوفها ، وهى

---

(١) محمود سامى بن حسن حسنى البارودى جركسى الأصل ، ولد سنة ١٨٣٩م ، توفى والده والابن فى السابعة ، حفظ القرآن ودخل المدرسة الحربية بعد الابتدائية وتخرج فيها ، نال عدة مناصب عسكرية ، وخاض غمار الحرب فى صفوف الجيوش المصرية ضد روسيا واليونان فأظهر شجاعة نادرة ، كان رأسا فى الثورة العرابية لذا نفى إلى "سرنديب" ، يعد باعث الشعر من رقدته ، ورائدا له فى العصر الحديث ومدرسة أمها الرواد من بعده ، توفى سنة ١٩٠٤م بعد أن خلف عددا من المؤلفات يأتى فى طليعتها ديوانه الضخم .
انظر فى ترجمته : محمود سامى البارودى ، د. على الحديدى ، البارودى رائد الشعر الحديث ، د. شوقى ضيف.

إلى ذلك شديدة القر ، يتراكم الجليد على قمم الجبال والسفوح ، مرتفعاتها معاقل لكواسر الوحوش ، وأغوارها مسارح للذئاب ومايشبهها .

هي بيئة غريبة لم يألفها الشاعر في بلاده ، قد تبعث البهجة والمتعة في عين من يطلب نزهة الخاطر ، لكن الفارس المقاتل يندر عن سوم العلا فيها ، لوعورة مسالكها ، وكثرة مجاهلها .

وأصبحتُ في أرضٍ يَحارُ بها القَطا
وتَرْهبُها الجِنّانُ وهي سوارحُ

بعيدةِ أقطارِ الدَّيَاميم لو عدا
سُليكٌ بها شأواً قضى وهو رازحُ

تصيحُ بها الأصداءُ في غَسَقِ الدُّجى
صياحَ الثَّكالى هيَّجتْها النوائحُ

تردَّتْ بسُمُّور الغَمام جبالُها
وماجَتْ بتيارِ السُّيولِ البطائحُ

فأنجادُها للكاسراتِ معاقلٌ
وأغوارُها للعاسلاتِ مَسارِحُ

مهالكُ يَنْسى المرءُ فيها خليلَهُ
ويَنْدر عن سَوْمِ العُلا من يُنافِحُ (١)

وقد عرف الشعر العربي وصف الطبيعة قبل العصر الحديث لكن القيمة الجديدة التي يفيضها الوصف هنا أنه تلبس بالأحداث الواقعية ، واقترن في وجدان الشاعر والمتلقي معا بانفعال الحرب ، فهو لذلك أدعى للشيوع وعمق التأثير ، فإذا كان الوصف على هذا النحو من المستوى الفني الذي وصل

---

(١) ديوانه ١٦٠/١ ، ضبطه على الجارم وآخرون ، ط/دار المعارف ، مصر .

إليه فى النص السابق فهو دعوة إلى التجريد ، والخروج من دائرة التقليد المريض .

تعبئة الجيوش :

وعلى غرار ماتضمنته القصائد السابقة عن ساحات القتال نجد فى شعر آخر إشارات لوصف الجيوش ، تعبئتها واستعدادها ، وحماسة المقاتلين العثمانيين ، وإقبال هؤلاء بإيمان وثقة فى النصر ، وفى قطع دابر الروس برا بأيمانهم وفى هذا يقول «على أبو النصر» :

سارَتْ عساكرُه للحربِ واثقةً بقطعِ روسٍ ومنهم بَرَّ مَنْ حلفا (١)

أما «الليثى» فيرى قائد الجند فى طليعة الجيش كبدر لاح فى الأفق والنجوم درارٍ تسير خلفه ، وتتبعه .

لقدْ سارَ والفرسانُ حولَ ركابِه
نجومُ الدّرارى تقتفى طلعةَ البدر (٢)

ويشبه «البارودى» الجيش فى الميدان بآساد متأهبة ، تترقب الهجوم على العدو فى مطلع الفجر .

ترانا بها كالأُسْدِ نَرْصُدُ غارةً يَطيرُ بها فَتْقٌ من الصبحِ لامحُ (٣)

أما الجيش الروسى فحشد كبير قبعوا على القمم متأهبين فإذا لاح الصبح طار بالغارة ضوؤه .

أَدورُ بعينى لاأرى غيرَ أمّةٍ
من الرّوسِ بالبَلْقانِ يُخطِئُها العدّ

جواثٍ على هامِ الجبالِ لغارةٍ
يَطيرُ بها ضوءُ الصّباحِ إذا يَبْدو (٤)

---

(١) الوقائع عدد ٧٣١ .
(٢) نفسه عدد ٧٢٢ .
(٣) ديوانه ١٦٠/١ .
(٤) نفسه ٢١٥/١ .

لكن هذه الأعداد الغفيرة لاتجانس بينها ، فهم من «الروم والبلغار والتتار» ، فإذا تحادثوا خلت رطانتهم خوار بقر ، وأصواتهم غليظة هادرة كأن الأرض تميد منها ، وهم إلى ذلك دميمو الوجوه والنواصي كأنهم لاينتسبون إلى آدم ، وجوههم ليست كالوجوه ، وإنما هي أشكال نيطت إليها أعين وخدود .

تجمّعت البُلغارُ والرومُ بينها
وزاحَمَها التاتارُ فهي حشود

إذا راطنوا بعضاً سمعتَ بصوتِهم
هديداً تكادُ الأرضُ منه تَميدُ

قباحُ النّواصي والوجوهِ كأنّهم
لغيرِ أبي هذا الأنامِ جنودُ

سواسيةٌ ليسوا بنَسْلِ قَبيلةٍ
فتُعرفُ آباءٌ لهم وجدودُ

لهم صورٌ ليستْ وجوهاً وإنما
تُناطُ إليها أعينٌ وخدودُ

يخورونَ حولى كالعُجُولِ وبعضُهم
يُهجّنُ لحسنَ القولِ حينَ يُجيد

أدورُ بعيني لاأرى بينهم فتًى
يَرودُ معي في القولِ حين أرُودُ (١)

وأحسب «البارودى» نظر إلى سلفه «المتنبي» وقصيدته في قلعة "الحدث" فهؤلاء الذين يصفهم «البارودى» من سلالة «الروس» الذين وصفهم «المتنبي» :

وكيف تُرجّى الرومُ والروسُ هدمَها
وذا الطعنِ أساسٌ لها ودعائمُ

---

(١) ديوانه ١/٢٢٢-٢٢٣ .

تجمّعَ فيه كلُّ لسْنٍ وأمةٍ
فماتُفهِمُ الحُدّاثَ إلا التراجمُ (١)

وإذا كان «للمتنبى» فضل سبق، فـ«البارودى» ولد من صوره صورا جميلة تحسب له .

ويعد «البارودى» أيضا فى طليعة الشعراء الذين وصفوا هذه المعارك باعتباره فارسا مغوارا شارك فى هذه الحرب، وشاعرا مجيدا دقيق الملاحظة معنيا بتفصيل الصورة الواقعية .

فالمدافع منصوبة فى مقدمة الجيش، تدك الحصون والمواقع، والمشاة من خلفها، يليهم الفرسان على خيول كريمة جيدة، وفى مؤخرة هذه الخطوط خطوط أخرى لوقاية المقدمة، فكان الجيش تغير نظامه فلم يعد خميسا كما وصفه الشعراء القدامى .

ويمتاز الجيش العثمانى فى هذه المعارك بأنه لايُرى فيه إلا الرجال الشجعان المدججون، والخيول الجرد التى تعدو لحظة الهجوم ضابحة، كما يتميز بأنه يحسن اختيار أوقات الهجوم والمباغتة، فاذا أقبل الليل آوى إلى مواقعه الحصينة بعيدا عن رصد عدوه .

مدافعُنا نصبٌ لدىٰ مشاتُنا
قيامٌ تليها الصافناتُ القوارحُ
ثلاثةُ أصنافٍ تقيهنّ ساقةٌ
صيالُ العِدىٰ إنْ صاحَ بالشرِّ صائحُ
فلستَ ترى إلا كماةً بواسلاً
وجُرداً تخوضُ الموتَ وهى ضوابحُ

---

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى ٣٨٣/٣ شرح العكبرى، ط/دار المعارف، بيروت سنة ١٣٩٧ .

نُغيرُ على الأبطالِ والصبحُ باسمٌ
ونأوى إلى الأدغال والليلُ جانحُ (١)

وإذا نشب القتال ، واحتدمت المعركة ، فجنده أصبر على القتال ، لايفرون من الميدان .

إذا نحنُ سِرْنا صرَّح الشرُّ باسمِهِ
وصاحَ القنا بالموتِ واستقتل الجند

وعندما يرخى الليل سدوله نخلد إلى مواقعنا لوضع خطة الهجوم فى الصباح ثم نباكرهم بالمنايا .

...

نروحُ إلى الشورى إذا أقبلَ الدُّجى
ونَغْدو عليهم بالمنايا إذا نغدو

ثم يتمخض اللقاء عن أنهار من الدماء .

فأنت ترى بين الفريقين كَبَّةً
يُحَدِّثُ فيها نفسَه البطلُ الجَعْدُ
على الأرضِ مِنْها بالدِّماءِ جداولٌ
وفوقَ سراةِ النَّجمِ من نَقعِها لِبَدُ (٢)

كما يتصاعد الغبار ودخان المدافع إلى عنان السماء ، فيعقدان سحبا كثيفة كأنها تستقر فوق النجوم .

ألمْ تَرَ معقودُ الدُّخانِ كأنَّما   على عاتقِ الجوزاءِ منه سرائحُ (٣)

ثم يصف الجيشين وكل منهما يحمل على الآخر كأنهما بحران فى المد والجزر ، فالروس يهجمون كأنهم عطاش يريدون الماء من ظمأ شديد ، لكنهم لايفتأون أن يردوا خائبين مبددين بين صريع وهارب وأسير .

(١) ديوانه ١/١٦١-١٦٢ .
(٢) نفسه ١/٢١٦ .
(٣) نفسه ١/١٦٢ .

إذا اشتبكوا أو راجعوا الزحف خلتهم
بحوراً توالى بينها الجزر والمد
نشلهم مثل العطاش ونست بها
مراغمة السقيا وماطلها الورد
فهم بين مقتول طريح وهارب
طليح ومأسور يجاذبه القد (١)

فإذا سنحت لك نظرة من بعيد هالتك غابة مشتجرة من الرماح المشرعة ، والسيوف اللامعة ، والشجعان الذين ثقفتهم الحروب ، والخيول السوابح .

ونلمح من خلال الأشعار التي كانت مدى لهذه الحرب أن الشعراء تحدثوا فيها عن أدوات القتال كما تحدث عنها الشعراء السابقون ، فذكروا منها السيوف القواضب ، والرماح اللدن ، والخيول الجرد ، وزادوا على ذلك المدافع التي لم يعرفها القدامى . يقول «البارودي» :

فلا جو إلا سمهرى وقاضب ولا أرض إلا شمرى وسابح
مدافعنا نصب العدو ومشاتنا قيام تليها الصافنات القوارح (٢)

ويقول «حمزة الفقى» في تمجيد القائد «عثمان باشا» :

ثلاثون ألفا بالحسام محوتها لأجسادها جوف البغاث قبور
ورمح بأيدي المتقين مثقف له الله حقا حافظ ونصير (٣)

ثم تنتهي هذه الحرب بنتائجها المعروفة في التاريخ ، لتفتح شهية أوربا لميراث دولة الخلافة ، وليبدأ فصل جديد من فصول التاريخ فيما سمي "المسألة الشرقية" ، لكن ذكريات هذه الحرب ظلت بمخيلة بعض الشعراء ، «فالبارودي» مثلا كان

---

(١) ديوانه ٢١٦/١ .
(٢) نفسه ١٦٢/١ .
(٣) جريدة مصر عدد ٢٧ .

كلما عنت مناسبة للفخر بفروسيته ، يذكر المعارك التى خاضها في هذه الحرب ، ويفخر بشجاعته ، ومن ذلك قوله :

ونقع كلجِّ البحر خضتُ غماره ولامعقلٌ إلا المناصل والجُرد
صبرتُ له والموتُ يحمرُّ تارةً وينغلُّ طوراً فى العَجاج فيسودُّ

ويذكر صولاته فى معترك القتال وقرنه يهمس من العياء ، وقلبه يكاد يعدو فى صدره من شدة الفرق :

صؤولٌ وللأبطالِ هَمْسٌ من الونى
ضروبٌ وقلبُ القِرْنِ فى صدره يعدو

فإذا أجهز على واحد انثنى إلى غيره :

فما مهجةٌ إلا ورمحى ضميرُها ولالَبَّةٌ إلا وسيفى لها عِقدُ (١)

تتابعت الحروب والوقعات فى ظروف أخرى ، كما ستوضح فصول لاحقة وشعر الحرب يتوالى معها ، ويتقوى باطرادها ، كلما لجت الأحداث ، واشتد الوغى والانفعال بها ، مع مايغذو الشعر بعامة من روافد اخرى .

استنفار المسلمين :

فى خضم هذه الحرب كانت الخطوب تدلهم أحيانا ، والحوادث تنذر بعواقب وخيمة فجعل بعض الشعراء من شعرهم منابر يستنهضون همم المسلمين فى شتى أقطارهم منبهين إلى مايتهدد المسلمين من كيد يراد ، وأخطار تنزل بهم .. من ذلك ماوجدته "لحمزة الفقى" لما أسر القائد "عثمان باشا" فقد أهاب بالمسلمين أن يفيقوا من سباتهم ، وأن يهبوا لنجدة الجيش ، وتخليص الأسير من يد العدو . قال :

ألا يابنى الأوطانِ مالى أراكمُ نياماً وغمضاً والعدوُّ مُغيرُ (٢)

---

(١) ديوانه ٢١٦/١ .
(٢) يقال ماغمضك عنى : ماشغلك .

وعثمانُ باشا قطبُ كلِّ كتيبةٍ يُناديكمو هلْ من مُنجدٍ ومُجيرِ
ونَحْوكُمو قد وجَّهَ اليوم طرفَه فباللّهِ لايردَّه وهو حَسيرِ
فياطالما قد ذبَّ عنكم بنفسِه ولم يعْتِرهُ عند الحروبِ قصورُ

والأمر ليس أمر هزيمة فى معركة صغيرة ، تنكأ جراحها ، وتذهب الأيام باثرها ، إنما هو أمر حياتكم وأعراضكم ، وماوصاكم به دينكم من عزة وكرامة فجودوا بالمال لاتشحوا ، وخاطروا بالأرواح توهب لكم الحياة العزيزة .

فبالمالِ والأرواحِ جودوا وخاطِروا
فذلك أمرٌ ياكرامُ خطيرُ
أترضون ذلاً أو صَغاراً وخِسةً
وأنتم كرامٌ والكرامُ غيورُ
وما العزّ إلا الطعنُ والضربُ للعدى
وما الفخرُ إلا أن يثارَ قَتيرُ

ويكرر الدعاء ، يهتف بالقاعدين أن ينهضوا ، وبالشرفاء عصبة التقى ، فالأمر خطير - كما يقول :

أُنادى ليوثَ الشرقِ ياعصبةَ التُّقى
ويامَنْ إليهم بالكمالِ أشير

ويتمادى فى حثهم وكأنه يقرع المتقاعسين منهم :

أفيكم فتىً يمحو عن الدينِ عارَه
له اللهُ يَجزى ، والإلهُ شكورُ
يباهى به اللّهُ الملائكةَ العُلا
وتَبنى له عند الكريم قصورُ

أما اليأس لأن العدو كثير وقوى فلايصح للمؤمنين أن ييأسوا من روح الله ورحمته ، فهو كفيل بنصرهم :

ولاتيْأسوا من رحمةِ اللّهِ إنه كفيلٌ بنصرِ المؤمنين خَبيرُ

ويذكرهم الشاعر بما أعده الله لمن يستشهدون فى سبيل

الله والوطن :

فقدّمْ وأقدِمْ ياأخا المجدِ والعُلا
تُصافحْك ولدانُ الجنانِ وحورُ
ودافعْ عن الأوطانِ فهى عزيزةٌ
وأنت محبٌّ ، والمحبُّ صبورُ
وما النفسُ للأوطانِ إلا وقايةٌ
وكلُّ جليلٍ دونها لحقيرُ
ومن دونِها وقعُ الأسنَّةِ والقنا
وكرٌّ به عقلُ الجبانِ يطيرُ

ويستثير فيهم نخوة الإسلام والغيرة عليه فيقول :

فيانخوة الإسلام هزّى رجالَنا ويا غيرةً لايَعْتريكِ فتورُ

ويفند المزاعم التى تشيع عن "أوربا" وأنها تقدمت وتمدنت ، فيقول :

يقولون أوربا قديماً تمدّنت
وليس لها بينَ البلادِ نظيرُ
لعَمْرى بها الغدرُ الذى باتَ فاشياً
وفى أهلِها الحقدُ الشديدُ شهيرُ (١)

وهذا شعر يقرب من لغة الإخبار ، يكاد يطابق فى مضموناته ماكانت تلهج به الصحف العربية إبانئذ ، لولا أنه منظوم ، وإن كانت العاطفة الدينية الشريفة تنتظم أبيات القصيدة جميعها إلا أن الباحث ينظر إلى الشعر باعتباره أداء فنيا جميلا مؤثرا .

---

(١) جريدة مصر عدد ٢٧ .

الفصل الثاني

حروبها مع اليونان

(١) فتح القسطنطينية في وعي الأوربيين .

(٢) ثورة كريد الأولى ١٢١٦هـ/١٨٦٩م .

(٣) ثورة كريد الثانية ١٣٢٧هـ/١٩٠٨م

نسيها المؤرخون وذكرها الشعراء ..

(٤) الحرب مع اليونان ١٣١٤هـ/١٨٩٧م .

(٥) الحرب مع اليونان ١٣٤٠هـ/١٩٢١م .

فتح القسطنطينية :

يروى المؤرخون أن حرب «روسيا» ضد دولة الخلافة هزت أركانها ، وأماطت اللثام عن مواطن العلل التى تسربت إلى بنيانها ، وهو ما أفضى إلى زوال كثير من هيبتها فى عيون من كانوا يتربصون بها من شعوب أوربا التى خفقت أعلامها على بلادهم ردحا من الزمن .

كانت اليونان أكثر هذه البلاد تذمرا ، وتحينا للانقضاض على الدولة ، وقد شهدت حقبة من أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر الهجريين سلسلة من الثورات والمعارك الضارية ، التى تابعها الشعر والشعراء .

ولاغرو أن تكون «اليونان» أكثر من سواها حنقا وتململا من خضوعها لنفوذ الدولة العثمانية ، فاليونانيون لم ينسوا أنهم كانوا مهد حضارة الإغريق التى استمد منها الأوربيون أصول حضارتهم ، ولم ينسوا أيضا «محمد الفاتح»(١) الذى فتح القسطنطينية للمسلمين عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م ولاماتبع هذا الحدث الجسيم من القضاء على الدولة «البيزنطية» التى طالما ناوأت المسلمين فى المشرق .

بل لم يقتصر هذا الشعور على اليونانيين وحدهم ، فلعله عداهم إلى سائر «الأوربيين» ، لاسيما فى شرق أوربا لكن

---

(١) محمد بن مراد خان العثمانى السلطان السابع من آل عثمان يلقب بالفاتح ولد سنة ٨٣٣هـ/١٤٢٩م ، اشتهر بفتحه للقسطنطينية ، توسعت الدولة فى عهده كثيرا ، وكان ذا حنكة وسياسة ، إلى جانب كونه أديبا شاعرا ، رتب بعض أوضاع الدولة الداخلية على أنظمة جديدة ، أنشأ عدة جوامع أهمها مسجد «أيا صوفيا» ، توفى سنة ٨٨٦هـ/١٤٨١م .
انظر : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، التاريخ الإسلامى ـ العهد العثمانى ، العثمانيون فى التاريخ والحضارة ، محمد حرب .

لأن الأتراك لم تكن لهم في جملتهم آنذاك ماكان للفاتحين الأوائل فلم يحقق لهم النصر في البداية مايرجى من الفتح وهو نشر الإسلام واستقراره ، وأيا مايكون فقد واكب الشعر هذه المعارك منذ فتح «القسطنطينية» .

كان فتح «القسطنطينية» من أعظم الفتوح ، لكن المصادر التي أتيحت لي لم تذكر إلا نزرا من الشعر ، لايضاهي جلال الحدث وعظمته ، ومازلت في حيرة من غياب الشعر عن هذا الحدث ، أضاعت مصادره فيما فقد من كتب التراث ، أم أن هذه المصادر مخفية عنا ، لانهتدي إليها ؟

لم أجد إلا نزرا يسيرا منه كالرسالة التي بعث بها الأشرف «إينال» (١) والي مصر إلى السلطان «محمد الفاتح» ، يهنئه بالفتح ، وضمنها أبياتا من الشعر ، ومنها :

كذا فليكنْ في اللّهِ جلَّ العزائمِ
وإلا فلاتجْفو الجفونَ الصوارمُ

كتائبك البحرُ الخضَمُّ جيادُهـا
إذا ماتهادتْ موجُه المتلاطمُ

تُحيطُ بمنصورِ اللّواءِ مظفّـرٍ
له النصرُ والتأييدُ عبدٌ وخادمُ

فياناصرَ الإسلامِ يامَـنْ بغزوهِ
على الكفرِ أيامُ الزمانِ مواسمُ

---

(١) الملك الأشرف إينال العلائي الظاهري أحد ملوك الجراكسة المماليك ، تقلب في عدة وظائف عسكرية بعد عتقه ، بايعه أمراء الجيش ملكا قام بأمور الدولة بحكمة وعقل برغم أميته ، وولى ابنه مكانه قبل موته في سنة ٨٦٥هـ/ ١٤٦١م .
الأعلام

تحفّ بفتحٍ سارَ فى الأرض ذكرُه

سُرى الغيثِ يَحْدوهُ الصّبا والنعايمُ

والأبيات ركيكة ، لاتليق بالحدث ، ولابشاعر القصر ، لكن زمنهـا هـو الـزمن الـذى دخـل فيـه الـشعـر إلى ليل الجمود والسقم .

لكـن فتـح «القسـطنطينية» مع ذلك ظل حدثا ضخما يطل على الشعراء والكتاب كلما عنـت مناسبة ، من ذلك مثلا مانظمه «محـمـد جـلال» ١٢٩٣ – ١٣٣١هـ بالتركيـة وقد نقلت إلى العربية فيما نقل من الشعر التركى ، منوها بالحديث الشريف الذى ورد فيه ذكرُ هذا الفتح مشيدا بالقائد «محمد الفاتح» .

هاهو قد عَزَمَ على فتح «استانبول»

جازماً بأنّها نيةُ الرسول صلى الله عليه وسلم

دائماً يرددُ هذا البطلُ أسدُ العثمانيين

مآلَ الحديث الشريف

فرأى أن فاتحَ المدينة وجنودَه

لائقون بمدحِ المصطفى

وفـى بقية القصيدة إعجاب بمهارته ، وبالأسلوب الذى تم به الفتح ، عجز أمامه العدو عن الدفع والمقاومة :

فى هذه الآونةِ اخترع السلطانُ السعيدُ

المدفعَ ودفَعَ به فجأةً

دانته كتلةٌ من المرمر ، شيءٌ رهيبٌ

ترتعدُ له جدرانُ القلاع (١)

---

(١) الأدب التركى الاسلامى ص ٢٢٩، ٢٣٠ ، ط/جامعة الامام محمد ابن سعود الاسلامية ، د. محمد عبد اللطيف هريدى .

وعلى غرار هذا الشاعر ظل الشعراء العرب يذكرون هذا الفتح المجيد ، كلما لاحت مناسبة ،«فحافظ ابراهيم»[1] ينوه به في عام ١٩٠٩م في عيد تأسيس الدولة العلية ، حيث قال :

وذاك الذي أَجْرى السفينَ على الثَّرى
وسارَ لهُ في البرِّ والبحرِ مَركَبُ

على بابِهِ العالي هُناكَ تألَّقتْ
سطورٌ لأقلامِ الجلالةِ تُنسبُ

هنا فاخفضوا الأبصارَ عرشُ محمدٍ
هنا الفاتحُ الغازي الكميُّ المدرَّبُ[2]

كما نظم «أحمد خيري»[3] مطولة بمناسبة مرور خمسمائة عام على فتح المدينة ، ومنها :

وانهارَ بأسُ الغربِ لمَّا فلَّهُ
صقرٌ من الشرقِ العتيقِ يروِّعُ

ورِثَ الحماسةَ والعزيمةَ والتقى
وغَدَا بِهَا قَبْلَ السلاحِ يُدرَّعُ

---

(١) محمد حافظ بن ابراهيم فهمي ، ولد سنة ١٢٨٧هـ/١٨٧١م مات والده وهو صغير ، اشتغل بالمحاماة ، ثم التحق بالمدرسة العسكرية وتخرج منها ، ذهب إلى السودان ، وشارك في إنشاء جمعية سرية لمحاربة الإنجليز فكشف أمرها فاحيل إلى التقاعد ، ثم رجع ضابطاً في البوليس ثم أحيل ، عمل بالأهرام ، ثم عين رئيسا للقسم الأدبي في دار الكتب ، عاش في وقت كانت الأمة الإسلامية تقتسم من كل جانب ، وكانت مصر تحت ظلم الإنجليز فاهتبل حافظ معظم المناسبات والحوادث الإسلامية والوطنية وقال فيها شعرا ، لقب شاعر النيل ، كان من رواد البعث والتجديد ألف عدة مؤلفات أهمها ديوانه ، والبؤساء ترجمة كتاب فكتور هوجو ، توفي سنة ١٣٥١هـ/١٩٣٢م .
انظر : حافظ ابراهيم شاعر النيل ، عبد الحميد هندي ، مقدمة ديوانه .

(٢) ديوانه ١٨/٥ ط/دار العودة ، بيروت ، ضبطه أحمد أمين وآخران .

(٣) أحمد بن خيري بن يوسف الحسيني ، ولد بالقاهرة سنة ١٣٢٤هـ/١٩٠٧م ، له مؤلفات منها ذكريات ، توفي سنة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .
الأعلام ١/ ، تاريخ الشعر العربي الحديث ، أحمد قبش .

واعدَّ جيشاً فيه كلُ غضنفرٍ
يجفُ العدوُ إذا رآه ويفزعُ

من كلِّ من باعَ الدنيةَ واشترى
غفرَ الإلهِ وجنةً تتضوعُ

لايعرفون سوى الهجومِ ويستوى
نصرٌ لديهم أو مماتٌ يرفعُ

وشعارُهم اللهُ أكبرُ فى الوغى
واللهُ ينصرُ من بها يتذرَّعُ

حسبى فخاراً أنَّهم من أمَّةٍ
تُعزى إلى خيرِ الأنامِ وترجعُ (١)

وعلى الرغم من أن هذه القصيدة تعزى إلى الشعر التاريخى الذى أقبل عليه شعراء العصر الحديث ، إلا أنها لاتخلو من عاطفة قوية ، ومن صور جميلة بين ماتتضمنه من رواية الحدث شعرا .

ثورة كريد الأولى :

قلت : إن الهزيمة التى لحقت بالدولة العثمانية فى حربها مع «روسيا» ازال هيبتها فى أعين الأوربيين ، وكان من ذلك أن «اليونان» اغراها هذا الوهن ، فطفقت تكيد للدولة ، وتسعى حثيثا إلى إيغار صدر "كريد" ، محاولة لضمها إليها ، فتمردت "كريد" وثارت ثورتها الأولى (١٢٨٦هـ/١٨٦٩م) إذ ذاك جردت الدولة جيشا لإخمادها ، وأمدتها «مصر» بقوة عسكرية ، ثم انتهت الثورة بالصلح بعد أن فاوض الثوار «عالى باشا» الصدر

---

(١) العاهل العثمانى "أبو الفتح" ، ص١٢ ط/هلال ١٩٥٤ على محمد بركى

الأعظم ، وتمخضت عن معاهدة باريس ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م التى تنص على منح الجزيرة بعض الامتيازات ، وإعفاء أهلها من الخدمة العسكرية ، ومن مكوس متأخرة .(١)

وممن اشترك فى هذه المعركة فارسا وشاعرا : "محمود سامى البارودى" ، ومن شعره فيها :

ولمَّا تداعى القومُ واشتبكَ القنا
ودارتْ كما تهوى على قطبها الحربُ

وزُيِّنَ للنَّاس الفرارُ من الرَّدى
وماجتْ صدورُ الخيلِ والْتهب الضَّربُ

ودارتْ بنا الأرضُ الفضاءُ كأنَّنا
سُقينا بكأسٍ لايُفيقُ لها شَرْبُ

صبرْتُ لها حتى تجلَّتْ سماؤُها
وإنِّى صبورٌ إن ألَمَّ بى الخَطبُ(٢)

وعلى الرغم من قوة الأبيات ، وجزالة ألفاظها وتراكيبها ، فهى لاتختلف فى طريقة التصور عن شعر القدامى فى عصر قوة الشعر ، وإذا كنا نبحث عن عودة الحياة والتأثير للشعر بعدما أصابه من سقم وركة وخواء فى عصر الضعف ، فلامراء أن هذه الأبيات وأمثالها تعتبر فجرا جديدا للشعر ، وللشاعر .

ومن شعر "البارودى" فى هذه المعركة قصيدة لانسمع فيها قعقعة السلاح ، ولانرى التهاب الضرب ، ولا الكر والفر ، إنما يرينا فيها ليل المحاربين ، وهو ليل حلو مر ، يختلط فيه التفجع والأسى وأصوات الأسرى بالمرح والغناء ، وهى صورة

---

(١) تاريخ الدولة العلية ص ٥٤٣-٥٤٥ .
(٢) ديوانه ١١٥/١ .

فريدة من شعر الحرب ، تنقلنا من تداعى المعانى ، وترابط الجمل ، وإشراق الصور إلى ماوراء ذلك كله من نفسية المحاربين إذا جن الليل .

يقول «البارودى» :

أخذ الكرى بمعاقد الأجفانِ
وهفا السُّرى بأعِنَّةِ الفرسانِ

والليلُ منشورُ الذوائبِ ضاربٌ
فوق المَتالِعِ والرُّبا بِجرانِ

لاتستبينُ العينُ فى ظلمائه
إلا اشتعالَ أسنةِ المرَّانِ

تَسرى به مابين لُجَّةِ فتنةٍ
تسمو غواربُها على الطوفانِ

فى كلِّ مرْبأةٍ وكلِّ ثنيةٍ
تَهْدارُ سامرةٍ وعَزْفُ قِيانِ

تستنُّ عاديةٌ ويصهلُ أجْردٌ
وتصيحُ أجراسٌ ويهتفُ عانى (١)

ولايستطيع قارىء أن يمر بهذه الأبيات دون أن يطيل التأمل مستحسنا "السُّرى الذى يهفو بأعنة الفرسان" ، "فى كل مربأة وثنية تهدار السامرين ، وعزف العازفين" ، "هتاف العانى ، وقرع الأجراس ، وصهيل لبعض الخيل يشق الليل البهيم" .

فروعة هذه اللوحة تأتى من التركيب المتجانس مع تباين عناصره ، ومن اختيار الألفاظ الموحية التى تجعل صورا خيالية كثيرة تتداعى فى مخيلة المتلقى .

---

(١) السابق ٤٣/٤ .

ثم يسفر الصبح فتنقلب هذه الصورة ، ويتغير كل شيء ، فالأبدان التى ارتخت بالنعاس ، والنفوس التى سكنت وادعت ، وربما كانت تحلم بمن خلفت من الأولاد ، والجبال التى كان الليل قد نشر عليها ذوائبه .. كل هذه الصور انقلبت فى الصباح ، فالجبال صارت أسنة ، والوهاد أعنة ، والمياه حمراء قانية من دماء المتقاتلين .

وفى نشوتنا بهذه الصور المتواكبة المتداعية التى كأنها تتحرك أمامنا تنبض بالحياة يلفتنا «البارودى» إلى خطرة قوية .. ما بال هؤلاء .. ولم خبّوا إلى القتال هكذا ؟ هم قوم أغواهم الشيطان ، فتسللوا من طاعة السلطان .. وما أروعها "تسللوا" هذه فى مكانها !! فالثورة تبدأ تسللا من الطاعة ، وسواء عناها «البارودى» أو حمله الوزن عليها ، فهى فى موقعها الذى لايغنى فيه غيرها .

قومٌ أبى الشيطانُ إلا نَزْغَهم
فتسلّلوا من طاعةِ السلطان

ملئوا الفضاءَ فما يُبينُ لناظرٍ
غيرُ التماعِ البيضِ والخُرصانِ

فالبدرُ أكدرُ والسماءُ مريضةٌ
والبحرُ أشكلُ والرِّماحُ دوانِ

والخيلُ واقفةٌ على أرْسانِها
لِطرادِ يومِ كريهةٍ ورِهانِ

وضعوا السلاحَ إلى الصباحِ وأقبلوا
يتكلمونَ بألْسُنِ النيرانِ

وفى نهاية القصيدة نجد التداعيات التى تتضمنها متوافقة مع طبيعة التجربة ، ففى النهاية نشعر كأن وجدان الشاعر قد شف ورق ، فتذكر وطنه وحنّ إليه ، وأرسل هذا

الحنين فى ألفاظ رقيقة تجعل المقيم يحسد عليها الغريب .

فَزِعتْ فرجّعتِ الحنينَ وإنما
تَحْنانُها شجتٌ من الأشجانِ

ذكرتْ مواردها «بمصرَ» وأين من
ماءٍ «بمصرَ» منازلُ الرّومان

والنّفسُ مولعةٌ وإن هى صادفتْ
خلفاً بأولِ صاحبٍ ومكانِ (١)

ومن المبرزين الذين أسهموا بشعرهم فى هذه المعركة «أحمد فارس الشدياق» ، وله قصيدة يمدح فيها الصدر الأعظم - «عالى باشا» الذى أشرف على المفاوضات مع «الكريديين» .

ومن أهم مايلفتنا فيها أنه تخلص من الاستهلال التقليدى الذى درج عليه معظم معاصريه ، وينبهنا إلى أنه قصد إلى ذلك قصدا فى مطلع القصيدة :

أرى القولَ يحلو بذكرِ الرجالِ ... وليس بذكرِ ذواتِ الدلالِ
رجالُ السياسةِ والأمرُ والنُّهى ... أهلُ الكياسةِ أمثالُ عالى

وينوه بالنجاح الذى حققه لما تفاوض مع الثوار :

لأنّ الذى رمتُ مدحَ عُلاه ... بدا فى المعالى بدون مثالِ
وزيرٌ يشدُّ به الملكُ أزراً ... مشيرٌ لآرائه النجْح تالِ
إذا رامَ أمرا أمرَّ عليه ... بجيحاً يذلّلُ صَعْبَ المنالِ
وأقلامُه السمرُ من فوقِ بيضِ ... الصحائفِ تفعلُ فِعلَ العوالى
يذلُّ لها كلُّ عاصٍ وتعنو ... لإمرتها مافياتُ النِّصال
تدبّرُ ملكاً بعيدَ النواحى ... وتفصلُ بالحقّ كلَّ عدالِ

---

(١) السابق ٤/٥٤ .

فللبِرِّ بحرٌ وللعلم حَبْـــرٌ ⠀⠀ وللملكِ صدرٌ رشيدُ الفِعـــال
حميدُ الخصالِ سعيدُ الخِلال ⠀⠀ وحيدُ المعالى فريدُ الكمـال
فما يزدهيهِ اقتدارٌ وعـزٌ ⠀⠀ ولا مالمنصبِـهِ مـــن جــلالِ
ولانول مالٍ ولاطـول حــالٍ ⠀⠀ ولامجـــد آلٍ ولاسعـــد فـــال

ويسائل الثوار قائلا : ألم يأن لكم أن تعرفوا اقدر هذا الرجل ، وتبصروا مقدرته ونذيره لكم قبل أن تفعلوا فعلتكم والمصير الذى ينتظركم من جرائها .

ألم يبشركم بالأمـان فى النفس والمال والعيال ، ألم يقل لكم إننا وإياكم فى الحقوق سواء ؟

ألم يأنِ للروم أن يبصروا ما ⠀⠀ تجلّيه فكرتُـه فى الليالـــى
ألم يكُ فى زجرهِ من نذيــرٍ ⠀⠀ يحذّرهم أمرُهـم فــى المآل

....

ويُسكنُهم فــى مساكــنِ أمـــنٍ ⠀⠀ على النّفس والمالِ ثم العِيالِ
اليس لهـــمْ مالنـــا وعليهـم ⠀⠀ سِوَى ماعَلَيْنا هـدى كـلِّ والِ

ويستفهم منكرا عليهم معرضا بهم ساخرا منهم ، مبينا ألوان خداعهم قائلا : لماذا تخادعون إذ لاخير فى الخداع ؟ ولماذا تروغون عن المعاهدات ؟ وتظهرون الود تارة ، والعداوة تارة وتقترحون كل محال ؟

إلامَ الخداعُ ولاخير فيــه ⠀⠀ وكم ذا تروغون روْغَ الثُعالِى
فطورا تقولون إنا عداةٌ ⠀⠀ وطوراً تقولون إنـا موالِـــى
وحتامَ تبغُون مِنّا اموراً ⠀⠀ وتقترحـــون نـــوالَ المحـالِ

ثم يأمر الثوار بطاعة الخليفة ، فلتخشوا موارمه إذا اعملتها جنوده البواسل أرتكم مـالايخطر ببالكم ، أرتكم المنايا تدور رحاهـا عليكم وانت ثُفالها ، ويذكر شيئا من مناقب الخليفة ، والتى يخلق بالرعية إزاءها ان تخلد للدعة وعدم الثورة ، وهو يملك جيشا يلبى نداءه انى شاء ، وانه

خليفة رب العالمين ، وهذه الصفة وحدها قمينة بوجوب طاعته .

وما دامت تلك صفاته فمن الخير طاعته ، مثلما كان آباؤكم الأوائل ، ولاتغرركم الدعاية الكاذبة للخروج عليه ، فإن سطوته ستنالكم .

ويردد أن الشعوب العثمانية سواسية ، وفي هذا إشارة إلى مطالب الثوار التي كانوا يرددونها دائما في كل ثورة يقومون بها ، بإغراء من بقية الطامعين الأوربيين .

وهكذا يختم القصيدة بأوصاف الخليفة التي تظهر عدالته بين رعيته . .

أطيعوا الخليفةَ بالحقِّ واخشوا صوارِمَهُ فهي ذات اغتيال

إذا أعملتْها كماةٌ شدادٌ أرتْكم كما لم يمرَّ ببالِ

منايا سِراعاً تدورُ عليكم رحاها وأنْتم لها كالثِّفال

اليمن لعبدِ العزيزِ مليكِ الملو كِ جيوشٌ كعدِّ الرِّمال

إذ كان يدعو رعاياه طرّاً يقولون لبيك يالنزالِ

خليفةُ ربِّ العبادِ مفيضُ الـ أيادي السوائلِ قبلَ السؤالِ

رؤوفٌ بمن جاءه مستجيراً ولكنَّ شديدٌ على ذي المحالِ

وينصره اللّهُ نصراً عزيزاً على كلِّ باغٍ مريدِ القتال

فخيرٌ لكم أن تكونوا كآبا ئكم في حِماه المديدِ الظلال

فليس لكم دونَه من ودودٍ فلايغرَّكم مينُ قال

تعالوا إلى مادعاكم إليه وإنْ هو إلا خلوص امتثال

وأنتم من منِّه في أمان وعيشٍ هنيءٍ وغبطةِ حال

فكم مرةً قال إنِّي برٌّ بأهلِ الصليب كأهلِ الهلال

فمالكم لاتعونَ حديثاً ولاتهتدون بنصح مقال

أعزُّ السلاطينِ قدراً وجاهاً وأكرمُهم عند بذلِ النّوال

لطالبِ رضوانه كلُّ خيرٍ وطالبُ عصيانه في وبال

فهل مثلُ دولتِه فى الجنوبِ
وفى الشرقِ والغربِ أو فى الشمالِ
وهل مثله من جميلٍ مهيبٍ
أصيــلٍ حسيــبٍ جـليــلٍ بجـالِ
يروعُك فوق الأريكةِ والطر
فِ يـوم النّــوال ويـــومَ النضــال (١)

والشدياق عـالم لغـوى ، وأديـب صحفى ، وله فى تاريخ الصحافـة العربية ذكر ومكانة بصحيفة "الجوائب" ١٨٦١م التى أصدرها فى الآستانة . أما اقتحامه ميدان الشعر ،وتسلله إلى زمـرة الشـعراء ، فليس عـن موهبـة شعرية تجعله من الشعراء المـبرزين ، بـل لأن الشـعر كـان فـى ذلك الجيل والذى سبقه الوسيلة المثلى للتعبير عما يجيش فى النفس .

إذ أن القصيـدة التـى معنا لاتعدو أن تكون نظما لأفكار سـردها سـردا ، وحولهـا مـن النـثر إلـى الشعر ، فهو يأمر الشـوار بطاعـة الخليفـة ، لأن الخروج عليه وبيل العـاقبة ، ولـن تطيقـوا جيوشه الجرارة ، أطيعوه كما أطاعه آباؤكم من قبلكم ، لأنه خليفة رب العباد ، ولاملاذ لكم غيره ، وهو عـادل فـى رعيته يبر أهل الصليب بره لأهل الهلال ، فاخلدوا إليه ، وامتثلوا لدعوته تظفروا بخير كثير .

فـالرجل يحـضهم عـلى الطاعة ملوحا بالثواب والعقاب ، وتسـتطيع مـع ذلك استخلاص بواعث هذه الفتنة التى حرص عليها المسـيحيون ، وتتلخـص فـى زعمهـم فـى أن الدولـة تفـرق فى المعاملـة بينهـم وبيــن المسـلمين ، والقصيـدة كـذلك أشبه بوثيقة تاريخية ، بغض النظر عن صحة ماانطوت عليه .

(١) كـنز الرغـائب فـى منتخبات الجوائب ١٥٧/٣ ، جمع أديب اسحاق .

ثورة كريد الثانية (١٣٢٧-١٩٠٨م) :

لم أجد فيما رجعت إليه من كتب التاريخ المعروفة[1] شيئا يذكر عن هذه الثورة ، ولا الدوريات التي اطلعت عليها في الوقت الذي نشبت فيه ، وكان دليلي الوحيد إليها هو الشعر الذي قيل فيها آنذاك .

وربما يرجع السبب في ذلك إلى عاملين اثنين :

(أ) انها كانت عقيب سقوط السلطان «عبد الحميد» .

(ب) أنها تزامنت مع ظهور الدستور العثماني عام ١٩٠٨م .

ومن هنا يكون الشعر الذي هداني إليه الاستقراء ذا أهمية تاريخية ، «فلأحمد الكاشف» قصيدة ألقاها في إحدى المناسبات ، نوه فيها بالدستور وبالدستوريين الذين خلعوا الخلافة من وهنها وتداعيها ، وإذا كان الدستور قد غاظ أعداء الدولة الذين يريدون اضعافها فقد سر من يحبون الحرية ، واستعادة قوة الأمة .

أهلُ الخلافة والذين ذكرْتُهم	حتى لقد أوشكتُ أنسى ذاتي
لم يأخذوها غِيلةً بل أشفقوا	من أدعياء تراثِها الأشتاتِ
وتناولوها من يدٍ مشلولة	من بعدِ ماساروا على الهاماتِ
حرموا عليها حيث يشْرُف مرحُها	وتسيلُ أكبادُ العدى حسراتِ

ثم يخرج من ذلك إلى «كريد» وثورتها ، فيظهر عجبه من أنها لايقر لها قرار ، وأبدا لانسمع بها إلا مضطربة الخواطر ، فهل ذلك لأن تحتهم نار وفوقهم لعنات كما يدعون ؟

---

(١) مثل : تاريخ الدولة العلية لمحمد فريد وجدي ، التاريخ الاسلامي لمحمود شاكر ، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها لعبد العزيز الشناوي ، وغيرها .

ولم يتوعدون المسلمين بالنكال ، والمسلمون لم يكونوا إلا مطيعين لله ولخليفته ؟

إنّ البغاةَ على الخلافة أصبحوا ... في ذمة الدستور غيرَ بغاة
مالِلجزيرة لاتقرّ ومالَها ... مكروهةَ النزعات والنزغات
هلّا رأى أهلُ الجزيرة تحتهم ... ناراً وفوق رؤوسهم لعنات
يتوعدون المسلمين لأنهم ... لِلّه والسلطانِ غيرُ عُصاة
لم يسمعوا نُصحَ المشفع فيهم ... عند القدير وهم أضلّ جناة

ويلقى الشاعر هذا التوعد بوعيد مثله أو أكثر لأنهم البغاة ، ويذكرهم بالشهداء من الجنود المصرية والتركية الذين واراهم تراب الجزيرة .

ويتجاوز «الكاشف» الأسباب الظاهرة التى يتعلل بها الثوار ، ويقف على العلة الحقيقية وهى تعصبهم هم على المسلمين خلافا لزعمهم من تعصب المسلمين عليهم ، ويدلهم على الصلة بين الأديان ، والترابط بينها ، لأنها جميعا من عند الله ، لخير الانسان وسعادته ، إضافة إلى مافى الإسلام من سماحة ، ومالِلمسلمين من أياد طولى عليهم .

لو صانَ كلّ دينَه لم يَقطعُوا ... يوما علائقَ بيْنهم وصِلات
الدّينُ مانعَ الأذى ولَوَ انّه ... بين العقاربِ جاءَ والحيّات
ماذا جناهُ المسلمون وهذه ... يدُهم على الأمم المسيحيات
لولا سماحةُ دينِهم لبغوا ... على الأديان والأخلاق والعادات (١)

ففى القصيدة نفحة من الشاعرية التى تنم عنْ موهبة فى الشاعر ، انعكس أثرها على بعض المعانى والألفاظ فى القصيدة فالذين كانوا يتهمون بالبغى على الخلافة حين كانت شلاء ، عاجزة ، صاروا غير بغاة حين أقاموا الدستور الذى يحقق

---

(١) ديوان أحمد الكاشف ٥٤/٢-٥٥ ، ط/الجريدة بمصر ١٣٣١هـ .

العدل ، وينشر الأمن ، فلامسوغ إذاً لثورة الثائرين ، ومالهؤلاء الناقمين لاينتفعون بنصح ناصح ، ولاتجربة مشير ، ويقولون : إنهم مسيحيون ولو كانوا مسيحيين حقا ، ووعوا دينهم لما قطعوا العلائق بينهم وبين المسلمين ، لأن الأديان كلها من عند الله ، وتلتقى على خير الإنسان .

وليس فى القصيدة صهيل خيل أو صلصلة سيوف لأنها مع ماتنطوى عليه من تهديد إلا أن ملمحها العام هو الدعوة إلى السكينة .

وقد أوحت ثورة "كريت" هذه للشاعر "أمين ناصر الدين" بقصيدة تستوقف الباحث لأسباب :

منها اشتمالها على نزعة فنية جديدة ، لأن الشاعر نظمها فى شكل قصة ، والشعر القصصى بعامة كان فى هذا الوقت مظهرا تعلق به بعض الشعراء رغبة فى تجديد الشعر بعد ما اطلعوا على اقتباس منه فى الشعر الأوربى ، كالأشعار القصصية التى نظمها "خليل مطران" ، ونشرها على صفحات مجلته "المجلة المصرية" عام ١٨٩٠م .

ومنها أن الشاعر "أحمد شوقى" ذاته ذيل ملحمته البائية فى حرب "اليونان" بما يشبه القصة ، كما سيأتى فى المبحث الثالث ، فلعل الشاعر "أمين ناصر الدين" قد تأثر بهذا المنحى العام فى قصيدته هذه ، وأن تأثره كان أكثر بقصيدة "شوقى" لتشابههما فى أن أحداث القصة دارت حول الحرب .

ومنها أن الاتجاه فى شعر الحرب إلى إخراجه مخرجا قصصيا يكشف عن محاولة لتجديد الشعر العمودى دون خروج على أوزانه وقوافيه ، وهى بداية تعكس تجدد الحس الفنى وحيويته والرغبة فى الخروج بالشعر من أسر الجمود .

وتتألف قصيدة "ناصر الدين" من صورتين أو لوحتين :

فى اللوحة الأولى يتمثل الشاعر فتاة «كريتية» مسلمة تستنهض همم العثمانيين عربا وأتراكا لإنقاذها ، والحيلولة دون وقوعها سبية لليونانيين ، وفى اللوحة الثانية يتمثل فتى مسلما يستجيب لاستغاثتها ، ويعدها بقدوم النصر .

يقول فى المقطع الأول :

أيملكنى اليونانُ والترك تنظرُ
وللعربِ أسيافٌ بها الغِيدُ تُخفرُ

وحول "فروقٍ" من قنا الخطِّ غابةٌ
تَظَلُّ بها أُسْدُ الكتائبِ تَزْأرُ

وفيها سريرُ الملكِ حُفَّ بهيبةٍ
ومجلسُ نوابِ البلادِ الموقَّرُ

بنى العربِ والأتراكِ أين حميةٌ
يروعُ العدا منها اللظى المتسعِّرُ

وأين السناءُ الجمُّ والهممُ التى
غدَتْ دونها الشُّهبُ الثواقبُ تصغرُ

وأين نفوسٌ مافتئنَ إلى العلا
طوامحَ فيهنَّ الإباء الموقَّر

وأين موافٍ تنتضيها أكفُّكم
فيبدو عليهنَّ الحِمَام المصورُ

وأين المذاكى ينسجُ النقعُ فوقها
مُلاءً فتطوى تارةً ثم تنشرُ

وأين الجوارى تمخرُ البحرَ هُيَّماً
يجيشُ حشاها بالبخار فتزفرُ

تميسُ بأثوابِ الحديدِ كأنها
حسانٌ عليهنَّ الحرير المُحَبَّرُ

فالخطاب يستهل بهذا الاستفهام الذى يقطر حسرة "أيملكنى اليونان" ويضاعف من هذه الحسرة ما أثر عن العرب

من غيرتهم على أعراضهم ، وسيوفهم التى يخفرون بها الغيد ، وتمتزج حسرة الفتاة بعجبها من أن ينزل بها ضيم و"فروق" محاطة بغابة من القنا تزار بها الكتائب المدججة ، ومن ورائها هيبة الملك ، ومجلس النواب الموقر .

ثم تتوجه بالخطاب إلى العرب والترك ، عنصرى الدولة وقوامها مهيبة بهم اين حميتهم وهممهم ، واين نفوسهم الطامحة إلى المعالى ، اين سيوفهم وخيولهم وسفائنهم .. اين هذا كله لينقذها مما هى فيه من ذل الخوف والأسر ؟

ويستثير «أمين ناصر الدين» مشاعر التفجع واللوعة على لسان الفتاة ليحرك بها نخوة الشعب وغيرته فلايسكت على ضيم المسلمين والمسلمات فى "كريت" فيقول :

أأُسى ولى منكم حماةٌ وللورى
عيونٌ إلى شعب ابن عثمانَ تَنْظرُ

وفى الوقت الذى تحررت فيه الدولة من ضعفها بالدستور وبالحرية تستعبد هى :

احينَ غَدَتْ تركيةٌ وهى حرةٌ ... ينالُ العدا رِقّى فلا اتحرّرُ

الا يدعو هذا إلى نكر شديد ؟

الستمْ بنى قومٍ أرَاقوا دماءَهم
لاجلى وشَارى المَجْد بالدّم يشكر

تناديكمُ منها رَميمُ عِظامِهم
ألا لحمى العذارى فالمحاماةُ مفخرُ

أبى اللّهُ أن تَرضى التخاذلَ أمةٌ
لها فى العلا يُتْلى رقيمٌ مُسطّرُ

اعاد لها الدستورُ سالفَ مجدها
وشادَ لها الاحرارُ مساليس يُدثرُ

وقدْ كانَ هذا الشعبُ جمَّ عناصرٍ
فعادوا وهاتيك العناصرُ عنصرُ
سلامٌ على شعبِ ابنِ عثمانَ ماحكتْ
دموعُ العذارى صيّبَ المزنِ يقطرُ
سلامٌ على الجيشِ الذى بسيوفِه
يُسَطَّرُ فى طِرْسِ العلا مايُسطَّرُ
سلامٌ على النوابِ ماذكرتْ لهم
مآثرُ فى مُتُونِ الممالكِ تؤثرُ

وفى هذا المقطع مايستوقف الباحث ليوضح بعض ملابساته ففيه نداء إلى العرب والأتراك معا ، وهو ينطوى على إشارة ذكية من الشاعر لرفض الدعوة التى ترددت أصداؤها آنئذ بين بعض الأتراك منادية بالطورانية ، وبالتخلص من العرب .

وفيه إشادة بالعهد الجديد فى تركيا عهد الحرية والدستور ، والأمل فى أن يحمل فى ضميره بشيرا بعزة الإسلام ، واستعادة مجد المسلمين .

وفيه الرمز إلى الإسلام والمسلمين فى «كريت» بالفتاة ، وهى بطبيعتها ضعيفة ، فيكون ذلك أدعى لإثارة الحمية والنخوة لنصرتها .

وفيه إلى ذلك حفاوة ظاهرة بالمعانى ، وهى سمة شرع الشعر يكتسبها فى هذا المجال ، بعدما غشيه ضعف المعانى وسطحيتها طوال عصر الضعف . ولو أن حفاوة الشاعر بالمعنى هنا جاءت على حساب قوة السبك ، وجزالة التراكيب فى بعض الأحيان .

وفى المقطع الثانى يتخيل الشاعر فتى من المسلمين يستجيب للصريخ ، ويهرع للفتاة مهدئا من روعها ، باعثا الطمأنينة فى نفسها ، وأن صريخها لن يذهب سدى .

رويـــدك ياحسنـــاءُ إنـــا لأمّـةٌ
دماءُ بنيها الصّيدِ دونك تهدرُ

نعانقُ فى الحربِ المنايا كأنّها
أوانسُ فى غُصنِ الحدائقِ تهدرُ

ونُزجى الجوارى المنشآتِ مقلـةً
مدافعَ منهنَّ الرَّدى يتفجّـرُ

سنحْميكِ ياحسناءُ من كلِّ معتـدٍ
ببأسٍ له خـدُّ العزيزِ يصعـرُ

سنحميك مادامت ظُباتنا مواضيـاً
وماحملَت منا الأشـاوسُ ضُمَّـرُ

فشيمتُنا صونُ العذارَى وشأنُنـا
مدامُ الأعادى كلّما ثار عِثيـرُ

يستمهل الفتاة ، ويؤكد لها أنه من أمة عزيزة ، لاتقبل الضيم ولاتصبر عليه ، من أمة تشتهى الحرب ، ولاتهاب المنايا لانهـا فطـرت علـى الشجاعة ، من أمة مستعدة بأسباب القوة ، ومن شيمتنا مصادمة العدو ، وعدم التخاذل عن مواجهته .

ثـم يفند الشاعر أوهام "يونان" ومالعلهم حسبوه من أن الدهـر أخنـى على دولة المسلمين فيذكرهم بما كان بينهم من معـارك دارت فيهـا الدوائر عليهم قائلاً واذقناهم وبال أمرهم ، وترددت أحاديث نصرنا فى الخافقين .

أظنّ بنـو يونـان أنّ سيوفَنـا
تَثلمْنَ أم أخنى علينـا التأخـرُ

ألمْ يذكروا بالأمسِ ماكانَ بيننـا
علـى حين خفْنا الموتَ والموتُ يزخرُ

صدْمناهُمُ تحت العُجاجـةِ صدْمـةً
كمـا راعَ أسرابَ الظبـاءِ غضنفـرُ

وكانت لنا معهم وقائعُ لم تزل
أحاديثها في الخافقين تكرَّرُ

كأن الصِّقال البيض في النَّقع لُمَّعاً
بوارقُ تخفى في السحاب وتظهرُ

وقبلاً تملكنا «أثينةَ» عَنْوةً
ولم تثننا عنها مدافعُ تهدرُ

أغرنا على أسوارها فتقوَّضت
وملنا كما مال القضاءُ المقدَّرُ

ويجيش وجدان الشاعر إحساسا بالحماسة والفخر ، وكأنه يستروح أنسام الفخر في الشعر القديم ، وفي شعر «البارودي» حديثا ويقول :

إذا نحن لم نحمِ الذِّمارَ فلابدت
لنا في سما العليا كواكبُ تزهرُ

ولاحملتنا الجرْدُ تقلع في الوغى
ولاقيلَ إنّا للبسالةِ مَعْشرُ

ولاضاحكتنا الغيدُ ترنو بأعينٍ
سواجٍ كما يرمي من الغفْر جؤذرُ

ومن ليس يُسقى بالظُّبا زوحُ مجده
فلا أصلها يروى ولا الفرعُ يُثمِرُ

ثم يعود إلى اليونان مهددا متوعدا ، ويقول : إذا كنتم تحينتم وقتا توالت فيه الخطوب علينا ، وإذا خلتم أن توالى الظلم علينا قد أخمل شعبنا وصيره أصبر على الهوان فإنكم غافلون ، فتحت الرماد جمر إذا هبت ريح العدوان عليه أزالت الرماد ، وتسعر الجمر . قهرناكم أيام كان الملك في اضمحلال ، فكيف وهو الآن أخفر فيشان ؟!

ومهلاً بني اليونانِ هل تحسبوننا
نسينا اقتحامَ الحربِ والجوُّ أكدرُ
أفاتكمُ أنّ الشّجاعةَ خُلّةٌ
تميزُنا عن غيرِنا حينَ نذكر
وأن نفوسَ الصيد تصْغرُ في الوغى
إذا صاحَ جيشُ الترك اللّهُ أكبرُ
عرِفنا بصبرٍ في السياسةِ ثابتٍ
ولكنّنا في ساحةِ الحربِ أصْبرُ
نودُّ بقاءَ السلمِ حتى تسومَنا
هوانًا فنبغي الحربَ واللّهُ يَنصرُ
تحيّنتمُ وقتًا توالتْ خطوبُه
لإدراك أمرٍ نيلُه يتعذّرُ
وخلْتم توالي الظلم أورثَ شعبَنا
خمولاً فأصبحْنا على الهونِ نصبر
وقد يحجب النارَ الرمادُ وإنّما
إذا الريحُ هبّت فوقها تتسعّرُ
قهرناكمُ والملكُ قد كان ذاويًا
فكيف وروضُ الملكِ فينانُ أخضرُ
عليها هلالٌ دونه البدرُ رونقًا
إذا ضاءَ لم يبصرْ سنا الشمسِ مُبصرُ

وفي ختام القصيدة يقول للكريتيين : إنكم سلكتم سبيل الغي دون تبصر ، وكان أحرى بكم فيما لو أردتم الصواب أن تتبصروا ، وإن كان أغراكم أن "النمسا" فازت بما أخذت من الدولة فالدهر قلّب يصفو حينا ويكدر آخر ، ومازال بين تركيا وبينها يوم طويل في «البلقان» ، سيعلم الذين بغوا بعده أي منقلب ينقلبون . وإن كان أغراكم أن "البلغار" أيضا

فازوا بمآربهم من الدولة "فكم ثعلب يضرى إذا اعتل قسور".

ولايحسبُ النمسا سيرغدُ عيشُها
بما اغتصبتْ فالدهرُ يصفو ويَكْدرُ

سيجمعُ "تركيا" بها بعد برهةٍ
من الدهرِ فى "البلقان" يومٌ مشهّرُ

وإن يكنِ "البلغار" فازَ بمأربٍ
فكم ثُعلب يُضْرى إذا اعتلّ قسورُ (١)

والقصيدة من الناحية التاريخية تكون مع مثيلاتها سجلا يثير مشاعر الأسى مماكان حاق بالدولة من خطوب، ومانزل بها من محن انقضاض البلاد الأوربية عليها، ومساندة بقية الشعوب الأوربية لهذه البلاد الثائرة، كما يشير من ناحية أخرى إلى التصدع الداخلى الذى منيت به الدولة نتيجة أخطاء كثيرة لاسبيل إلى عرضها هنا، كان من عواقبها زوال هيبتها فى "أوربا"، وتقلص ظلالها عن أقاليم كثيرة كانت تستظل برايتها، وصيرورتها كما وصفها الواصفون رجلا مريضا تطمح شعوب أوربا إلى اقتسام أملاكه.

ولم تكن الصحوة التى نوه بها الشاعر لتستطيع أن تدرأ عنها شيئا، لأنها لم تكن الصحوة الصادقة المنبثقة من ضميرها المسلم.

ومما يلفت الباحث إلى هذه القصيدة من الناحية الفنية أنها تمثل نقلة فى الحفاوة بالمعانى فى تاريخ الشعر الحديث، وهو الاهتمام الذى يعده الباحث تخليصا للشعر من أسر الابتذال والسطحية والفجاجة التى وجدناها على ملامحه فى مطالع العصر الحديث.

---

(١) العدل أساس الملك عدد ٧ فى ١٣٢٧/٧/١٩هـ.

أما حظها من الانفعال فيبدو في استثارة حمية الترك والعرب ونخوتهم ، وتذكير العرب بماضيهم في الشجاعة ، وجهادهم في نصرة الإسلام عن طريق الاستفهام المتعدد : أين السناء الجم ، أين النفوس الطامحة إلى المعالي ، أين المذاكي والجواري ؟

ولعل الشاعر في هذه الاستفهامات المتعددة نظر إلى بائية «شوقي» التي سيرد ذكرها في فصل لاحق ، فالزمن بين القصيدتين متقارب ، والشاعران متعاصران ، والموضوع العام واحد .

ومع هذا ففي القصيدة طابع سردي ، وفيها لهجة خطابية يقربانها من أسلوب النثر ، ، وهو مالا اطمع في هذا الوقت من تطور الشعر الحديث أن يتجرد الشعر منهما بغتة ، بل بقوة المواهب ، وكثرة التنافس ، وازدهار الحركة النقدية . وفي القصيدة أيضا مايستحق التعقيب عليه وهو الرمز الذي بني عليه هيكل القصيدة ، واختيار فتاة مسلمة تستغيث بالمسلمين أن ينقذوها من مهانة أسر غير المسلمين لها ، وتصدى فتى مسلم لنجدتها وتخليصها .. ففي اختيار هذا الرمز إيماء إلى الوضع الحرج الذي آل اليه المسلمون في «كريت» ، ومايتهدد مستقبل الإسلام في هذه الجزيرة التي عاشت زمنا تتنفس في جو إسلامي ، وتنتشر في ربوعها عادات المسلمين وآدابهم .

بقي شيء أخير حول هذه القصيدة :

لقد زعم بعض المؤرخين أنها قيلت في حرب «البلقان» [(١)] ،

---

(١) شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام ص ٥٠ ، ويذكر أنها قيلت في حرب البلقان وهذا وهم منه .

بينما تؤكد الملابسات والبراهين المختلفة أنها قيلت في ثورة «كريت» :

(١) إذ نشرتها صحيفة "العدل أساس الملك" سنة ١٣٢٧هـ وهذا الوقت متزامن مع صدور الدستور العثماني الذي أشار إليه الشاعر في قصيدته .

(٢) أشار إلى هزيمة اليونانيين ، ولم يهزموا إلا سنة ١٣٨٤هـ/١٨٩٧م .

(٣) لم تخرج الجزيرة من يد الدولة العثمانية كلية إلا في سنة ١٣٣١هـ/١٩١٢م إبان حرب البلقان .

(٤) وردت في القصيدة إشارة إلى استيلاء «النمسا» على بعض أقاليم الدولة ، ومعروف أن «النمسا» ضمت البوسنة والهرسك لها في سنة ١٩٠٨م ، وهي السنة التي صدر فيها الدستور العثماني .[1]

---

(١) انظر – التاريخ الإسلامي – الأقليات الإسلامية جـ٢٢ ص٤٥٦
وتاريخ أوربا في العصر الحديث ص٤٣٧

حرب اليونان ١٣١٤هـ/١٨٩٧م :

عندما تشيخ الدول ، وتتسرب إليها عوامل الوهن ، قد تتحلل من الداخل ، وقد يتكالب عليها أعداؤها المتربصون بها من الخارج ، وقد سنحت ليونان هذه الفرصة عندما كثر الخارجون على الدولة من اتباعها ، وعندما نالت منها الحروب التى خاضتها فصرحت بأطماعها فى بعض الجزر التابعة للدولة ، وعلى رأسها "كريت" .

ودارت حرب ضروس بين الجانبين ، ظفر فيها العثمانيون باليونانيين ، بعد مغالبة ومساجلة ، ثم تدخلت أطراف من الدول الأوربية ، وعقدت معاهدة صلح بين المتحاربين ، انسحب العثمانيون بمقتضاها عن المواقع التى احتلوها ، وكمنت الضغائن إلى حين .

وقعت هذه الحرب فى عهد السلطان «عبد الحميد» ، ونجم فيها شعراء لم نسمع بأصواتهم فى الحروب التى سبقت هذه الحرب ، متهافتين على الخليفة – كما درج سابقوهم – باعتبار الخليفة رمز الأمة الإسلامية ، وقطب الرحى .

وكان شوقى[1] من أبرز من ارتفعت أصواتهم فى هذه الحرب ، بقصيدة بائية استهلها بقوله :

---

(١) أحمد شوقى بن على بن أحمد شوقى ، ولد سنة ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م ، أمير الشعر فى العصر الحديث ، درس بمصر ثم فرنسا ، كان على صلة بالقصر وخاصة فى عهد توفيق وعباس ، زار كثيرا من عواصم أوربا ، نفى إلى أسبانيا بعد خلع عباس ، لم تمر حادثة إسلامية أو وطنية إلا اهتبلها وقال فيها شعرا لذا ذاع شعره على كل لسان ، له ديوان شعر (الشوقيات) ، وعدد من الروايات الشعرية ، ومطولته : دول العرب وعظماء الإسلام ، وغيرها . توفى بالقاهرة سنة ١٣٥١هـ/١٩٣٢م .
انظر : شوقى شاعر العصر الحديث ، شوقى ضيف .

بسيفك يعلو الحقّ ، والحقّ أغلبُ
ويُنْصَرُ دينُ اللهِ أيّانَ تَضربُ

وما السيفُ إلّا آيةُ المُلكِ في الورى
ولا الأمرُ إلّا للذي يتغلّبُ

أمِنّا الليالي أن نُراعَ بحادثٍ
وأرمينيا ثكلى وحورانُ أشيبُ (١)

يبدأ الشاعر المتلقي باستهلال قوى جميل يصدر فيه عن عاطفة مشبعة بحب الإسلام ، والانتصار له ، ولاشك أن "شوقي" نظر إلى بائية "أبي تمام" المشهورة :

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتُبِ
في حدِّهِ الحدُّ بين الجدِّ واللّعبِ

اشتراك في الموضوع وهو الحرب دفاعا عن الإسلام ، واشتراك في القافية ، وتقارب في المعاني ، وإن كان "شوقي" في زعم الباحث أكثر جدة واستيعابا ، وجمالا ، فسيف "أبي تمام" هو الفيصل ، بحق كان أو بباطل ، وسيف "شوقي" في يد الحق وفي خدمته ، وفي نصر دين الله .

يقول "شوقي" : إنا أمنا الليالي ، وسيف الحق هذا في يد الخليفة ، يذود به عنه ، وهو الذي شيب "حوران" ، وأثكل "أرمينيا" لما خرجتا على هذا الحق . (٢)

وفي الجيل السابق لحظت أن الشعر كله على نسق واحد ، تكاد تتلاشى الفروق بين الشعراء في معجمهم ، وفي صورهم ، أما بعد أن صاروا على مشارف قرن جديد ، وبعد أن فعلت عوامل اليقظة والقوة فيهم وفي شعرهم ، فقد لاحت أمارات

---

(١) ديوانه : الشوقيات ٤٢/١ ، ط/دار الكتاب العربي .
(٢) انظر : شوقي وشعره الإسلامي ص ١٧٠/١ ، ط/دار المعارف ، د. ماهر حسن فهمي .

الموهبة واتسعت الفروق رويدا بين الشعراء ، وصار ممكنا تصنيفهم إلى طبقات ، وإن كان المجيدون مازالوا قلة ، ومن هم دونهم فنيا أكثر .

ونسمع من "حلة العراق" صوتا آخر ل "جعفر الحلى"(١) يجهر به ولاء للخليفة الذى يعز الدين بالدفاع عنه ، ويرى أن دولة الخلافة دولة نبوية ، أرسى قواعدها محمد صلى الله عليه وسلم ، ورفع بنو عثمان قبابها إلى السماء ، حتى أذلوا أهل الضلال ، وأرهبوهم .(٢)

لك طأطأتْ دولُ الضلال رقابَها
قِدْما فسيفُك قدّ أذلَّ صعابَها

فاليوم صارَ الدينُ فيك مؤيداً
ولدَولةِ الإسلام كلُّ هابَها

فمَن المُطاولُ دولةً نبويةً
وقفتْ ملائكةُ السّما حجّابَها

فبكم بنى عثمانَ دولةُ أحمدٍ
سَحَبَتْ بفرعِ الفَرْقَدين ثيابَها

بُشراكَ ياشمسَ الوجودِ بدولةٍ
بيضاءَ قد جلّى سناك ضبابَها

أرْسَى قواعدَها النبيُّ محمدٌ
ورفعْتَ أنتَ إلى السماءقبابَها(٣)

---

(١) جعفر بن حمد بن محمد الحلى ، ولد فى الحلة سنة ١٢٧٧هـ ، درس على علماء الشيعة فى النجف وتفقه فى المذهب الجعفرى ، له ديوان شعر (البابليات) سحر بابل وسجع البلابل ، مات سنة ١٣١٥هـ .
انظر مقدمة ديوانه .

(٢) انظر : الشعر العراقى أهدافه وخصائصه فى القرن التاسع عشر ص ٣٦ ، ط/الدار القومية ، القاهرة ، د. يوسف عز الدين .

(٣) ديوانه : سحر بابل وسجع البلابل ص ٥٢ .

ويمضي ابن زكري[1] على هذا السنن ، فعبد الحميد تاج الخلافة ، أيد بفتحه المبين دعائم دين الله .

تاجِ الخلافةِ بهجةِ الـ	دنيا وعزِ المسلميـن
عبدِ الحميدِ وناصرِ الد	ينِ الحنيفيِّ المبين
أيدتَ بالفتحِ المبيـ	نِ دعائمَ الدينِ المَتين
ونصرْتَ دينَ المصطفى	خيرِ البريةِ أجمعين (٢)

ويغلو أحمد محرم في قوله :

حميْتَ لواءَ الملكِ فارتدَّ طالبُه
وصُنْتَ ذمارَ الحقِّ فاعتزَّ جانبُه (٣)

ويقول في أخرى :

إنا يسوسُ أمورَنا ويقيمُها	ملكٌ بأمرِ إلهِهِ قوامُ
رحبُ الذراعِ كفى الذي	رأىٌ له في المشكلاتِ حسامُ
عبدُ الحميد التاجَ في أيامِهِ	للملكِ ماذهبَتْ به الأيامُ
لولا حزامتُه وشدّةُ بأسِهِ	ومفاؤه لتضعضعَ الإسلامُ
مازالَ يحمي حوضَه مذ جاءَهُ	وكذاك يحمي غيلَه الضِّرغامُ
ملكٌ يقومُ الليلَ ينظرُ في غدٍ	ماذا يسدُّ والملوكُ نيامُ
مَنعَ الخلافةَ أن تُنالَ صروحُها	حتى تحامَتْ سوقَها الأوهامُ (٤)

---

(١) مصطفى بن محمد بن ابراهيم بن زكرى ، ولد بطرابلس سنة ١٢٥٩هـ/١٨٥٣م ، تشبع بثقافة عصره الدينية والأدبية ، عمل حينا في التجارة ، وزار الحجاز ومصر وباريس ، يعد من الطبقة التي خطت بالشعر في ليبيا خطوة نحو الانبعاث ، له ديوان شعر مطبوع .

(٢) ديوانه ص ١٨٤ ، ط/دار الفكر ، طرابلس ١٩٧٢م ، تحقيق علي مصطفى المصراتي .

(٣) ديوانه : السياسيات ٣٧/١ ، ط/مكتبة الفلاح ، حققه محمود أحمد محرم .

(٤) نفسه ٤١/١ .

فالشاعر حريص على إبراز صفات بعينها ، يراها قمينة بالتفاف المسلمين حوله فى مواجهة الخطوب التى تتعرض لها الدولة ، فهو قوام بأمر إلهه ، رحب الصدر حازم ، لاينام عن أمور الرعية .

ويدور الشعراء الآخرون فى هذا الفلك ، لايكاد يتميز بعضهم عن بعض فى أوصافهم .

فالخليفة فى قصيدة "لعبد الجليل برادة"(١) ردع اليونانيين ردعا يذيب الصخر ، وأحيا موات الجهاد بعد دهر طويل من الخمول ، ولايبتغى به إلا حماية دين الله .

فقامَ أميرُ المؤمنين بردعِهم
بباسٍ شديدٍ لايقومُ له الصَّخرُ

مشيِّدُ أركانَ الخلافةِ فخرُها
عظيمُ بنى عثمان ياحبذا الفخرُ

لقد قامَ فى ذا العصرِ بالواجبِ الذى
هو الفرضُ من غزوٍ تباهى به العصرُ

فأحيا مواتاً للجهادِ تقادمت
عليه دهورٌ لايُشاد له ذِكرُ

وقامَ به فى الله للهِ يبتغى
مثوبتَهُ العظمى وحقَّ له الشكرُ (٢)

---

(١) عبد الجليل بن عبد السلام بن عبد الله بن عبد السلام براده ، ولد بالمدينة عام ١٢٤٠هـ/١٨٢٥م ، أصله من المغرب حيث هاجر جده إلى المدينة ، أتقن اللغتين الفارسية والتركية ، من طلائع النهضة الشعرية بالحجاز له ديوان شعر مخطوط ، توفى سنة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م بالمدينة .
انظر :حلية البشر ٢/ ، البيطار ، الشعر الحديث فى الحجاز ، عبد الرحيم أبو بكر .

(٢) حلية البشر فى تاريخ القرن الثالث عشر ٧٨٢/٢ ، ط/مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٦١م ، تأليف عبد الرزاق البيطار .

وفي شعر لعبد الله الباروني[1] يرى الخليفة قطب الرحى ، وبدر الدجى ، وكنز المعالي ، وحامي الحمى ، وجنة للدين إذا دهانا العدو .

قلتُ بل سرّني انتصارُ مليكٍ ... ذاك عبدُ الحميدِ قطبُ رحانا
هو بدرُ الدّجى وكنزُ المعالي ... هو سلطانُنا وحامي حمانا
هو للدينِ جنةٌ وشعارٌ ... هو غوثٌ إذا العدوُّ دهانا[2]

وهو شعر ركيك ، لايجذب النفس إليه ، ولايحرك فيها ساكنا ، ولايختلف عنه أحمد نامي[3] فيما يقوله :

عبدُ الحميدِ أميرُ المؤمنين وغا
زي المعتدين عليّ القدرِ والشان[4]

ويقول :

آلُ عثمان في الحروبِ ليوثٌ ... رضيَ اللّهُ عنهم أشبالا
رحماءُ على الرّعايا أشدّا ... ءُ يذيقونَ المعتدين وبالا
وبعبدِ الحميدِ صرْنا كراماً ... وبعبدِ الحميدِ نلنا الكمالا[5]

والذي يعنيه الباحث من هذه المدائح أنها أنشئت في ظل الحرب التي دارت بين الدولة وبين «اليونان» ، وأن الشعراء كانوا ينظرون للخليفة على أنه رمز الخلافة فتأييده تأييد لها ، والاعتزاز به إعزاز للدين ، وشحذ لعاطفة القتال في قلوب المحاربين .

---

(١) عبد الله بن يحيى الباروني ، ولد بطرابلس الغرب ، أحد علماء الأباضية بها ، والد سليمان الباروني الآتي ذكره في حرب طرابلس ، له بعض المؤلفات منها ديوان شعر ، توفي سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م .
انظر : الأعلام ٤/
(٢) ديوانه ص ٧٩ بدون تاريخ ولادار طبع .
(٣) لم أعثر على ترجمته .
(٤) ديوانه ص ٦ مطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣٢٠هـ .
(٥) نفسه ص ١١ .

أسباب هذه الحرب في منظور الشعراء :

يعتمد المؤرخون عادة في رؤيتهم للموضوعات والأحداث النظرة موضوعية ، أما الشاعر فحين يتجرد لرسالته الفنية فرؤيته تكون ذاتية ، لاتصلح وثيقة موضوعية لكنها مع ذلك ربما تعزز رؤية المؤرخ . قد تعكس الرؤية الفنية حقيقة واقعية لكنها في منظور الشاعر وحده .

ولذلك فلو وجدنا الشعراء هنا يتحدثون عن أسباب هذه الحرب ، فلايصح أن نناقشهم أو نحاكمهم كمؤرخين ، بل ننظر إلى طريقتهم الخاصة في تفسير الأحداث .

يقول «برادة» إن اليونانيين دبروا لهذه الحرب ، وأحكموا التدبير ، وأنهم عاثوا في الأرض فسادا ، وأن هذا الفساد عم جيرتهم .

هم دبَّروا أمراً لأمرٍ وفكَّروا
فعادَ عليهم ضلةً ذلك الفكرُ
فعاثُوا وجَاسُوا في البلادِ بجهلِهم
وعمَّ على جيرانِهم منهم الغدْرُ (١)

ويومئ «أحمد نامي» إلى من وراء اليونان من دول أوربا التي تغلي قلوبهم على الدولة ، سعيا لإحداث الفتن والقلاقل والانتقاض عليها ويقول :

فسعَى ساعٍ فتنةٍ وفسادٍ	بدهاءٍ يُحرِّك الأنذالا
وعلا في السماءِ منْهم ضجيجٌ	وبَنوا للجدالِ قيلاً وقالا
وأرادوا شراً بِنا وتَنادوْا	يطْلبونَ الإصلاحَ منا احْتيالا
وأثاروا اليونانَ حقداً علينا	فأقاموا للحربِ فيهم مَجالا

(١) حلية البشر ٧٨٢/٢ .

كلما نامت فتنة قاد أخرى فتنة بعد فتنة تتوالا

وهم إلى ذلك تعدوا على "كريت" واستولوا عليها ، مصممين على البقاء بها .

قد تعدّوا على كريد وطاشوا بمعاليك يطلبون النزالا
وعثوا فيها طالبين عراكا وبقوا فيها طالبين احتلالا (١)

ويتفق "ابن زكرى" مع "أحمد نامى" فى أن أسباب هذه الحرب هى دسائس الأوربيين ، وتحريض "اليونان" على الدولة لتنفض عنها نير التبعية .

برح الخفاء وحاق بالـ يونان كيدهم الكمين
مردوا على بث الدسايس بالجزيرة منذ حين

وينوه بالمتاعب التى تحيق بالدولة فى الداخل ، وكيف أن أعداءها اغتنموا هذه الفرصة فانقضوا بلاهوادة .

وتربصوا فرص الزمان وقلة الجيش المكين
فالبر شاغله العدى والبحر حاصره السفين
وهنالك امتدت يد الـ عدوى وكيد المجرمين
سفكوا دماء مالها ذنب سوى الإسلام دين
فمن السياسة ما ارتكب تم أم من الجهل المبين
ومن السفاهة والجفا قتل الحلائل والبنين (٢)

ويدرك الشعراء فيما يدركون بحسهم أن هذه الحرب امتداد للحروب الصليبية أو هى مقدمة لحرب صليبية لايعرفون مدى أخطارها ، وقد راجت آنئذ مقولة للسلطان "عبد الحميد" "ان أوربا تحاربنا حربا صليبية فى شكل سياسى" (٣) فيجعلون من هذا المعنى محورا لكثير من شعرهم . يقول "أحمد نامى" :

---

(١) ديوانه ص ١١-١٢ .
(٢) ديوانه ص ١٨٥ .
(٣) عن ديوان أحمد نامى ص ١٢ .

حرباً صليبيةً قاموا بها زمرا   بشكلٍ ضبٍ سياسي وبهتان

ويشير إلى مكائد «ايطاليا» و«انجلترا» وغيرهما من الدول الأوربية في التأليب على المسلمين ، وإعلان الحقد على الإسلام

وجاءهم وغدُ «ايطاليا» بشرذمةٍ   مجبوبةٍ خصيت في حرب حبشان (١)

ونخبةٍ من «بريطانيا» محنكةٍ   كذا «سمولنسكي» «مارشال» «سيدان» (٢) (٣)

وصف الجيش العثماني :

وحق للشعراء في خضم العاطفة الدينية المشبوبة أن يتصوروا الجنود العثمانية جنود الله ندبهم للدفاع عن دينه وأمدهم بملائكته .

يقول «أحمد نامي» :

عساكرٌ بينهم قامت ملائكةٌ   كرامةً لمليكٍ خيرِ سلطان (٤)

وهم ينصرون الله فحق لهم النصر كما يقول «ابن زكري» :

حقٌ على المولى وقد   نصروه نصرُ المؤمنين (٥)

ويقول عنهم «جعفر الحلي» :

أُرسلت من جندِ الإله عساكراً   يستعذبون من المنيةِ صابها (٦)

ويصف «أحمد شوقي» فخامة هذا الجيش وكثرته في عيون العدو :

ترى الخيلَ من كلِّ الجهاتِ تخيّلاً

فيأخذ منها وهمُها والتهيّبُ

---

(١) يشير بذلك إلى هزيمة ايطاليا أمام الحبشة .
(٢) بلجيكا حاليا .
(٣) ديوانه ص ١٢ .
(٤) نفسه ص ٧ .
(٥) ديوانه ص ١٨٥ .
(٦) ديوانه ص ٥٢ .

فمن خلفها طوراً وحيناً أمامها
وآونةً من كلِّ أوبٍ تألّب
فوارسُ في طولِ البلادِ وعرضِها
إذا غابَ منهم مِقْنَبٌ لاح مِقنبُ
فَمَهْمَاتَهم يسنحْ لها ذو مهنّدٍ
ويخرجْ لها من باطنِ الأرضِ مِحربُ
وتنزل عليها من سماءِ خيالِها
صواعقُ فيهنَّ الردى المُتصبِّبُ
رؤىً إن تكنْ حقاً يكنْ من ورائِها
ملائكةُ اللهِ الذي ليس يغلب (١)

فهم يحيطون بالأعداء من كل حدب ، وإذا غاب منهم مقنب لاح مقنب ، فيقعون فريسة الوهم والهيبة ، ويخالون أن صواعق من السماء تنزل عليهم ، فإن كان هذا الوهم حقا فهي إذن ملائكة الله تنصر بالرعب جيوش المسلمين .

ويلحظ الباحث أن هذا المعنى هو المعنى الذي أورده «أحمد نامي» "عساكر بينهم قامت ملائكة " لكن شتان بين الصورة الخيالية عند «شوقي» وبين المعنى التقريري عند «نامي» ، فعند «شوقي» خيل لليونانيين أن الخيل تخيل ، وأن الفوارس يملئون طول البلاد وعرضها ، وهذا الوهم من ورائه ملائكة الله .

ويتردد في شعر «شوقي» الذي قاله في ظل هذه الحرب مايشعرنا بضخامة الجيش وكثرته ، ولعل طبيعة المعركة بين الدولة و«اليونان» جعلت كلا منهما يحشد من جنده ما استطاع .

يقول في هذه القصيدة :

---

(١) ديوانه : الشوقيات ١/٥٣، ٥٤ .

مَلَكْتَ سَبِيلَهُمْ فَفِى الشَرقِ مَضْرِبٌ
لِجيشِكَ ممدودٌ وفى الغرب مَضْرَبُ

ثمانون ألفاً أُسْدُ غابٍ ضَراغِمٍ
لها مِخْلَبٌ فيهم وللموتِ مِخْلَبُ

فيالِقُ أفشى فى البلادِ من الضحى
وأبعدُ من شمسِ النهار وأقربُ (١)

ويستوقف الباحث هذه الصورة الجميلة فى قوله "أفشى فى البلاد من الضحى" فهى ذات إيحاءات متعددة الوجوه ، فالضحى يملأ الأرض نورا والشمس مانعة ، والضحى يملأ النفس إحساسا بعظمة هذا الجيش الذى يشبهه .

وينسب "أحمد محرم"(٢) الجيش العثمانى إلى "خالد بن الوليد" رضى الله عنه ، إيماء إلى قوته ، وملازمة النصر له .

كتائبُ من أقوامِنا خالديةٌ
وما الحربُ إلا خالدٌ وكتائِبُه

مَشَتْ تأخذُ الأعداءَ واللهُ قائمٌ
عليها ودينُ اللهِ يَعتزُّ غالبُه

أفى معقلِ الإسلام تطمعُ أمةٌ
تبيتُ مناياها حيارى تراقبه (٣)

والأمر شورى بين السلطان وبين قادة الجيش ، وهذه الشورى من دلائل قوته وظفره كما يقول "ابن فكرى" :

---

(١) السابق ٤٤/١ .
(٢) أحمد محرم بن حسن عبد الله ، تركى الأصل ، ولد سنة ١٢٨٨هـ/١٨٧١م ، تثقف ثقافة ذاتية ، عاش يتكسب بشعره من كبار المتحمسين للجامعة الإسلامية ، لم ينضم لأى تنظيم سياسى فى مصر ، عمل فى آخر حياته فى مكتبة دمنهور ، له ديوان شعر ضخم لم يطبع منه إلا السياسيات فى مجلدين ، إلى جانب "مجد الإسلام" ، توفى سنة ١٣٦٤هـ ١٩٤٥م .
انظر : مقدمة ديوانه ، الأعلام ج١ .
(٣) ديوانه : السياسيات ٣٨/١ .

لايستبـــدّ برأيـــه بلْ يستمدُّ ويَستعيـــن

وبسادةِ الجيشِ المظفَّـــــر يستعـدُّ ويستعيـــن

فترى جميعَ أمورهم . شورى تسرُّ المسلمين (١)

وهو يلبي دعوة السلطان بعزم وتصميم كما يقول «محرم» :

إذا لَمحتْ إيماءةً منه أجلبَتْ

على القومِ حتى يسأمَ الشرَّ جالبُه (٢)

أو كما يقول «أحمد نامي» :

لبّوا خليفتَهم للحربِ واتبعُوا جيشَ العِدى في سراديبِ وكثبان (٣)

أو كمـا يقـول «شوقي» : إنهم خفاف إلى الداعي ، لأن من طباع الشجعان التأهب الدائم :

خفافاً إلى الداعي سِراعاً كأنّما

من الحَرْبِ داعٍ للصلاةِ مثوِّبُ

ولـــم يتكلّفْ قومُك الأُسدُ أهبـــةً

ولكنَّ خُلقاً في السباعِ التأهبُ (٤)

وليسـوا أغرارا ، لكنهم مجربون ، وخبرتهم في فنون القتال هي التي تضمن لهم النصر كما يقول «محرم» :

تعلّمتِ الهيْجاءَ شتّى فُنونِها وتمّتْ لها من كلِّ فنٍّ عجائبُـه (٥)

وإذا كـان الجنود مجربين فمـا بالنـا بقـوادهم كما ينعتهم «أحمد شوقي» :

يقودُ سراياها ويحمي لواءَها

سديدُ المرائي في الحروبِ مُجرِّبُ (٦)

وهكـذا مـن خلال هذه الصور وأمثالها نشعر أن مهارة الجندي العثماني كأنه استقر في وجدان الشعراء .

---

(١) ديوانه ص ١٨٥ .
(٢) ديوانه : السياسيات ١/٣٨ .
(٣) ديوانه ص ٦ .
(٤) ديوانه : الشوقيات ١/٤٤،٤٨ .
(٥) ديوانه : السياسيات ١/٣٨ .
(٦) ديوانه : الشوقيات ١/٤٥ .

ويصف البكري[1] الجيش العثماني بأنه جيش كثيف ملأ الأرض والتوى في طرقها وسبلها كما تلتوي الغدران في مسالك الجبال ومشاعبها ، فكأن الحديد الأخضر قد رفعته جنوده وهي سائرة أمواج خضر يتدفق بها بحر .

رمَى الرُّومُ لمَّا أن عَتَوْا بكتيبةٍ
تَميلُ بأعْطافِ الوَشيجِ المُقَوَّمِ

أسالَ فِجاجَ الأرضِ بالجُندِ يلْتَوي
كأغدِرةِ الوديانِ في كلِّ مخْرِمِ

يموجُ بها الماذيُّ في رَونقِ الضُحَى
كما ماجَ لجٌّ بينَ أرْجاءِ عَيْلَمِ

بينما يصور جيش العدو بأنهم كالدبى في كثرتهم :

وزجّوا جموعاً كالدَّبي في عَديدِها
فألْقاهمُ في جَوفِ دَهْياءَ صَيلَمِ [2]

وصف المعارك :

كان للمعارك التي دارت رحاها بين الدولة العثمانية واليونانيين صدى واسع في أرجاء البلاد العربية والإسلامية ، ربما لضراوة هذه المعارك ، أو لأن توالي الخطوب على الدولة في الداخل والخارج أرهف المشاعر ، وزاد الناس بها حسا ووعيا ، يضاف إلى ذلك أن نهر الثقافة العامة زادت حركته

---

(١) محمد توفيق بن علي بن محمد البكري الصديقي ، ولد سنة ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م من كبار وجهاء عصره ، تولى نقابة الأشراف وزار بعض الدول الأوربية ، يجيد التركية والفرنسية والإنجليزية ، ساءت علاقته بالخديوي عباس وعاش بقية حياته موسوسا خوفا منه ، له عدد من المؤلفات منها مهاريج اللؤلؤ ، توفي سنة ١٣٥١هـ/١٩٣٢م .
الأعلام ٦/ ، مقدمة مهاريج اللؤلؤ .

(٢) مهاريج اللؤلؤ ص ٥٤-٥٥ ، ط/الهلال ، شرح أحمد أمين وأبو بكر محمد .

وجريانه بتضافر الدواعي والعوامل المختلفة ، وهذه الأسباب مجتمعة تساعدنا على فهم ظاهرتين يلحظهما الباحث في الشعر الذي خلفته هذه الحرب :

أولاهما : كثرة الشعراء الذين أسهموا في وصف معاركها .

ثانيهما : تطور شعرهم بعامة ، ووشك تخلصهم من المعاني السطحية ومن تداولها بينهم ، وظهور التفاوت بينهم في درجات الإجادة .

وصف عبد الجليل براده الهزائم التي حاقت بالمدن اليونانية لما باغتها أدهم باشا[1] قائد جيش الخليفة ، وأوقع بها كثيرا من القتل والتدمير والأسر فقال :

وأدهمُ بالدُّهم الجيادِ دهاهمو
فحاصُوا كحُمْرِ الوحْش صادفها نمر

وتَرْحالةٍ عنها ترحَّل جمعُهم
ودُكّدِكَ من أنحائِها السَّهلُ والوعرْ

وغصَّتْ غلوصُ بعد ذاك بريقِها
فما ساغ لولا أنَّ تداركها البحرُ

ولاريسَ في «لاريسَ» بعد انهزامِهم
رئيسٌ فهم فوضى كأنهم الحُمرُ

ودوميكةٌ تدعو أثينةَ جهدَها[2]
لتنجدَها هيهاتَ أشغلَها عذرُ[3]

---

(١) لم أعثر على ترجمته الا أن شوقي رثاه بقصيدة مطلعها :
مصاب بني الدنيا عظيم بأدهم
وأعظم منه حيرة الشعر في فم
الشوقيات ١٤٠/٣ .

(٢) الأماكن المذكورة مواقع يونانية ، ولم أتبين ذلك من خلال الخرائط التي بين يدي .

(٣) حلية البشر ٧٨٢/٢ .

فالشاعر اتخذ من الجناس وسيلة لتوليد المعاني والصور فجاء بعضها مقبولا وبقي الآخر مستكرها متكلفا .. فأدهم رماهم بالجياد الدهم ، و"ترحالة" ترحل عنها أهلها لما دكت أنحاؤها ، و"غلوص" غصت بريقها ... لكننا لانعدم بعض الصور الزاخرة بالحركة ، فحين باغتهم "أدهم" بخيله ورجله حاصوا كحمر الوحش صادفها نمر ، و"دوميكة" تستغيث "بأثينا" لنجدتها ، لكن هذه مشغولة عنها بنفسها .

ويذهب "محمد توفيق البكري" الشاعر الثائر مذهبا آخر يلائم أسلوبه الجزل الذي عرف به فيقول :

وجاءوا إلى "أحرَّى" كالنُّوطيسِ أقامَها
عليهم فكانت كالقضاءِ المحتَّمِ

يطيرُ قشاري الحديدِ بأفقِها
بحبلٍ وتينٍ أو بكفٍ ومعصمِ

كأن النِّصالَ البيضِ وسْطَ عَجاجها
شرارٌ تعالى في دُخانٍ مخيَّمِ

ولاشيءُ فيها غيرُ ضرْبٍ مفلِّقٍ
لهامٍ ورميٍ مثلُ تهطالِ مِرزَمِ

وطَعْنٍ درَّاكٍ يسبقُ الحسَّ للرَّدى
فليس وإن أفْنَى النُّفوسَ بمؤلمِ

أمالَ "بلاريسا" عروشَ عداته
وأشرفَ من فرسالةَ الأرض بالدم

كأنَّ الإكامَ الأُدْمَ لمَّا تصبغتْ
به أنْبتتْ نبتي شقيقٍ وعَنْدمِ

ويوم "فلسطينو" أقامَ نعيَّهم
بشعواءَ تَنْفي حِدَّةَ المُتغشْرِمِ

فأصلاهمُ خساراً فقوّم درّأهم
كما قوّم التثقيفُ معوجّ لهذم

فأمسوا حديثاً فى البلاد وعبرةً
وبادوا كطسْمٍ فى الأنام وجرهمِ (١)

فهى معارك عنيفة ضارية دمرت فيها المدن ، وصار أهلها حديثا فى البلاد ، وبادوا مثل «طسم وجرهم» . فلو أبصرت "جاواء" لرأيتها كالوطيس ، ولاريس، أمالت عروش أمرائها ، وشرقت أرض "فرسالة" بالدم الذى اصطبغت به آكامها فصار نباتها لحمرته كشقيق وعندم ، وصلى أهل "فلسطينو" بنار قوم درأهم .

كانت هذه المعارك المتلاحقة كقضاء محتم نزل على مدن يونان وأهلها ، لاترى فى آفاقها إلا قشارى الحديد يطير بالأكف والمعاصم ، وإلا النصال اللوامع تعلو وتهبط كشرر يتعالى فى دخان مخيم ، وتفلق الهام ، وتفصلها عن الأجساد .

وأول مايتبادر إلى القارئ هو غرام «البكرى» بالألفاظ الغريبة التى تدل على سعة معجمه ، وشدة عنايته بتتبع الغريب فى التراث القديم ، مثل : تهطال مرزم – حدة المتعشرم – معوج لهذم ، وهو جنوح مال إليه «البكرى» ونفر من معاصريه إحياء لما درس من ألفاظ اللغة فى عصور الضعف .

لكن شاعرية «البكرى» لم يذهب بها كلها غرامه بالغريب ، إنما بقيت له بعض المعانى اللطيفة التى حملتها ألفاظ مناسبة رقيقة كقوله :

وطعنٍ دراكٍ يسبق الحس للردى
فليس وإن أفنى النفوسَ بمؤلم

---

(١) مطاريح اللؤلؤ ص ٥٧-٥٩ .

فالطعنة النجلاء لايشعر بها المضروب إبان وقعها لمضائها ، ولأنها تفوق قدرة الحس بها .

ولذلك يرى الباحث ان شعر المعارك كان سببا لتأريث المشاعر وتجديدها كما كان مدرجا إلى انتشال لغة الشاعر وصوره من السطحية والسقم .

وكما كان "البكرى" مغرما بالجزالة ، واقتفاء الألفاظ والتراكيب القليلة الاستعمال فى اللغة الشعرية ، نجد شاعرا آخر يأنس فى وصف أهوال المعارك بالصور القرآنية فى وصف أهوال يوم القيامة .

فهذا "مصطفى زكرى" يصور بعض هذه المعارك فيقول :

مُلِئتْ جبالُ "ملونةٍ" ... بمدافعٍ ومُدافعين
فإليكمُ قللاً مُقدّ ... رةٍ لكم ومُقدّرين
لاتقبلُ التحريفَ عن ... جسمِ البُغاةِ الماردين
وترى سَحابَ دخانِها ... فى الجوِّ يَغْشى الناظرين
تنقضُّ منهُ صواعقٌ ... لمْ تَعَدْ رصْدَ المُعتدين

فالجنود العثمانيون يرمون عدوهم بقلل مقدرة تقديرا فلاتخطئهم ، يصّاعد دخانها فى الجو يغشى الناظرين .

جُنَّ الوليدُ بها فلا ... تعجبْ إذا سَقطَ الجنين
وركنْتُم بعْد التّظاهر ... للفِرارِ مرافقين
وجنودُكم أمْسَتْ بتر ... ناوةٍ حصيداً خامدين
والخيلُ سابحةٌ على ثَبجِ ... الجماجمِ هاجمين
فتركْتم الأسرى بأغـ ... لالِ الهوانِ مُصفدين
وجفوتمُ الأوطانَ رُعْـ ... ـباً وانقلبْتُم خاسرين
وكفى "بلارسيا" ... وفرسالة "وغولس" شاهدين (١)

---

(١) ديوانه ص ١٨٥-١٨٦ .

ففى الأبيات تراكيب مختلفة مقتبسة من معانى القرآن الكريم التى تبين أهوال يوم القيامة وآثارها "يوم تضع كل ذات حمل حملها" ويوم يصير الكفار مصفدين فى الأغلال سرابيلهم من قطران ، ويوم ينقلب الكفار المغرورون الطغاة إلى أهلهم خاسرين .

أما أحمد محرم فيمزج عاطفته الدينية ، وغيرته الشديدة على الإسلام والمسلمين بشاعريته القوية من خلال ماقاله عن هذه المعارك ، ومن إحدى قصائده عنها :

كتائبُ من أقوامنا خالديةٌ
وما الحربُ إلا خالدٌ وكتائبُه

مشت تأخذُ الأعداءَ واللهُ قائمٌ
عليها ودينُ اللهِ يعتزّ غالبه

إذا لمست حِصناً هوت شرفاتُه
وإنْ لمحت طَوْداً تداعَتْ مناكبُه

تعلَّمتِ الهيجاءَ شتّى فنونها
وتمّتْ لها من كلِّ فنٍّ عجائبُه

لها في أعاصيرِ القتالِ وقائعٌ
هي السّحرُ لولا أن يزيفَ كاذبه

ألمّت "بلاريسّا" فحلَّ رُبوعَها
عذابٌ إذا ما استصرخت لجَّ واصبه

تقلّبُ في فرسالة العينَ هل ترى
على اليأسِ فيها من سميعٍ تُخاطبه

تديران نجوى جارتينِ اعتراهما
على الضَّعفِ همٌّ يَصدعُ الصَّخرَ ناصبه

إذا صاحتا بالجيش تستنجدانِه
تنصّلَ موريهِ وأجفلَ هاربُه

ويصور جنودهم يلتمسون النجاة ، فيضربون فى الأرض وقد عميت مذاهبهم .

بكلِّ مكانٍ مُدبرٍ من فلولهم   تَضِلُّ مناحيهم وتعمى مذاهبه
يُجانبُ حرَّ البأسِ والأرضُ كلُّها   دمٌ وسعيرٌ مُطبقٌ مايُجانبُه

إلى ان ينهى قصيدته بحكمة مؤثرة فيقول :

ومَنْ يلتمسْ لحمَ الضواري له قرىً
فتلك مَقاريه وهذى مآدبُه (١)

ففى قوله "كتائب من أقوامنا" إشعار بانتمائه لهذه الكتائب الإسلامية المحاربة ، وتذكير بانتصار «خالد» سيف الله المسلول على عدوه ، وتلك الكتائب يقوم الله عليها ويحميها لأنها تنصر دينه .

وهذه الكتائب فخمة مدربة تعلمت من فنون الحرب أعاجيبها فلاغرو «إن لمست حصنا هوت شرفاته» ، وإن لمحت طودا تداعت مناكبه» ، ولها فى أعاصير القتال وقائع هى السحر» .

أما مازحفت إليه هذه الكتائب من مدن «يونان» فارتجفت من الضعف والخوف ، وأدارت النجوى بينها فيما تفعل ، واعتراها «هم يصدع الصخر واصبه» .

وتمتد أخبار هذه المعارك إلى العراق فيجيش وجدان «جعفر الحلى» بصور تترى من المبالغات التى توحى إلى السامع وإلى القارئ كأن جنود اليونانيين عصافير أو ذباب وهو خيال ساذج ، لايجذب القراء إليه بسبب مافيه من غلو شديد يحول دون التأثر به .

يقول عن الجنود العثمانيين :

---

(١) ديوانه : السياسيات ٣٩/١ .

دفعَتْ مدافعُها كأنَّ صواعقاً
صُبَّتْ على هام العدوِّ عذابُها
قلبُوا اليمينَ على الشِّمالِ وجدّلوا
أبطالَ شركٍ لاتُطيق حسابُها
حتّى جريْنَ من الدِّماءِ جداولٌ
خاضَتْ خيولُ المسلمين عُبابُها
فتصبَّغتْ تلك الخيولُ من الدِّما
والنَّقعُ غبّر نَجبها وعِرابها
فغدَتْ سواءً حُمرُها ووِرادُها
والشُّقرُ مذ صبغ النجيعُ إهابُها
وتحصَّنوا في قلعةٍ قد أُحكمت
أُسّاً وأعلاها يفوقُ سحابُها
وتخيَّلوا فيها النجاةَ وماَدَروا
أنَّ المنيةَ انشبت أنيابُها (١)

فالمدافع قلبت يمين جيش العدو على شماله ، حتى جرت دماؤهم جداول خاضت عبابها خيل المسلمين ، واصطبغت جلودها بحمرة قانية ، فصار لايعرف منها الأشقر من الأحمر ثم لاذ اليونانيون بقلعة لهم حصينة ، وهم لايدرون أن لافكاك من المنية التي أنشبت أنيابها فيهم .

والبحار هي التي لها عباب يخاض فيه وليست الجداول ، كما أن فساد التصور يأتي أيضا من أن الدماء تفيض سيلا حتى يصبغ جلود الخيل ، ويخفي ألوانها الحقيقية فهي مبالغة مرفوضة بأي مقياس . وفساد التصور يكون من ضحالة الثقافة ، ومن الخيال الفطير الذي لايستمد أصوله وعناصره من الواقع ،

---

(١) ديوانه ص ٥٣ .

بينما الخيال الناضج هو الذى يجعل غير الممكن كأنه ممكن ، ومن هنا تتحقق الإثارة والمتعة .

أما «أحمد نامى» فتخف عنده حدة هذه المبالغة ، ويسوق صوره بطريقة أدنى إلى القبول ، وإن خلت من قوة الشاعرية ، ومن الأداء المؤثر الجميل .

يقول «نامى» إن جنود «عبد الحميد» دكت حصون اليونانيين وأملتها بشوظ من نار ونحاس ، وكرات نارية ، وأينما ساروا يهرب عسكر اليونان من مواجهتهم ، فيتبعهم جنود السلطان إلى كل سرداب ، ووراء كل كثيب ، حتى امتلأت سهول "ماتى وفرسالا وربسان" برممهم .

ومع أن اليونانيين لايقاتلون إلا فى أماكن محصنة لجبنهم فهم إذا حمى الوطيس يشردون إلى البيداء ، عرايا جائعين ، دون أن ينجيهم الفرار من القتل أو الأسر .

فصبَّ حرباً عليهم بالدمارِ قضتْ
جزاءَ بغيٍ وبهتانٍ وعُدوانِ

ودكَّهم بشواظٍ صُبَّ من لهبٍ
ومن نُحاسٍ ومن كرّاتِ نيرانِ

وغمَّهم فشلٌ فى كلِّ معتركٍ
أمامَ أسْدِ الوغى أبطالُ خاقانِ

لبّوا خليفتَهم للحربِ واتبعوا
جيشَ العدا فى سراديبٍ وكثبانِ

يا أمةَ الرومِ هاقدْ صرتمُ رِمماً
فى سهلِ ماتى وفرسالا وربسانَ

فلاترى غيرَ أوغادٍ تُقاتلُ فى
قرىً محصنةٍ من خلفِ جدرانِ

ويشردون إلى البيداء من شبح
والجيش من خلفهم يرمي بإتقان
فالأرض من دمهم ماجت جوانبها
والبيض من نحرهم أغصان مرجان
كانوا وقوادهم عند اللقاء بهم
في الحرب مابين ولهان وسكران
إلى "دوموكو" توافيها ليعتصموا
لاعاصم اليوم من سيف ونيران
هاموا حيارى على أعقابهم هربا
بمنسر بين جوعان وعريان
ولي عهدهم المقدام فر بهم
فكان للجيش من أخيار أعوان (١)

وسط هذا الشعر الذي تعالت به أصوات الشعراء في أصقاع الوطن العربي يتسامى صوت "أحمد شوقي" معلنا أن الشعر العربي شرع ينهض من كبوته ، ويقال من عثراته التي لزمته حقبة طويلة ، في هذا الوقت برز "شوقي" إسلامي الروح ، عثماني الهوى ، فكانت قصائده التي يؤازر بها العثمانيين من أجمل الأصوات وأعذبها ، فدوت في الآفاق يقرؤها القاصي والداني ، ومن ذلك الحين يستطيع الباحث أن يقرر بطمأنينة أن الشعر الذي أسهم به "شوقي" في الدفاع عن قضية العثمانيين ذو أثر مزدوج ، بالنسبة للرأي العام العربي ، وبالنسبة للأداء الفني أيضا ، حيث فتح باب المنافسة والتجويد ، تمده قريحته الفنية الخصبة ، وثقافته الواسعة التي ألمت بعيون الشعر العربي .

---

(١) ديوانه ص ٧ .

ولشوقي في المعارك العثمانية اليونانية قصيدتان نختار منها البائية التي استهلها بقوله :

بسيفِك يعلو الحقُّ والحقُّ أغلَب　　ويُنصَرُ دينُ اللهِ أيّانَ تَضرِبُ

وفي هذه القصيدة حشد كبير من الصور الجميلة التي أضافت في زعم الباحث إلى شعر الحرب في تاريخ الشعر العربي، ومنها ما دار على المعركة البحرية التي نشبت بين الأسطولين ويقول فيها :

تَظَلُّ مَهولاتُ البوارجِ دونَهُ
حوائرَ مايدرين ماذا تخرِّبُ
إذا طاش بين الماءِ والصخرِ سهمُها
أتاها حديدٌ مايطيشُ وأسرب
يُسدِّدُه عزريلُ في زيِّ قاذفٍ
وأيدي المنايا والقضاءُ المدرَّب
قذائفُ تخشى مُهجَةُ الشمسِ كلَّما
عَلَتْ مُصْعِداتٍ أنها لاتُصوِّب
إذا صُبَّ حاميها على السفن انثنت
وغانمُها الناجي فكيف المخيَّب
سلِ الرومَ هل فيهنَّ للفلك حيلةٌ
وهل عاصمٌ منهنّ إلا التنكُّب
تذبذبَ أسطولاهُمُ فدعتهُما
إلى الرشدِ نارٌ ثمَّ لاتَتَذَبذب
فلا الشرقُ في أُسطوله مُتقى الحِمى
ولا الغربُ في أُسطوله مُتهيِّب (١)

(١) ديوانه : الشوقيات ١/٤٧-٤٨ .

فالبوارج العثمانية المهولة دون شاطىء اليونان حوائر لاتدري ماذا تترك وماذا تخرب ، لأن كل مرافىء الشاطىء هدف سهل لها ، يسدد سهامها التى لاتطيش عزرائيل وأيدى المنايا وقضاؤهم المحتوم ، وهى إذا صبت نيرانها الحامية على سفن العدو فغانمها من ينجو من هذه النيران ، أما من يعجز عن الفرار فهو لامحالة هالك ، ولاعاصم لها غير التنكب عن التصدى لاسطول العثمانيين .

وفى معركة مضيق "ملونا" يصف الشاعر هذا المضيق بأنه "كحلق الليث بل هو أصعب" ، أو هو كالصراط يوم القيامة ، يمر عليه الناس لاينجو من الهوي فى النار إلا من خلا من ذنوب تزل قدمه ، والروم كثيرة الذنوب ، والنار التى يقعون فيها بسيوف العثمانيين هى القتل والإبادة ، وفى هذا الإطار العام للمعركة يحشد شوقى كثيرا من الصور الجزئية المترابطة التى استمدها من واقع المكان ومن ثقافته الغزيرة ، ومن خياله الخصب الناضج الذى استلهم به أوصاف الصراط . يقول :

جبالُ "ملونا" لاتخوري وتجزعي
إذا مال رأسٌ أو تضعضع منكبُ
فما كنت إلا السيفَ والنارَ مركباً
وماكان يستعصى على الترك مركَب
عَلَوا فوق عليـاء العدوّ ودونه
مَضِيقٌ "كحلق الليث" أو هو أصعب
فكان صراط الحشر ، ماثَمّ ريبةٌ
وكانوا فريقَ الله ماثَمّ مُذنِب
يمرون مَرَّ البـرق تحت دُجُنّةٍ
دُخانا به أشباحُهم تتجلبب

حشيشين من فوق الجبال وتحتها
كما انهارَ طَودٌ أو كما انهالَ مِذنَبُ
تُمِدُّهُمُ قُذّافُهم ورُماتُهم
بنارٍ كنيران البراكين تدأب
تُذَرّى بها شُمَّ الذُّرا حين تعتلى
ويسفحُ منها السفحُ إذ تتصبب
تُسمَّرُ فى رأسِ القِلاع كُراتُها
ويسكُنُّ أعجازَ الحصونِ المُذَنَّب
فلما دجى دُجى العَنوانِ وأطبقت
تبلَّج والنصرَ الهلالُ المحجَّب
ورُدّت على أعقابها الرومُ بعدما
تناثر منها الجيش أَوْ كادَ يذهب
جناحين فى شِبه الشباكين من قنا
وقَلباً على حرِّ الوغى يَتقلَّب
على قُلَل الأجبالِ حَيْرَى جموعُهم
شواخصُ ما إن تهتدى أين تذهب
إذا صعدت فالسيفُ أبيضُ خاطِفٌ
وإن نزلتْ فالنارُ حمراءُ تَلهب
تطوّعَ أسراً منهمُ ذلك الذى
تَطوَّع حَرباً والزمانُ تَقلُّب
وتمَّ لنا النصرُ المبين على العِدَى
وفتحُ المعالى والنهارُ المذهَّب (١)

يتمنى الشاعر الا تجزع الجبال أو تخور من كثرة مايطاح بالرؤوس وتتضعضع المناكب فوقها ، ثم يومئ إيماءة ذكية

---

(١) السابق ١/٤٩-٥٠ .

لطيفة إلى وعورتها وأنها والسيف والنار كانت مركب الأتراك الذين لاتصدهم وعورتها، وأنهم علوا فوقها ، وجعلوا العدو من أسفلهم ، والمضيق بينهم ليتمكنوا من حصدهم .

ومن هذا الواقع استحضر شوقي صورة الصراط يوم القيامة وربط بينها وبين شكل المضيق من ناحية ، وبينها وبين من يعبرون عليه من ناحية أخرى ، ففريق الله وهم الأتراك ليس منهم مذنب ، ولهذا فهم بعناية الله وحفظه ناجون ، يمرون مر البرق تحت دجنة من دخان المدافع يتجلببون به كأنهم أشباح .

فهذه الحرب في تصور شوقي حرب دينية ، شنها عدو الإسلام عليه ، والأتراك هم الذائدون عن الدين وعن حماه ، ومن ثم كانت الصورة التي استحضرها الشاعر مناسبة .

ومما يلحظ الدارس على هذا المقطع أيضا ترابط الصور الجزئية التي اشتمل عليها ، فعلى الرغم من أن كل بيت مستقل بمعناه إلا أن التصور الكلي متجانس ، مما يمنح القارىء شعورا بوحدة التصور وهو من دواعي التأثير ، والإحساس بصدق الشاعر .

فالقنابل الغزيرة تبعث دخانا كثيفا يتجلبب به المحاربون ، ويجعلهم كالأشباح ويجعل النهار كالليل ، فلما أطبقت دجنة الحرب وبلغت مداها تبلجت عن النصر المحجب ، كما يتبلج ظلام الليل عن الهلال ، ثم ردت الروم على أعقابها مدحورة .

وعلى الرغم من جودة السبك ، واقتراب الصور من الواقع المحس ففيها مايستوقف الباحث ، لقول الشاعر "تذرّى بها شم الذرا حين تعتلى" ، فإن كان المراد أن القذافين والرماة تطلق نيرانا تعلو على شم الذرا كان الأصوب أن يقول "تذرى

بشم الذرا " أن تنقص من قدر علوها ، وهذا لايتفق مع السياق وان كان مراده أن شم الذرا تبدو هذه النيران العالية ، لانها تسامقها كان عليه أن يقول تذروها أى تبددها وتفرقها .

وأما "طرناو" فقد حل باليونانيين فيهاهزيمة ماحقة ، دحر فيها الجيش وتفرق أيدى "سبا" وترك حصونه وثكانته ، وتخلى القواد عن جنودهم ، وترامت أنباء الهزيمة إلى الشعب فعمته الفوضى وجعلوا يفرون أمام زحف العثمانيين المنتصرين لايحملون إلا ماخف حمله من متاعهم ، وبينما يعدو الفارون على متاع بعضهم بعضا يعف العثمانيون تأدبا بآداب دينهم ، وفى لحظات ذهول اليونانيين مما وقع بهم ، نجدهم يفرون مذعورين "يسير على أشلاء والده الفتى ، وينسى هناك المرضع الأم والأب" ، وأن فرارهم كان جماعيا إذ تمضى السرايا تطأ خيولها الأرامل والنوادب اللاتى فقدن ذويهن .

ومما يؤكد وقع الهزيمة على اليونانيين أن تجد الفارس منهم يركب فرسه لينجو بسرعة ، بينما ترك الرجال المسنين ، والنساء يمشون على أرجلهم .

وطرناوُ إذ طارَ الذهولُ بجيشها
وبالشّعب فوضى فى المذاهب يذهب

عشيةَ ضاقــت أرضُها وسماؤُها
وضاقَ فضاءٌ بين ذاك مُرَحّبُ

خَلَتْ من بنى الجيش الحصونُ وأقفرتْ
مساكنُ أهليها وعَمَّ التخرُّب

ونادى منادٍ للهزيمة فى المَلا
وإنّ مُنادى التُركِ يدنو ويقرب

فأعرضَ عن قُوّاده الجندُ شارداً
وعلّمهُ قُوّادُه كيف يهرب

وطارَ الاهالى نَافِرين إلى الفَلا
مئينَ وآلافاً تَهِيمُ وتسرُبُ
نَجَوا بالنفوس الذاهِلاتِ ومانَجَوا
بغير يَدٍ صِفر وأُخرى تقلب
وطالت يَدٌ للجمع فى الجمع بالخنا
وبالسلب لم يَمْدُدْ بها فيه أَجنَب
يسير على أشلاء والِده الفتى
ويَنسَى هناك المُرْضَعَ الأمُّ والأَب
وتمضى السرايا والطئات بخيلها
أرامل تبكى او ثواكلَ تندب
فمِن راجلٍ تَهوى السّنون برجله
ومن فارسٍ تمشى النساءُ ويَركب

ثم يلبس الهزيمة كل شىء حتى الديار والجبال جعلها تشعر بوقع الهزيمة ، ومن شدة خوف الجنود الفارين أنْ صورهم بقوله :

تكادُ خُطاهم تسبق البرقَ سرعةً
وتذهب بالأبصار أيَّان تذهب
تكادُ على ابصارِهم تقطعُ المدى
وتنفذُ مرماها البعيدَ وتحجب

ولاتكاد أرجلهم تمس الأرض ، ولو وجدوا سبيلا للطيران لفعلوا ، وعملهم ذلك من تلقاء أنفسهم ، إذ لاهازم يحثهم على الهرب ، ولاطارد يطردهم .

تلك صورة من صور الهزائم التى سطرها «شوقى» ، لأن النصر ملك كل قواه فصورها بعاطفته وخياله ، فأتت كلماته معبرة عما يكنه للعثمانيين من حب وولاء .

يكادون من ذُعْرٍ تفـرُّ ديارهـم
وتنجو الرواسى لوحَوَا هُنَّ مَشعبُ
يكاد الثّرى من تَحْتِهم يَلِجُ الثرى
ويَقفِم بعضُ الارضِ بعضَاً ويقفِب
تكادُ خُطاهم تسبق البرقَ سرعـةً
وتَذهب بالابصـار أيّان تذهـب
تكاد تمسُّ الارضَ مَسّـاً نِعالُهـم
ولو وجدوا سُبْلا إلىالجو نكّبوا
هزيمـة مـن لاهـازمٌ يستحِثّـه
ولاطاردٌ يدعو لـذاك ويُوجـب

ثم يتحدث عن الجيش المنتصر فى هذه المعركة بادئا حديثه بضمير الجمع لما يحمله من دلالة على الكثرة والعظمة متكلما باسم العثمانيين قائلا :

نحن قعدنا عن متابعة الجيش المنهزم ، ولكن الرعب الذي ملك افئدتهم كانه جيش آخر يغزوهم ويسلبهم .

وظفرنا بهم وجها لوجه مرة أخرى/ربما لأن الجيش العثمانى منتشر فى جميع الجهات فظنوا أننا نتعقبهم ، ويسأل الشاعر سؤال المفتخر الساخر من عدوه "وماذا يزيد الظافرين التعقب" ؟

وولوا هاربين ولكن هروبهم كان منظما ، ربما لأنهم كانوا يرتبون له مسبقا ، "ويا شؤم جيش للفرار يرتب" ، ويسوق القائد الرومى جيشه فى مواكب متتالية ، يسايرهم مماثل لهم من العار نتيجة ماحل بهم .

وتود أن لو انشقت الارض فغيبتهم من سوء ماجرى لهم .

ويجرد الشاعر من الرعب شيئا ماديا يغطيهم تارة وأخرى عقربا تلدغهم فلايذوقون طعما للراحة .

والجنود اليونانية المنهزمة ، تتخيل أن الخيل العثمانية آتية عليهم من كل الجهات فتارة يخالونها أمامهم وأخرى من خلفهم ، وثالثة من كل صوب ، وأنها من الضخامة بمكان ، لذلك يتأهبون للفرار مرة أخرى ، وأينما حاولوا ذلك يجدون ذا مهند واقفا بالمرصاد ، بل يرون الأرض تخرج من بطنها رجالا محاربين ، ويرون من السماء "صواعق فيهن الردى يتصبب" .

ويذيل الشاعر تلك الرؤى مبينا أن كان حقا مارأى اليونانيون فإنّ أولئك الجنود "ملائكة الله الذى ليس يغلب" وفى هذا تأكيد من الشاعر لهوية الجنود العثمانية أنهم جنود الله لذلك أمدهم بمدده .

قعدنا ... فلم يَعدم فتى الروم فَيْلَقاً
من الرعب يغزوه وآخرَ يسلُبُ

ظفِرْنا به وجهاً فظنَّ تعقُّباً
وماذا يزيدُ الظافرين التعقُّب

فولّى وماولّى نظامُ جنودِهِ
وياشؤْمَ جيشٍ للفرار يرتِّب

يسوق ويَحدو للنجاةِ كتائِباً
له موكب منها وللعار موْكب

منظمةٌ من حولِهِ بَيْدَ أنها
تودُّ لو انشقَّ الثرى فتُغَيَّب

مؤزرةٌ بالرُّعب ملدوغةٌ به
ففى كل ثوبٍ عقرب منه كَلْسِب

ترى الخيل من كلِّ الجهاتِ تَخَيُّلاً
فيأْخذ منها و همُها والتهيُّب

فمِن خلفِها طوراً وحيناً أمامها
وآونةً من كلِّ أوبٍ تألَّبُ

فوارسُ فى طولِ الجبالِ وعرضِها
إذا غابَ منهم مِقْنَبٌ لاح مِقْنَبُ

فمهما تَهِمْ يسنحْ لها ذو مُهنَّدٍ
ويخرجْ لها من باطن الأرض مِحْرَب

وتَنْزل عليها من سماء خيالِها
صواعقُ فيهنَّ الردى المُتَصبِّب

رؤًى إن تكن حقًّا يكن من ورائِها
ملائكةُ الله الذى ليس يُغلب (١)

وحين ينتقل شوقى إلى معركة "فرسالا" يتبادر إلى الذهن ان الشاعر لم يعرض لهذه المعارك جزافا .. لاشك أن هذه المعارك وقعت فعلا ، لكن الشاعر حاول أن يكشف بطريقة الفنان عن معنى ربما يغيب عن القارىء ، فمن خلال عرضه ندرك انه اختار مشهدا من معارك الجبال ، ومشهدا من معارك البحر ومشهدا أخيرا من معارك السهل وهو سهل "فرسالا" ليوحى إلينا أن الجنود العثمانيين مغاوير فى كل ميادين القتال ، لافرق لديهم بين الجبال والسهول والبحار .

ثم يعقب هذه المشاهد صورة المسلمة التى شاركت فى الجهاد ، وصورة الشيخ الطاعن الذى لم يتخلف عنه ــ كما سيأتى ــ .

فكان المعنى الذى ساقه سوقا فنيا فى هذه الملحمة القافية هو شجاعة الجنود العثمانيين ، والتقاء المسلمين على الجهاد فى سبيل الله لافرق بين شبابهم وشيبهم ونسائهم .

---

(١) السابق ١/٥٢-٥٤ .

ويقول في المقطع الذي وصف فيه تلاقي الجيشين في سهل "فرسالا" :

وفرسالُ إذ باتوا وبتنا أعادِياً
على السهل لُدّاً يرقبون ونرقبُ

وقام فتانا الليلَ يحمي لواءَه
وقامَ فتاهم ليلَه يتلعَّب

توسَّد هذا قائِمَ السيفِ يَتَّقي
وهذا على أحلامِه يتحسَّب

وهل يستوي القِرنان هذا مُنَعَّمٌ
غَريرٌ ، وهذا ذو تجاريبَ قُلَّب

حمينا كِلانا أرضَ فرسالَ والسما
فكلُّ سبيل بين ذلك مَعْطَبُ

ورُحنا يَهُبُّ الشر فينا وفيهمُ
وتَشْمُل أرواحُ القتال وتجنُب

كأنّا أُسودٌ رابضاتٌ كأنّهم
قطيعٌ بأقصى السهل حيران مُذْئِب

كأن خيام الجيش في السهل أينُق
نواشِزُ فوضى في دجى الليل شُزَّب

كأنّ السرايا ساكناتٍ موائجاً
قطائعُ تعطى الأمنَ طوراً وتُسْلَبُ

كأن القَنا دون الخيام نوازلا
جداولُ يُجريها الظلامُ ويسكب

كأن الدُّجى بحر إلى النجم صاعد
كأن السرايا موجهُ المتضرِّب

كأن المنايا فى ضمير ظلامِــه

همومٌ بها فاض الضمير المحجَّب (١)

وفى هذا المقطع يعلو شوقى على ذاته ، ويعرب عن الشعور العام للمسلمين آنذاك ، وهم يرون فى الجيش العثمانى جيشهم الذى يجاهد فى سبيل الإسلام ويحامى عن المسلمين ، ولهذا استخدم ضمير الجماعة المتكلمين "باتوا وبتنا ، على السهل لدايرقبون ونرقب ،ورحنا يهب الشر فينا وفيهم ـ كأنا أسود ..." ولايغفل هنا كما لم يغفل من قبل عن المعنى الذى يحاول دائما اقراره وتثبيته وهو أن العثمانيين شجعان ، مارسوا الحروب طويلا ، ولهم فيها تجارب بخلاف فتيان الروم فهم أغرار منعمون .

وبينا أن شوقى يختار لكل مقطع مايناسبه من التراكيب والصور ، فمعارك الجبل فيها الزلازل والبراكين ، وفيها المضايق والوعورة ، ومعارك البحر فيها التقاذف بكرات النار ، كالشهب وسط الدخان المتراكب ، نجد الصور هنا متناسبة مع السهل وطبيعة الحرب فيه .

فالجندى العثمانى قائم الليل بطوله يحمى لواءه بينما الجندى الرومى يلهو ويتلعب ، وكذلك التشبيهات مستمدة من طبيعة السهل فخيام الجيش فى السهل كأنها فى الليل أينق نواشز ، وكأن القنا من دون هذه الخيام جداول يسكبها الظلام ويجريها ، وكأن دجى الليل المطبق بحر صاعد إلى النجوم وسرايا الجيش موج هذا البحر .

فتناسب الصور مع طبيعة المعارك وميادينها يعنى أن الشعر شرع يتخلص من التراكيب المحفوظة ، والصور المقلدة ،

---

(١) السابق ٥٤/١ .

ومن وجه آخر يعني يقظة الحس وتميزه ، واستقلال الرؤى الفنية لدى الشاعر .

ثم يتابع الشاعر هذا اللقاء فيصف صهيل الخيل بأن مبشر بنصر العثمانيين ناع قتلى الروم ، وأنوفها الحرى من الوغى ، واصداء الأبواق تتجاوب في سكون الليل وتمزقه .

وهي كلها أوصاف ساكنة لأدوات القتال ، والجيشان في لحظة استرخائهما ليلا .

أما وصف القتال ذاته فأتى في بيتين اثنين يقول فيهما :

وثبْنا يضيق السهل عن وثباتنا
وتقدُمُنا نارٌ إلى الروم أوثَبُ

مشت في سراياهم فحلّت نظامَها
فلما مشيْنا أدبرتْ لاتُعقِّب

وعلى الرغم من التشبيهات الكثيرة التي حشدها الشاعر في هذا المقطع فهي وإن دلت على براعته وخصوبة خياله إلا أنها تشبيهات تعوزها الحركة التي تدل على عمق التجربة وصدقها .

كأنّ صهيلَ الخيلِ ناعٍ مبشرٌ
تراهنَّ فيها ضُحَّكاً وهي نُحَّب

كأنّ وجوه الخيلِ غُرَّاً وسيمةً
دَراريٌّ ليلٍ طُلَّعٌ فيه ثُقَّب

كأنّ أُنوفَ الخيل حَرَّى من الوغى
مجامرُ في الظلماء تهدا وتلهب

كأنّ صدورَ الخيل غُدْرٌ على الدُّجى
كان بقايا النضْح فيهن طُحْلُب

كأنّ سَنى الأبواق فى الليل برقُه
كأن صداها الرعدُ للبرق يصحبُ
كأنّ نداءَ الجيش من كل جانبٍ
دويٌّ رياح فى الدجى تتذأّب
كأنّ عيونَ الجيش من كل مذهب
من السهل جنٌّ جُوَّلٌ فيه جُوَّب
كأنّ الوغى نارٌ كأنّ جنودنا
مَجوسٌ إذا مايَمّموا النار قرّبوا
كأنّ الوغى نار كأن الرّدى قِرًى
كأنّ وراء النار حاتِمَ يَأْدِب
كأنّ الوغى نارٌ كأن بَنِى الوغى
فَراشٌ ، له فى ملمس النّارِ مأرَب
وثبنا يضيقُ السهلُ عن وثباتنا
وتقدُمُنا نارٌ إلى الروم أوْثَب
مشت فى سراياهم ، فحلّت نظامَها
فلما مشيْنا أدبرت لاتُعقّب (١)

وفى وصفه لحصن "دوموقو" ينعته بالمنعة ، ووعورة الوصول إليه كأنه عش نسر ، فوق جبل أشم ، واليونانيون من منعته فى مأمن من اقتحامه ، لأن أحدا لايستطيع اقتحامه ، لامن الجو ولامن الأرض ... لكن العثمانيين على الرغم من ذلك كله سموا إليه لم تمنعهم قنابل العدو وشهب المنايا والرصاص المصوب نحوهم ، فهجموا عليه غير هيابين ، وتزاحموا على اعتلائه ازدحام البيزان والعقبان على فريستها ومابرحوا حتى نزلوا بجميع بروجه والشمس لما تغرب .

---

(١) السابق ٥٥/١ .

وتناقل العالم خبر سقوطه ، وغالى المشارقة فى الإطراء على الأتراك ، وبالغ الغربيون فى ذكر شجاعتهم ، لما كانوا يعرفون من مناعة الحصن وصعوبة اقتحامه .

ويخلص شوقى من عرض الصورة المؤثرة لهذه المعركة الضارية إلى أن الإسلام ازداد بهذا النصر قوة ومنعة ، لأن المعركة فى سبيله ، وذيادا عن عزة أهله وحرماتهم .

رفعنا إلى النجم الرؤوس بنصركم
وكنَّا بحكمِ الحادثاتِ نصوِّب

ومن كان منسوباً إلى دولةِ القنا
فليس إلى شيءٍ سوى العِزِّ يُنْسَب

وهذا التلخيص الذى سقته تقريب لايغنى عن أبيات المقطع ذاتها لما تضمنته من صور دقيقة جميلة تفصح عن مقدرة الشاعر ، وجمال الأداء ، وقوة التأثير ، حتى لكأنَّ المعركة استحالت من خلال الألفاظ والتراكيب إلى مشاهد حية ، مما يؤكد قوة التصور لدى الشاعر .

ومن أبيات هذا المقطع :

وحصنٍ تسامى من "دوموقو" كأنّه
مُعَشِّش نسرٍ او بهذا يلقَّبُ

أشمُّ على طَوْدٍ أشمَّ كلاهما
مَنون المُفاجى والحِمامُ المرحِّب

تكادُ تقاد الغاديات لربِّه
فَيُزْجِى وتَنْزَمُّ الرياحُ فيركب

حمَته ليوثٌ من حديدٍ تركَّزت
على عَجَل واستجمعتْ تترقب

تثور وتستأنى وتنأى وتَدَّنى
وتغدو بما تغدى وترمى وتنشب

تأبَّى فظنَّ العالمون استحالةً
وأعيا على أوهامهم فتريَّبوا

فما في القوى أن السموات تُرتقى
بجيشٍ وأنّ النجم يُغشى فيُغْصَب

سموتم إليه ، والقنابلُ دونه
وشهبُ المنايا والرصاص المُصَوَّب

فكنتم يواقيتَ الحروبِ كرامةً
على النار أو أنتم أشدُّ وأصلَب

صعدتم وما غيرُ القنا ثَمّ مَصعدٌ
ولا سُلّمٌ إلا الحديدُ ، المذرب

كما ازدحمتْ بيزان جوٍّ بمَوْرِدٍ
أو ارتفعت تلْقَى الفريسةَ أعقُب

فما زلتُمُ حتى نزلتم بُروجَه
ولم تحتضرْ شمس النهار فتغرُب

هنالك غالى في الأماديح مَشرقٌ
وبالغ فيكم آلَ عثمان مَغرِب

وزيدَ حمى الإسلام عزّا ومَنْعةً
ورُدَّ جِماحُ العصر فالعصر هَيَّب (١)

ومما يميز هذه القصيدة عن غيرها من شعر الجهاد آنئذ اشتمالها على صورتين يتم بهما التصور الكلي للمعارك التي خاضها جيش الخلافة ، ومدى مابلغته حمية الشيوخ والنساء دفاعا عن حرمة وطن المسلمين .

الأولى صورة زينب الفتاة المسلمة التي تظاهر الجنود وتخوض المعارك معهم .

(١) السابق ١/٥٥-٥٦ .

الصورة الثانية : صورة العجوز الطاعن الذى مارس الجهاد عمره ، ولم يفارق فرسه وضحى بنفسه فى سبيل الله .

والصورتان توحيان بأن الجهاد صار قضية المسلم والمسلمة والشاب والشيخ على سواء فى ذلك الظرف الذى مر به المسلمون .

وأبدأ بالصورة الأولى :

حيث نلقى الشاعر يتحدث عن دور المرأة ممثلة فى فتاة تركية هى زينب التى ورد اسمها فى النص ، فيقول : إن زينب حدثتنى واصفة جيوش العثمانيين وبسالتهم ، مفاخرة معتزة بهم ولاعجب فى ذلك :

وزينبُ إن تاهت وإن هى فاخرت فما قومُها إلا العشيرُ المحبَّب

ويؤكد العلاقة بينه وبين تلك الفتاة ويحددها فى أمرين :

(أ) أن ايلام الحوادث يؤلف بينهم ، فالقوى العالمية كلها تتآمر على البلاد الاسلامية .

(ب) ويجمعنا فى الله دين ومذهب ، وفى هذا رد على من زعم أن شوقيا إنما مدح الاتراك وأشاد بهم فى حروبهم لوجود الرابطة الجنسية بينهم (١) .

ولذلك نما الود بين شوقى وتلك الفتاة على الرغم من بعد الشقة ولكن "مافى سبيل الوصل مايتصعب" .

تُحدِّثنى من قومِها الترك زَينبُ وتُعْجِمُ فى وصف الليوثِ وتُعرِبُ
وتُكْثِرُ ذكرَ الباسلين وتنْثنِى بعزٍّ على عزِّ الجمال ، وتُعجب
وتسحبُ ذيلَ الكبرِيَاءِ وهكذا يَتيهُ ويختالُ القويُّ المغلَّب
وزينبُ إن تاهت وإن هى فاخرتْ فما قومُها إلا العشيرُ المُحبَّب

---

(١) انظر : ص ١٤ من مقدمة الديوان .

يُؤلِّف إيلامُ الحوادثِ بيننا
ويجمعُنا في الله دينٌ ومذهبُ

نما الوُدُّ حتى مَهَّد السبْلَ للهوى
فما في سبيل الوصل مايُتصَعَّبُ (١)

ثم يسدل الستار على تلك الفتاة ليعود إليها بعد ثلاثين بيتا ، فيتحدث عن دور المرأة في الحرب .

وهذا المقطع كأنه جزء قائم بذاته إذ نلاحظ التصريع في بدايته ، ولاشك أن هذا العمل يجذب الانتباه خاصة بعد طول القصيدة ، ويعطي كثافة موسيقية مؤثرة .

ويبدأه بقوله : إنه في غمرة ضجيج المعركة راعه رؤية الراية العثمانية الحمراء في وسط المعركة تحميها أنثى مخضوبة البنان ، ويتساءل موجها الاستفهام إلى تلك المرأة "من الحامي" ؟ ، "أليث غضنفر من الترك ..." ؟ ويورد خمسة احتمالات لمن يكون حامل الراية محشودة في بيتين :

فما راعني إلا لِواءٌ مُخَضَّبٌ هنالك يَحميه بنانٌ مُخضَّبُ
فقلتُ مَن الحامِي أَلَيثٌ غضنفرٌ من التُرك ضارٍ أم غزالٌ مُربَّبُ

أَم الملكُ الغازي المجاهدُ قدْ بَدا
أَم النجمُ في الآرام أم أنت زَينبُ

ولاشك أن هذه الحيرة إنما هي تعبير عن الدهشة لما أبدته تلك الفتاة من بطولات كما صورها «شوقي» .

ولما كان زمن هذه القصيدة موافقا زمن الدعوة إلى مايسمى بتحرير المرأة المسلمة التي ترددت أصداؤها في «مصر» فقد وجدنا الشاعر يسوق رأيه في المرأة المسلمة كما يريدها الإسلام ، وذلك من خلال حواره مع الفتاة :

---

(١) ديوانه : الشوقيات ١/٤٥-٤٦ .

رفعت بنات الترك قالت : وهل بنا
بنات الغوارى أن نصول تعجُّبُ

إذا ما الديارُ استصرخت بدرتْ لها
كرائمُ منا بالقنا تتنقّب

تقرِّبُ ربّاتُ البعول بعولَها
فإن لم يكن بعلٌ فنفساً تُقرِّب

ثم يعقب بما يشبه البرهان العملى على صدق الفتاة ، وأنها على ماوصفت نفسها شجاعة وإقداما فى نحو تسعة أبيات يقول فيها :

ولاحتْ بآفاق العدُوِّ سَرِيَّةٌ
فوارسُ تبدُو تارةً وتَحجُبُ

نواهضُ فى حَزْنٍ كما تنهضُ القطا
رواكِضُ فى سَهل كما انساب ثعلب

قليلون من بُعْدٍ كثيرون إن دنوا
لهم سَكَنٌ آناً وآناً تَعيُّب

صورة بالغة الدقة لتحركات السرايا فى الحروب ، وهى مقبلة على الاشتباك مع السرايا التى تواجهها فى الطرف الآخر ، وتمهيد لتنبه الفتاة الشاعر إلى أن الالتحام مع العدو وشيك :

فقالت شهدتَ الحرب أَو أَنت مُوشِك
فَصِفْنَا وأَنتَ الباسلُ المتأَدِّبُ

ونادتْ فلبى الخيلُ من كلِّ جانبٍ
ولبَّى عليها القَسْوَرُ المترقِّب

خِفافا إلى الداعى سِراعاً كأَنما
من الحرب داعٍ للصلاةِ مُثَوِّب

مُنيفين من حول اللواء ، كأنّهم
له معقِلٌ فوق المعاقل أغلبُ
وماهى إلا دعوةٌ وإجابَةٌ
أن التحمت والحربُ بَكْرٌ وتَغْلِب

والأبيات تشع حركة وجمالا ، وقوله : "كأنما من الحرب داع للصلاة مثوب" لبيان أن داعى الصلاة وداعى الجهاد واحد ، فكما أنه يتوجب على المسلم إجابة منادى الصلاة ، فكذلك يتوجب عليه النفرة للجهاد إن دهم العدو أرض المسلمين .

وانجلت المعركة عن نصر ساحق حققته زينب وفرقتها ، وامتلأ قلب الشاعر فخرا وإعجابا بها :

فجئتُ فتاةَ التركِ أَجزى دِفاعَها
عن المُلكِ والأوطانِ والحقُّ أُوجِبُ
فَقَبَّلتُ كفّاً كان بالسّيفِ ضارباً
وقبّلتُ سيفاً كان بالكفِّ يضرب
فقلت أفى الدنيا لقومِكِ غالبٌ
وفى مثل هذا الحِجْر رُبُّوا وهُذِّبُوا (١)

أما الثانية فصورة شيخ طاعن يخوض غمرات الحرب على فرسه لم تقعده شيخوخته عن الاشتراك فى الجهاد ، فتطوع للدفاع عن دينه وقومه ، كما تطوعت زينب .

وإبرازا لجلال المعنى فى هذه الصورة نجد الشاعر يظهر جوانب الضعف فى الشيخ ، فيقول : إنه أشمط أشيب ، يسير به فرس على شاكلته أشمط ، وهذه الموافقة دلالة على طول التجربة للفارس وفرسه معا فهما "رفيقا ذهاب فى الحروب وجيئة " ، ولاعجب من اصطحابهما "فالحر للحر يصحب" ، وإذا

---

(١) السابق ١/٤٨-٥٠ .

ماشهدا الحرب تجدهما يعيدان أيام الصبا ومافيها من القوة والنشاط ، وشبههما بمن عمره "ثمانون يطرب" ، إظهارا لشدة الطرب التى عرتهما ، فذو الثمانين يظهر من النشوة والطرب مالايظهر غيره، وإن كان وهن الشيخوخة يقعده عما سوى ذلك ، حمية ورغبة عارمة فى الحرب، لكن ضعف البدن فيهما يقعدهما عن المحاولة وعن الكر والفر .

ويصور "شوقى" حركة الفارس وفرسه وقوتهما ، فيهتز وينثنى الفارس كالحسام فى مضائه وحدته ، وينفر الفرس ويلعب كالغزال ، وهذا تشبيه فى غاية الدقة ، لأن الشاعر استطاع بمهارة الموهوب أن يصف الحركة النفسية والظاهرية من خلال الألفاظ والتراكيب ، ثم يظهر من يدعو الشيخ إلى الترجل لعجز الفرس ووهنه لينجو ، فيأبى لأن وفاءه للجواد ، وتلازمهما عمرا طويلا يمنعانه أن يتركه فى هذه اللحظة فليس هذا من الوفاء الذى جبل عليه .

أَيحملنِي عُمْرا ويحمى شبيبتى وَآخذُلُه فى وهْنِه وأُخيِّبُ

ويدلل على حبه لهذا الفرس وامتزاجهما ببعض كأنهما نفس واحدة أن يرجو مَنْ حوله قائلا :

إذا نحن متْنا فادفنونا ببقعةٍ يظلُّ بذكرانا ثراها يُطيَّبُ

ثم يقرر أمرا هدته إليه التجربة الطويلة مع فرسه فيقول : لاتعجبوا من شجاعة ذلك الفرس فالخيول مثل الناس متيقنة أن مصيرها الموت يوما ما ، لذلك تبدى من ضروب الشجاعة فى المعركة .

ثم يختم الشاعر هذا المقطع ليفاجىء القارىء بنهاية ذلك البطل وفرسه فيقول :

فماتا أَمامَ اللهِ موتَ بسالةٍ

كأنّهما فيه مِثالٌ منصَّبُ

وَأشمَطَ سَوّاسِ الفوارسِ أشْيبُ
يسيرُ به في الشّعب أشْمَطُ أشيبُ
رَفيقا ذهابٍ في الحروب وجَيئَةٍ
قد اصطحبا والحُرُّ للحُرِّ يصحَب
إذا شهداها جددا هِزَّة الصِّبا
كما يتصابَى ذو ثمانينَ يطرب
فيهتزُّ هذا كالحسام ، وينثنى
وينفر هذا كالغزال ، ويلعب
توالى رصاصُ المُطلِقين عليهما
يُخَضِّل من شيبيهما ويُخضِّب
فقيل أنِلْ أقدامَكَ الارضَ إنّها
أبرُّ جواداً إن فعلتَ وأنجبُ
فقال أيرضى واهبُ النصر أنّنا
نموتُ كموتِ الغانياتِ ونعطَب
ذروني وشأني والوغى لامبالياً
إلى الموت أمشي أم إلى المَوْتِ أركب
أيحملني عُمْرا ويحمي شبيبتي
وأخذُلُه في وهْنِهِ وأُخَيِّب
إذا نحن متنا فادفنونا ببُقعة
يظلُّ بذكرانا ثراها يُطيَّب
ولاتعجبوا أن تبسلَ الخيلُ إنّها
لها مثلُ ماللناس في الموت مَشرب
فماتا أمامَ اللهِ موتَ بسالةٍ
كأنّهما فيه مِثالٌ منصَّب

واللوحتان اللتان عرضهما الشاعر في هذين المقطعين يبدوان للوهلة الاولى كأن كلا منهما نظمت على حده ، على

الرغم من اشتراكهما في الوزن والقافية ، لكن بقدر من الروية والمراجعة يدرك الباحث أن هذين الموقفين يتممان التصور الكلي لمعركة الجهاد ، فالشاعر لم يكتف بوصف ميادين القتال ومادار فيها حتى أوحى إلينا من خلال هاتين اللوحتين أن الجهاد هو قضية كل المسلمين شبابهم وشيوخهم ونسائهم .

من هذه الزاوية أميل إلى تسمية هذه المطولة بملحمة الحرب مع اليونان ، لهذا الذى نوهت به ، ولأن أبياتها تناهز سبعين ومائتي بيت .

هجاء العدو والاستخفاف به :

ليس الهجاء ظاهرة اجتماعية جديدة في الشعر ، لكن الجديد هو غلبة الاتجاه إلى هجاء الجماعات والشعوب بعد غلبة الاتجاه إلى هجاء الأفراد . ففي الشعر العربي القديم كثير من المدائح المشتملة على مناقب الممدوح كما تصورها الشاعر ، وكثير من الأهاجي المشتملة على مثالب المهجو ومقابحه كما تصورها الشاعر أيضا ، لكن شعر المديح قد يداخله شيء من زيف المشاعر نحو الممدوح بينما شعر الهجاء قلما يحدث فيه ذلك ، لصدوره عادة عن انفعال الكره ، وهو انفعال لايحتمل مواربة ولامداجاة كغيره من الانفعالات التي تحدث في المواقف والملابسات المختلفة . وكل مايمكن أن يطرأ عليه هو امتزاجه بغيره من الانفعالات - أكثر من سواه - كالهزء والاستخفاف والسخرية وماإليها . ولهذا يكون الهجاء مظنة التجويد الفني بسبب هذا الانفعال المركب إذا صادف شاعرا موهوبا قادرا "كابن الرومي" مثلا .

والهجاء بطبيعته سلاح يدرأ به الإنسان عن نفسه - شاعرا كان أو غير شاعر - فله وظيفة حيوية فى دحض الخصم أو مقاومته ، عرفناه فى الشعر الجاهلى ، وعرفناه فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم حين أغرى شعراء الدعوة الإسلامية بشعراء المشركين الذين ناصبوا الدعوة الإسلامية العداء ، وعرفناه فى عصور الأدب بعد ذلك . لكن الهجاء فى الشعر القديم كان يغلب عليه الطابع الشخصى ، والاتجاه إلى الصفات الحسية ، والإقذاع فى الهجاء فى بعض الأحوال .

ومن ثم يرى الباحث أن الهجاء فى شعر الحرب يكون ظاهرة ، أو على الأقل يتسم بسمات خاصة فى هذه الحقبة . ومما وجدته مانعت به «عبد الجليل برادة» اليونانيين بنعوت الجهل والغدر والجنوح إلى التخريب :

فَعَاثُوا وجاسُوا فى الديارِ بجهْلِهم
وعمَّ على جيرانِهم منهمُ الغدْرُ (١)

ويؤكد «أحمد نامى» صفة الغدر فيهم :

منهم خذوا حِذرَكم فالغدرُ شيمتُهم
سلماً وحرباً كما فى آيِ قُرآنِ (٢)

ويقول أيضا :

واستحبُّوا العمى على الرّشدِ جَهْلاً
فتراهم لايُحْسِنــون ســؤالا (٣)

وهم سفهاء جفاة الطبع أقْدَام ، ومن سفاهتهم أنهم يقتلون حلائلهم وبنيهم :

سفهاءُ لايحفظونَ عهوداً   كلّما لنّا جاذبونا الحبالا (٤)

---

(١) حلية البشر ٢/٧٨٢ .
(٢) ديوانه ص ٦ .
(٣) نفسه ص ١٢ .
(٤) نفسه ص ١٢ .

وإلى ذلك هم أيضا لصوص مجرمون بغاة ، كما يقول «أحمد نامي» :

طوراً لصوصاً وطوراً يسفكون دماً
ظلّوا زماناً بأشكالٍ وألوانِ
مَنْ بغيهم فى بسيط الأرض قاطبةً
قد ضجّت الأرض من قاصٍ ومن دانِ (١)

ويراهم «مصطفى ذكرى» أهل نفاق وكيد وخيانة :

بُرج الخفاءُ ، وحاقَ بالـ ... ـيونان كيدُهمُ المتين
مَرَدُوا على بثّ الدسا ... ئس بالجزيرة منذُ حين
وخطيبُهم وولـيُّ عهـ ... ـدِهم رئيسُ الثائرين
بَذَرَ النِّفاقَ وفا ... قَ فى إنفاقِه للغافلين (٢)

وهم أوغاد عند «أحمد نامي» :

فلا تَرى غيرَ أوغادٍ تقاتلُ فى ... قرىً مُحصنةٍ من خلفِ جدرانِ (٣)

وطائشون ليسوا برجال حرب كما يراهم «شوقى» :

لقد فنيتْ أرزاقهم ورجالُهم ... وليس بفانٍ طيشُهم والتقلّبُ
وهل يستوى القرنان هذا منعّمٌ ... غريرٌ وهذا ذو تجاريبَ قُلّبُ (٤)

ويقول عنهم «البكرى» :

أمدَّ لهم فى الحِلم باعاً رحيبةً ... فزادوا طِماحاً فى عتوٍّ وملأمِ (٥)

وهم صم بكم مجانين عند «أحمد نامي» :

وتراموا صماً وبكماً وعمياً ... وجنوناً ليأخذونا اغتيالا (٦)

وجمعوا السكر والجنون عند «محرم» :

---

(١) السابق ص ٧ .
(٢) ديوانه ص ١٨٦ .
(٣) ديوانه ص ٧ .
(٤) ديوانه : الشوقيات ١/٥٤-٥٨ .
(٥) مصاريع اللؤلؤ ص ٥٥ .
(٦) ديوانه ص ١٢ .

هُمْ أُطعِمُوا الموتَ الزُّؤامَ وعُلِّموا
جُنونَ السُّكارى ماتكونُ عواقِبُه (١)

وانهم جبناء لفرارهم من المعركة كما يرى «عبد الجليل براده» :

سمعْنا بأنَّ الجبنَ فيهم سجيةٌ
ولمَّا التقينا صدَّق الخَبرَ الخُبْرُ

وماوَقفوا في ماقطِ الحرب لحظةً
ولاثَبَتوا كلّا ولكنَّهم فرُّوا (٢)

ويبين شوقي هروبهم من المعركة ويذكر أنهم تعلموا ذلك من قوادهم الكبار ، ويؤكد فرارهم وهلعهم :

فأعْرَضَ عن قوّادِه الجندُشارداً وعلّمهُ قوادُه كيفَ يَهْرُبُ
يكادون من ذُعْرٍ تَفِرُّ ديارُهم وتنْجو الرواسي لوحوا هنَّ مشعب (٣)

ويشبههم «ابن زكرى» بالأرانب في ذلّها وخوفها :

حتى توهمتِ الأرا نبُ أنَّها أسْدُ العرين (٤)

وهذا كله من باب السباب ، قد يؤلم المهجو ، وقد يستخف به ويعرض عنه ، أما عندما يكون في معرض السخر والاستهزاء فربما يكون انكى واشد إيلاما لأن الازدراء فيه معنى الكره وزيادة ، لأن من يكره قد يعرض عن كرهه أما من يزدري فقلما يزول ازدراؤه ، لاسيما إذا اتيح هذا اللون لشاعر فنان مثل «أحمد شوقي» الذي سخر من اليونانيين في قوله :

فياقومُ أين الجيشُ فيما زعمْتمُ
وأينَ الجواري والدِّفاع المركَّبُ

---

(١) ديوانه : السياسيات ٣٩/١ .
(٢) حلية البشر ٧٨٢/٢ .
(٣) ديوانه : الشوقيات ٥٢/١، ٥٣ .
(٤) ديوانه ص ١٨٦ .

وأين أميرُ البأسِ والعزمِ والحِجى
وأين رجاءٌ فى الأميرِ مُخيِّب

وأينَ تُخومٌ تستبيحون دُوسَها
وأين عصاباتٌ لكم تتوثّب

وأين الذى قالت لنا الصحْفُ عنكمُ
وأسندَ أهلُوها إليكم فأطنبوا

أهذا هو الذَّودُ الذى تدّعونَه
ونصرُ «كريدٍ» والسولا والتحبُّب (١)

ويستوقفنى قول «شوقى» :

وأيْن الذى قالتْ لنا الصحْفُ عنْكم
وأسْندَ أهْلُوها إليكم وأطْنبوا

إنها الصحف الأجنبية التى كانت ظهير اليونان ، تمجد بأسهم ، وتضخم من قوتهم فى تعبئة إعلامية حاشدة تهوينا لشأن الأتراك ، ودحضا لروحهم فى الجهاد ، ولاشك أن تكرار الاستفهام فى الأبيات السابقة يحمل معنى الاستهزاء والسخرية من القوة التى كان يدعيها اليونان ويتبجح بها أميرهم ، فقد كشفت المعارك عن أن مزاعم الصحف الأوربية من قوة اليونان كانت افتراء ، ومحض اختلاق . فلاجيشهم من القوة وحسن الاستعداد والبلاء فى الحرب بما كانوا يطنبون ، ولاأميرهم استطاع إنقاذه مما حاق به ، ولاالعصابات التى كانوا يتوعدون بها صار لها أثر .

وفى ختام هذا المقطع يتابع «شوقى» استخفافه وسخريته من اليونانيين ومن غدرهم وجفاوتهم وعدم احترامهم لحقوق الجار

---

(١) ديوانه : الشوقيات ص ٥٧ .

مما يؤكد عليه المسلمون ويرعونه ولايفرطون فيه ، إلا إذا اعتدى عليهم .

يقول شوقي :

أَهذا الذى للمُلكِ والعِرضِ عندكم
ولِلجارِ إن أعيا على الجارِ مَطلب

أَهذا سلاحُ الفتحِ والنصرِ والعُلا
أَهذا مَطايا مَنْ إلى المجدِ يَركب

أَهذا الذى للذكرِ خلّب معشرٌ
على ذكرهم يأتى الزمانُ ويَذهب

أَسأتم وكانَ السّوءُ منكمْ إليكم
إلى خيرِ جارٍ عنده الخيرُ يُطلَبُ

إلى ذى انتقامٍ لاينامُ غريمُه
ولو أنه شخصُ المنام المحجَّب

شَقيتمْ بها من حيلةٍ مستحيلةٍ
وأين من المُحتال عنقاءُ مُغرِب

فلولا سيوفُ الترك جرَّب غيرُكم
ولكنْ من الأشياءِ مالايُجرَّب (١)

فهذه كلها مثالب لم يعرفها شوقى بطريقة تقريرية مباشرة ، لكنه ساقها مساق التعريض بهم ، والسخرية مما يدعون لأنفسهم ، وفى الوقت ذاته هجاهم بما يعيبه الإسلام فى الإنسان من رذائل .

---

(١) السابق ص ٥٧ .

نشوة النصر :

وكما اتجه شعراء المسلمين إلى ازدراء عدوهم ، والتنديد به ، والسخرية منه ومما يدعيه لنفسه من قوة وغلبة فقد اتجهوا إلى إظهار فرحهم بنصرهم عليه ، ويصور «أحمد محرم» وقع هزيمة اليونانيين ، فيقول :

مآتمُ أمسى الملكُ مما تتابعتْ   وأعراسُه ماتنقضي ومواكبُه
تبيتُ مُنيفاتُ المآذنِ هُتّفاً   بأنبائه والبغي ينعقُ ناعبُه (١)

فالمآتم مآتم اليونانيين مما حاق بهم ، ومواكب الأعراس هي مواكب الخلافة ودولتها ، وحسن هذا الرمز الذي رمز به الشاعر لاستمرار الأعراس ، فالمآذن تضحي وتمسي هتفا بأنبائه ، بينما بغي يونان ينعق ناعبه .

ويفرح كل محزون ، لأن اليونانيين حلموا بالانتصار لكن الواقع خيب رؤاهم فطلع الفجر مبشرا بانتصار العثمانيين كما يقول «عبد الجليل برادة» :

حديثٌ عن اليونانِ يُضحكُ باكياً
ويُطربُ محزوناً ويُلهو به غِرُّ
أماني نفوسٍ في الدجى حلموا بها
وبالعكس في تعبيرها طلعَ الفجرُ (٢)

ويضفي «أحمد نامي» فرحة النصر على الوجود كله ، فالنور يغطي الكون ، والوجود يتلألأ به .

صاحِ ماهذا النورُ في الكونِ سارِ
قدْ أراني أرى الوجودَ تلألا

(١) ديوانه : السياسيات ٣٩/١ .
(٢) حلية البشر ٧٨٢/٢ .

طلعَ البدرُ أم شموسٌ تجلّت
أم كمالٌ كسا الوجودَ جمالا
فانثنى فخراً فى رياضِ المعانى
وتغنّى وقد أجادَ المقالا
فعلى اليونانِ انتصرْنا بمجدٍ
وعليهم بالنصرِ تِهْنا دلالا (١)

ولايجد الشعراء فى هذا النصر نصرا فى معركة قد يعقبها معارك اخرى لكنه فتح مبين للإسلام .

وآيةُ الله جاءتْنا مبشرةً ... إنا فتحْنا لكم ابوابً يونان
مرّت تُنادى بقاعَ الأرضِ مُعْلنةً ... النصرُ والفتحُ للإسلام تاجان (٢)

فلاغرو أن يسجد العثمانيون شكرا لله على ما أيدهم به من دحر الخارجين على دولة الإسلام .

جاء فتحاً للمؤمنين قريبا ... إذْ دككْنا قلاعَهم والجبالا
فسجدْنا لله حمداً وشكرا ... وذكرْناه فامتلأْنا جَلالا (٣)

وواضح أن الشاعر يمشى فى ظل الآية الكريمة {نصر من الله وفتح قريب} (٤) .

ويتساءل عبد الله البارونى عن النشوة التى خامرت نفسه ، ويرجع انها نتيجة ذلك الانتصار .

أسروراً بحاجرى حيثُ بانا ... أم جنابُ الحبيبِ بالشرّ لانا
أم أتاكَ البشيرُ بالعهد منه ... فكأنْ قد قربْتَ منه مَكانا
قلتُ بل سرّنى انتصارُ مليكٍ ... ذاك عبدُ الحميدِ قطبُ رحانا (٥)

ويسر النبى وصحبه ، كما يقول محرم :

---

(١) ديوانه ص ١١ .
(٢) نفسه ص ٦ .
(٣) نفسه ص ١٢ .
(٤) سورة الصف : ١٣
(٥) ديوانه ص ٧٩ .

بريدٌ من المختارِ يُعَبِّق طِيبُهُ   وبَرقٌ من الأنصار يسطعُ ثاقبه (١)

ويخاطب "عبد الجليل براده" خليفة المسلمين بالنصر ، وسُرَّ النبي ومن حول المحصب والحجر بذلك .

ليهنكَ ياكهفَ الأنامِ وظلَّهم
فتوحٌ بِه سُرَّ المحصَّبُ والحِجْرُ

وقبرٌ لخيرِ الخَلْقِ سُرَّ بطيبةٍ
وحقَّ لهذا النصرِ أن يفرحَ القبرُ (٢)

ويطلب "مصطفى زكرى" من صاحبه أن يذهب إلى دار الخلافة ليهدى سلاما عاطرا إلى الخليفة مهنئا بالنصر المبين :

ياسعد سر مترنماً   ببشائر السعدِ المُبين

وإذا مررْتَ بيلدز   وسَعدْتَ بالمُلك المتين

فاهتفْ هنالك بالذى   تدرى وتعلمُ من حنين

وقلِ السلامُ عليك أل   فَ ياأميرَ المؤمنين (٣)

ويمضى "جعفر الحلى" فى ركب المهنئين بالنصر :

واهنأْ رئيسَ المسلمين بصولةٍ   منها الأباعدُ أكثرَتْ إعجابَها (٤)

وبهذا يتبين فرح الشعراء بذلك النصر ، ومرد فرحهم فى تقدير الباحث إلى ماتنطوى عليه قلوبهم من مشاعر إسلامية جعلتهم يهتزون طربا بنصر المسلمين .

نزعة فخر :

انبثق الشعور بالفخر نتيجة الانتصار على اليونان ، ولكن لانلمح فيه أثرا للفخر الشخصى ، وإنما هو فخر بالمسلمين الذين حازوا النصر على عدوهم .

---

(١) ديوانه : السياسيات ١/٣٨ .
(٢) حلية البشر ٢/٧٨٢ .
(٣) ديوانه ص ١٨٥ .
(٤) ديوانه ص ٥٣ .

كما أن ورود الخطاب الشعرى فى بعض الأبيات مؤكدا انتماء المسلمين لبنى عثمان ، بواعز الرابطة الإسلامية بينهم ، وبسبب من اختفاء النزعة العرقية ، لأن الإسلام وحد الجميع .

يقول أحمد محرم :

كتائبُ من أقوامِنا خالديَّةٌ
وما الحربُ إلا خالدٌ وكتائبُه

لنا من بنى عثمان سيفٌ إذا انتمى
تسامتْ به أعراقُه ومناسبُه

لحمزةَ حدٌّ منه غيرُ مُكَذَّبٍ
وحدٌّ لسيفِ اللهِ شتَّى مناقبُه (١)

ويؤكد فخره بالأمة العثمانية ، وأنهم الذروة بين أمم الأرض :

إنا بنو عثمان أعلامُ الورى والأرضُ تَشرُف فوقها الأعلامُ
إنا السنامُ إذا الأنامُ تفاخَرتْ والناسُ فيهم مُنسِم وسَنامُ

ونلقى عنده الفخر المقرون بالتهديد مع المحافظة على ضمير جماعة المتكلمين ، مما يعطى للفخر أثرا آخر كقوله :

ولقد درى اليونانُ أنَّا معشرٌ
فى الرَّوع ضرَّابو الكماة كِرامُ

بيضُ الوجوهِ إذا الكريهةُ كشَّرت
وسَمَالها تحتَ الحديدِ ضِرامُ

نسطوا ونبطشُ قادرين أعزةً
تشكو السيوفُ ضرابَنا والهامُ

---

(١) ديوانه : السياسيات ٣٩/١ .

نهفو ونثبت رجحاً أحلامنا
وتظل تهفو منهم الأحلام

وارحمتا للروم أبقينا بهم
جرحاً مدى الأيام لا يلتام

إنا لنمنع أن يضام حريمنا
ونزلزل الأرضين حين نضام (١)

ونجد أحمد نامي يفخر بنتيجة المعركة وما أسفرت عنه من اتفاقيات :

أولا ينظرون كيف فعلنا ... بدموكو وعزهم كيف زالا
قد محونا امتيازهم وعلاهم ... ومحونا استقلالهم والمآلا
فأقمنا عليهم أوصياء ... من أوروبا فصبحوهم عيالا
وأذقناهم الهوان ضروباً ... وملكنا "تساليا" استقلالا (٢)

---

(١) السابق ١/٤١-٤٢ .
(٢) ديوانه ص ١٢ .

حرب اليونان (١٣٤٠-١٩٢١م) :

سيطر الحلفاء بعد الحرب العالمية الأولى على كامل ممتلكات العثمانيين عدا "أنقرة" ، وقد أولى الخليفة محمد السادس الثقة (١) «مصطفى كمال» ، وزوده بصلاحيات وبمبلغ ضخم من المال للقيام بثورة هناك ، وفعلا تم ذلك ، ولكن «مصطفى كمال» عمل لنفسه ، وبدأ الأتراك هجومهم على قرارات معاهدة "سيفر" التي تقضي بتقسيم «تركيا» وإعطاء «اليونان» جزءا منها فقام اليونانيون - بإيعاز من بقية الحلفاء - بالهجوم على الدولة المفككة ، وتقدموا داخل «تركيا» ، وعلى الرغم من دفاع الأتراك الذي كان يعوزه التنظيم فقد أنزلوا بالمهاجمين خسائر فادحة ، ثم حقق المدافعون بقيادة «مصطفى كمال» انتصارات متتالية ودحر العدو وارتد خائبا داخل حدوده ، وكاد الأتراك أن يصطدموا مع «الانجليز» ، الا أن العلاقة الخفية التي تربطهم بالقائد التركي حالت دون ذلك ، إذ انسحب «الانجليز» ، وبرز اسم «مصطفى كمال» منقذا وتعلق أكثر الناس به ، واصبح الزعيم الأول - برغم عمالته - تحت سلطان البطش والتنكيل .

وبظهوره أعلن الجمهورية وقاد «تركيا» إلى الهاوية التي مازالت تتجرع مرارتها حتى اليوم ولله الأمر من قبل ومن

---

(١) محمد وحيد الدين السادس بن مراد ، ولد سنة ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م خلف أخاه محمد رشاد على عرش الدولة سنة ١٣٣٥هـ ١٩١٦م ، ولم تمض على خلافته بضعة شهور حتى سيطر الحلفاء على البلاد كلها إلا الأناضول ، وثق في مصطفى كمال بادىء الأمر وأمده بالمال فخيب ظنه ، تنازل عن الخلافة سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م ، دفن بدمشق سنة ١٣٤٤هـ/١٩٢٦م .
انظر : تاريخ الدولة العلية ، التاريخ الإسلامي - العهد العثماني ، الرجل الصنم .

بعد .(١)

الانخداع بمصطفى كمال والولاء للخلافة :

كان لانتصارات الأتراك - المنسوبة لمصطفى كمال - رنة فرح في العالم الإسلامي ، خدع الناس به ، وفي مقدمتهم الشعراء ، وسطر بعضهم أروع قصائده تمجيدا وإكبارا لذلك الدور المزعوم .

ولايعنيني هنا الوقوف عند الحقيقة التاريخية بل الوقوف عند النص الشعري بما يحمله من مبالغة في قدر هذا الرجل ، وإغراق في فهم دوره التاريخي .

ظن بعض شعراء هذه الحرب بمصطفى كمال خيرا ، ولم يكتشفوا حقيقته وقتئذ ، لذا جعلوا منه مثلا أعلى للبطولة والنصر كما يتصورونه ، باعتباره منقذا للأمة بعد اليأس الذي ران عليها ، من جراء سيطرة الحلفاء على العالم الإسلامي .

ولاشك أن مدح الشعراء له في ذلك الوقت الحرج يعبر عن اعتقاد صادق وعاطفة صحيحة تجاهه ، لذلك فالحديث لايخرج عن دائرة شعر الحرب .

وقد وجدت ثلة من الشعراء شاركوا في ذلك ، منهم المغمور ومنهم المشهور ، فهذا أحمد خير الدين (٢) يقول : إنه

(١) الرجل الصنم ص ١٧٣، ٢٤٥ ومابعدها ، ط/دار الرسالة ، تأليف ضابط تركي ، ترجمة عبد الله عبد الرحمن ، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ص ٤٢٤-٤٢٨ ، التاريخ الاسلامي ، العهد العثماني ٢٢٧/٨-٢٣٤ .

(٢) أحمد خير الدين ، ولد سنة ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م من أصل تركي بدأ الدراسة في الرابعة من عمره فحفظ القرآن الكريم ودخل جامع الزيتونة ، فتخرج منها وأصبح أستاذا في معهدها ، له عدد من المؤلفات منها "العواصف والعواطف في الأدب" ، فتاة الدير رواية ، الغرام الصادق رواية .
انظر : الأدب التونسي في القرن الرابع عشر ٢/ ، زين العابدين التونسي .

أنقذ الأوطان ، وأحيا الجهاد ، ولم يخلق الا للحرب .

لك الفخرُ المؤبّدُ ياكمالُ — مدى الأزمانِ تَزْبرُه النّصال

الا يامنّقذُ الوطنِ المُفدّى — بمثلِكمُ لقد سُعِدَ المـآلَ

قضى اللّهُ المهيمنُ أن تعودوا

لهيبتكم ويعتـزَّ الهـلالُ

فأحْيا سيفُكم شرفاً عظيماً — لقد أوْدى بـهِ داءٌ عُضـالُ

فأنتم للحروبِ لها خُلقتم — وماخُلِقَتْ لها إلا الرجـالُ (١)

ويشبهه ومن معه بالأسود ، وانهم بنوا صرحا من المجد فوق الأنجم الشهب ، ويخصه بقوله : إنه "ليث الحروب" :

أسدُ الأناضولِ سادُوا فى العلا وبَنَوْا

صَرْحـاً من الفخرِ فوقَ الأنجمِ الشهبِ

تَغلى لأجلِ العدى حقـداً صدورُهـم

وكلهم بـاحثٌ عـن نُزهـةِ الطلـبِ

كانت طلائعهـم يَحمـى قيادتهـا

ليـثُ الحـروبِ كمـالٌ مصطفى النسبِ (٢)

برغم عاطفة الحمية الصادقة لدى الشاعر ، فإن القضية ليست فى الشعر فكرة فحسب ، بل من الصياغة الفنية فيه ، على أن الباحث قد يلتمس عذرا للشاعر لأنه قال ذلك فى سن مبكرة قد ينقصه المراس والدربة فى عالم الشعر .

ويشبه محمد الخزنه دار (٣) سابقه فى إضفاء أوصاف البطولة

---

(١) الأدب التونسى فى القرن الرابع عشر ٨٩/٢ ، ط/الدار التونسية ، زين العابدين السنوسى .

(٢) نفسه ٩٣/٢-٩٤ .

(٣) محمد الشاذلى بن محمد المنجى بن مصطفى خزنه دار ، ولد سنة ١٢٩٩هـ/١٨٨١م فى تونس من أصل تركى ، تولى بعض المناصب ثم استقال ، ينبض شعره بحركة الشعب التونسى وبغضه للاستعمار الفرنسى ، له ديوان شعر . توفى سنة ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م .
انظر : الأدب التونسى فى القرن الرابع عشر ١/
الأعلام ٦/

على «مصطفى كمال» إذ هو باسل ، ماضي العزيمة .

يسوقه باسلٌ ماضي العزيمة لم
تُفلل سيوفه أو تُركنْ إلى القُرُب

أحيا وأوجد بعد اليأس دولته
مذ قام ينهضها بالسيف والخطب

ومن تكن نفسه بالله واثقة
لم يُخطِ سهمه في المرمى ولم يَخِب

هذا فتى «الدّرْدنيل» أسال به الدول ال
كبرى فحاشا بأنْ تنسى ولم تَجِب

ما زال يُذكرُ في الأبطال موقفهُ
يوم الكريهة مذ جلّى عن الرّيب

ولايكتفي بتلك الأوصاف المعنوية بل يتعداها إلى الحسية فيقول :

ماكان أجملَ في أزمير طلعته ياحسْنَ ثغره مُفترّاً على شنب

ثم إن الله قيّضه لينصف وطنه مما حاق به .

شفى قلوباً تلقته على ظمـأٍ لولاهُ ما انفكّت الأكباد في لَهَب
قد قيّض اللهُ للأوطان مُنتقماً من كلِّ مُعتسفٍ للشرِّ مُنتسب (١)

ويمدح «أحمد الفقيه» (٢) الأتراك بقوله : إنهم حموا أوطانهم وأعزوا الإسلام ، أبطال إذا حميت الحروب ، جمعوا شمل الأمة بعد فرقة .

---

(١) ديوانه ١٣٣/١ ، ط/دار تونس ١٣٩٢هـ .
(٢) أحمد الفقيه حسن بن محمد الفقيه حسن ،ولد سنة ١٣١٢هـ/١٨٩٤م ، ولد في بيت وجاهة إذ كان أبوه عضوا في الحكومة الوطنية ، حفظ القرآن مبكرا ، وتلقى التركية والفرنسية ، درس العلوم العربية والشرعية ، عاش مدة بمصر ، تولى عدة مناصب في إدارة الأوقاف ورئاسة الحزب الوطني ، له ديوان شعر ، توفي سنة ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .
انظر : أحمد الفقيه حياته وأدبه ، محمد سعود جبران .

أُسْدٌ أعزّوا الدينَ والإسلامَ في يوم طغى فيه بنو الإلحاد
شوسٌ إذا حمي الوطيسُ تقدّموا في كلّ ملحمةٍ بلا إرواد
صِيدٌ قد اتّحدوا بهمةِ مصطفى من بعدِ ماكان الجميع بَداد

ويخص «مصطفى كمال» أيضا بقوله :

هو ذلك البطلُ الذى بفعالِه
خشيَتْ جموعُ المسلمين أعاد
ساقي بني اليونان كاساتِ الرّدى
ومكبلُ الأعداءِ في الأصفاد
حامي ذمارَ فروقَ من كيدِ العدا
ومحررَ الآباءِ والأولادِ
شهمٌ بهِ عزّت شريعةُ أحمدٍ
وبهِ استقامَ الأمرُ بعْدَ فَسَاد
كم روّعَ اليونانَ منه بعَزْمةٍ
أضْحَوْا بها متفرقين أيادِ
وكبا زنادُهم إلى أنْ أصبحوا
في كلِّ غورٍ شُرّداً ونجادِ (١)

والشاعر كرر معانيه كما هو ملحوظ برغم قصر القصيدة ، مما يدل على قصر النفس الشعرى .

ويعجب «مصطفى الغلاييني» (٢) ببطولة «مصطفى كمال» ومن معه ،

---

(١) ديوانه ص ١٥٦ ، ط/وزارة الاعلام والثقافة الليبية ١٣٨٦هـ .

(٢) مصطفى بن محمد سليم بن محيى الدين الغلاييني ، ولد سنة ١٣٠٣هـ/١٨٨٦م ، في بيروت فنشأ وتعلم بها ، سافر إلى مصر وتتلمذ على محمد عبده ، رافق الجيش الرابع العثماني في الحرب العالمية الأولى إلى قناة السويس ، قبض عليه الفرنسيون عدة مرات وسجنوه ، له عدة مؤلفات منها ديوانه ، والإسلام روح المدنية ، توفي ببيروت سنة ١٣٦٤هـ/١٩٤٤م .
انظر : مقدمة ديوانه ، الأعلام ٧/

وصبرهم على مجالدة العدو ، إذ بذلوا دماءهم ، وأبوا الذل وحطموا قيوده كما ظهر له .

وما إنْ ترى إلا الرجالَ يسوقُها
إلى حتفِها صوتُ العُلا ويقودُها

قد اصطبرتْ للموتِ فى مأزِق الوغى
حذارِ هوانٍ إنْ تراختْ يسودُها

وقد بذلتْ حُرَّ الدماءِ أمَا ترى
إلى الأرْضِ كيْفَ احمرَّ منها صعيدُها

بنى وطنى هذا فتَى الترك مصطفى
كمالٌ وذى أنصارُه وجهودُها

أبوْا أنْ يروا فى أرضِ توران ذلةً
يُعبِّدهم طولُ الزمانِ خلودُها

ففكوا عن الأيدى القيودَ وحطَّموا
سلاسلَ فى الأعناقِ يُؤذى حديدُها

وهبّوا إلى الأعداءِ من كلِّ جانبٍ
مخافةَ هونٍ للبلادِ يُبيدها

لئن خفقتْ من قبلُ حمرٌ بنودُها
فقد خفقتْ بالسؤددِ اليومَ سودُها(١)

وجلى أن الأبيات أقرب إلى النثرية إذ تنعدم فيها الصور المشعة ، وأتى الجناس فى قوله "سؤدد اليوم سودها" لإقامة الوزن مما أضعف المعنى ، إلى جانب مافيه من مقابلة .

---

(١) ديوانه ص ٨٢-٨٣ ط/المطبعة العباسية ، حيفا ١٣٤٣هـ .

ويقول محمد فاضل حرب (١) قصيدة تنبىء عن عاطفة صادقة تجاه العثمانيين بأسلوب حوارى أخاذ حيث خاطب ابنته فيها ومدح مصطفى كمال ومن معه بانهم يقاتلون من أجل حماية الاسلام ، وأنهم غضبوا لدينهم ، فحموا الدين والوطن معا .

فأجبتها أبْكى على قَوم مشَوْا   للموت كى يَحْمُو حمَى الاسْلام

غضبوا لدينهم فقاموا قومة   للدين والوطن العزيز السامى

سلُّوا السيوف ووطّنوا عزماتِهم   «لفَرُوقَ» أو للقاء يوم دام

ويصور موقف الاتراك وما أبدوه من بطولة ، وكيف عقدوا العزم على مهاجمة اليونانيين وطردهم يقدمهم مصطفى كمال ، ويشبهه بالليث الظامى ، ويشبه من معه بالأسود التى جوعت شهرا فهم متعطشون للفريسة ، لذا فتكوا باليونانيين فتكا ذريعا وتفرق شملهم ، وتعالت صيحاتهم طالبين الأمان ، وأنى لهم ذلك وقد قتلوا "الأطفال والأشياخ والخدام" ويبشر الشاعر ابنته بأن الله أعز مصطفى وأذل دولة الظلم .

رِيعَ الهلالُ وريعَ كلُّ موحدٍ
غَضبوا لأحمدَ غضبةَ الضِّرْغَام

عقدُوا البنودَ لمصطفى وتقدّموا
وكمالُ قائدُهم كليثٍ ظامى

هزّوا الحُسامَ فهلّلُوا وتصايحوا
النارُ أولى بالفتى المِقْدام

---

(١) محمد فاضل باشا حرب ، ولد بالقاهرة وحفظ القرآن مبكرا ، درس بالازهر مدة ولم يكمل الدراسة به ، ثم فى المدرسة الأمريكية والقبطية ، ثم درس بالحربية وتخرج منها عام ١٨٩١م ، قضى فى الجيش فى السودان ثلاثين سنة وتركه برتبة لواء ، نظم الشعر وترجم بعض القصص الأوربية وشعره مبثوث فى بعض الكتب والمجلات لما يجمع بعد برغم قلته .
انظر : شعراؤنا الضباط ، محمد عبد الفتاح ابراهيم .

هَجَمُوا على الأروام هجمةَ صادق
ماضي العزيمةِ ثابتِ الأقدام
هجمُوا كأنَّهم أسودٌ جوَّعَتْ
شهراً على سَرْحٍ من الأغنام
فتكُوا بهم فتكاً ذريعاً فانْثنوا
يعْدونَ دون رويةٍ ونِظام
صاحُوا الأمانَ ولا أمانَ
لقاتلِ الأطفالِ والأشياخِ والخُدَّام
قلتُ ابشرى فاللّهُ عزَّزَ مصطفى
وأذلَّ قهراً دولةَ الأرْوَام
واللهُ ينصرُ من يشاءُ بفضلِه
والحقُّ يمْحَقُ دولةَ الظُّلَّام(١)

وهذه العاطفة تجاه الاتراك انما هى عاطفة الأخوة الاسلامية مما يدل على عمق مشايعة المسلمين للعثمانيين ، اذ أن الشاعر جندى فى الجيش المصرى قدرنا قيمة سريان هذه الروح فى صفوف المقاتلين .

ويخاطب أحمد أبى النجاة(٢) «مصطفى كمال» مناديا إياه "بيافاتح الأقطار وابن الفاتحين" ، ويفصل الأعمال التى قام بها القائد التركي ، إذ سد كل السبل على العدو ، وانقذ الشرق من كيده ، ونبذت سياسة الخداع والتضليل ، ويبين دوره فى المعركة ، وأن اليونانيين أتوا بجيوشهم يسوقونها سوق النعاج ليذبحها ، لذا فهم مابين قتيل وجريح .

---

(١) شعراؤنا الضباط ص ١٣٨-١٤٠ ، ط/عبد الحليم الحسينى سنة ١٩٣٥م ، تأليف محمد عبد الفتاح ابراهيم .
(٢) لم أعثر على ترجمته ، إلا أنه تخرج بدار العلوم ، وعمل مدرسا بالمعلمين فى الإسكندرية .

يافاتحَ الاقطارِ وابنَ الفاتحيـ
ـن سددْتَ للأعداءِ كلَّ سبيلِ
وسلختَ فجرَ الشرقِ من غسقِ المطا
مع وانتبذْتَ سياسةَ التضليل
ساقُوا جيوشَهم إليك تبجُّحاً
سوقَ النِّعاجِ إلى أسودِ الغِيل
فتركتهم مرْعى تسيلُ نفوسُهم
من كلِّ منهوكِ القوى مخذول
وملأتَ من أشلائِهم حُفَرَ الرَّدى
من كلِّ مجروحٍ وكلِّ قتيلِ
وسقيْتَ روضَ المجدِ بعدَ ذبولِه
بدمِ الغزاةِ فجادَ كم بجزيل
أروْيتَ من تلك الدِّماءِ أسنَّةً
ظمأى ولاتُرْوى بغيرِ جليل

اعتمد الشاعر الصور البيانية لتصوير عواطفه فى قوله "وسلخت فجر الشرق" ، "وسقيت روض المجد" مما زاد المعنى وضوحا وإشراقا لأن الشاعر بصدد إظهار مكانة «مصطفى كمال» بشتى الوسائل .

ويناديه مرة أخرى بأفضل الألقاب المتعارف عليها عند العثمانيين "يا أيها الغازى" ويبين أنه حمى الترك من سطوة العدو عليهم ، إذ ترك عدوهم "جزر السباع" ، وشبع وحش القفر من لحومهم وروى من دمائهم .

يا أيُّها الغازى المشيرُ لأنْتَ حا   مى الترك من غِرٍ سطا ودخيل
دمدمْتَهم وتركْتَهم جُزَر السِّبا   ع فمالَهم من مُنْجدٍ ومُقيل
بشرى لوحشِ القَفْر قد أوسعْتَه   شِبَعاً وريّاً من دم مطلول

وماكان لهذا الشاعر أن يشيد بمصطفى كمال ويضرب صفحا عن أولئك الجنود المخلصين الذين كانوا خير عون له فى أداء مهمته التى قام بها ، بل بين أدوارهم البطولية ، لذا فهو يزجى التحية لهم قائلا :

يا راكباً متنَ القفارِ تحيةً
منّا إلى الأبطال فى الأناضولِ
قاموا بمعجزةِ الدّهور وأحرزوا
فخراً بكلّ مُهنّدٍ مُصقولِ
شهِدَ الزمانُ لهم بفضلِ شجاعةٍ
لم تَسمعُ الدنيا لهم بمثيلِ
سلّوا الصوارمَ فى الرّبوعِ تخلّصاً
من ساسةٍ نَزَعوا لكلّ وبيلِ
كَبّتوا العدوَّ وأمْطروْه مصائباً
حتّى دعا الداعى له برحيلِ

ثم يبين تارة أخرى انتماء الجنود العثمانية إلى الإسلام ، "فجبريل" عليه السلام تحت لوائهم ، وكأنهم جنود "عزرائيل" ، وأن الله سخرهم لمهبط وحيه ولبلاد الشرق بعدما أصيبت بالتأخر والخمول ، وأن أعمالهم أشبه بالمعجزات النبوية .

فترى بجيشِكَ نشوةً من عزةٍ — لكن بجيشِهِمُ أذلُّ ذليلِ
جبريلُ تحت لوائِكم متحمسٌ — أكرِمْ به من قائدٍ جبريلِ
يتحققون الموتَ حين لقائِكم — فكأنّكم أجنادُ عِزرائيل
الله سخّركمْ لمهبطِ وحيهِ — للشرق بعد تأخرٍ وخُمولِ
فوصلْتم بحضيضِهِ أوجَ العلا — فكأنّكم من معجزاتِ رسولِ (١)

---

(١) ديوانه ص ٧٠-٧٢ ، ط/علية الاسكندرية ١٩٢٤م .

والشاعر يخاطب الجيش العثماني كأنه ماثل أمامه مما يدل على قربهم من نفسه ، وعلى عاطفة صادقة نحوهم .

والشعراء من كل أصقاع الوطن العربي أظهروا عاطفتهم تجاه «مصطفى كمال» مما يدل على تلاقي الشعراء حول تلك القضية ويدل على تعلق آمال المسلمين بأي قائد يحقق نصرا .

فهذا «عثمان هاشم»(١) من السودان يشيد بالقائد التركي ، ويعتبر عمله جهادا في سبيل نصرة الحق ، ودفاعا عن الدين وغضبا له .

ضربْتَ بسيفِ الحقِّ فاندَكَّ باطلُ
وجئتَ بما لمْ تستطعْه الأوائلُ

ودافعْتَ عن دينِ النبي محمدٍ
ولم تَثْنِ منك العزمَ تلك القنابلُ

غضبْتَ لدينِ اللّه لمَّا رأيتَهُ
تُمدّ له من كلِّ حدبٍ عوائلُ

والشاعر معجب بهذا القائد إعجابا شديدا لدرجة تمنيه لثم أنامله ، وأن يكون جنديا من جنوده طوع إشارته ، ويصفه بأنه بطل الإسلام ، ولاشك أن اشادة هذا الشاعر «بمصطفى كمال» إنما يدل على عمق مفهوم الجامعة الاسلامية والرابطة الدينية لديه .

فيابطلَ الإسلامِ مني تحيةٌ
إذا لم تشرفْني بلثمِ أناملِ

لئنْ كان بالإسعادِ نجمُك طالعاً
فنجمُ الذي عاداك لاشك آفلُ

---

(١) لم أعثر على ترجمته .

هنيئاً لك النصرُ المبينُ وليَتَنى
بجيشِك جنديٌّ تطوّعَ باسلُ (١)

وينشد «محمود صادق» قصيدتين بهذه المناسبة ، مشيدا بمكانة مصطفى كمال مفتخرا به ، إذ شهد له حتى العدو بتلك المكانة ، ويدعوه إلى صيانة عرش الخلافة ، وفي هذا دلالة على تعلق الناس بها مهما وصلت إليه من سوء حال .

يامصطفى شَهِدَتْ لكمْ أعْداؤكم
يكفيْك منهم قلةُ الإقرار
شهدوا وماهمْ أولٌ فلطالَمَا
أعيَتْ خصومَك حيلةُ الإنكار
البغيُ رائدُهم ورائدُك الهدى
والحكمُ حكمُ الواحدِ القهارِ
يامصطفى هذى تحيةُ شاعرٍ
مستبشرٌ بك أيّما استبشارِ
فاسهرْ على الوطنِ المفدّى ولتصنْ
عرشَ الخلافةِ من يدِ الأشْرار

وماكان لهذا الشاعر أن ينسى الشعب التركى الذى وقف مع «مصطفى كمال» شاداً من أزره ، إذ يوجه النداء له مخاطبا إياهم مشيدا بهم ، إذ حموا حرمة الدين ، وأن الله ابتعثهم للأمة بعد أن وصلت إلى حافة الانهيار ، فرفعتم دعائمها ، وجمعتم شملها ، وأبيتم إلا الاتحاد .

ياأيّها الشعب المجيدُ تحيةً
من مهجةٍ تُخْفى الأسى وتُدارى

---

(١) الشعر السودانى فى المعارك السياسية ١٨٢١-١٩٢٤م ، ص ٣٦٣ ، ط/الكليات الأزهرية ، محمد محمد على .

حنَّتْ إليك حنينَها لبقيةِ ال
مُلكِ الفسيحِ وكعبةِ الأنصارِ
بعثَ الإله بكمْ وكانت أمةُ ال
إسلام قبلُ على شفيرٍ هارِ
فرفعْتمو منها دعائمَ دولةٍ
ثبتَتْ كما شاءَ القضاءُ الجارى
وجمعْتمُ الشملَ الذى لم ينفرط
الا وبـاءَ بـذلـةٍ ودمـار (١)

وينعت مصطفى كمال بنصير الشرق ، ويبين الأشياء التى الفت بين أهله ويردها إلى آصرة الدين ووحدة المشاعر .

إليك نصيرَ الشرقِ فى حومةِ الوغى
قلوبٌ تحيى عهدَكم وتبايع
أما ألفتْ بيْن القلوبِ عواطفٌ
ودينٌ وأوطانٌ وحقٌ منازعُ
ومانجمُكم إلا على الشرقِ طالعٌ
ومامجدُكم إلا إلى الشرقِ راجعُ

ويكرر ماقاله فى القصيدة الأولى من أنه حمى الدين وجمع شمل الأمة بعد الفرقة ، وايقظها مما كانت فيه ، وهو للإسلام وللشرق "مصطفى" .

وإنك حامى الدّين والمجدَ والحمى
وحارسُ ذيّاك اللواءِ ورافعُ
وجامعُ شملَ المشرقين وطالما
تفرّق دون الشّملِ من هو جامع

(١) ديوانه ص ١٢٤ ، ط/المطبعة التجارية الكبرى ، القاهرة .

فيا مارخاً في النّاس أن يتيقّظوا
لقدْ نهضت تلك الشعوبُ الهواجع
ويا ناهضاً بالعبءِ أنتَ موفقٌ
فأتمِمْ على الأوطانِ ما أنتَ شارع
فإنك للإسلام والشرقِ مصطفى
فنعمَ الفتى الغازي ونعمَ المدافعُ

ونراه يترحم على الشهداء في هذه الحرب ،وينوه بما أبدوه من بطولة ويلقى عليهم سلاما حارا مرددا تحية الإسلام مما يدل على إحساس قوى وعاطفة جياشة تجاههم مع إصراره على أنهم بنو الشرق وشهداؤه .

سلامٌ عليكم يابني الشرقِ كلّما
تعانقتِ الأغصانُ وهي يوانِعُ
سلامٌ عليكم بل سلامٌ على الألى
لهم بين أحناءِ القبورِ مضاجِعُ
على شهداءِ الشرفِ والحقّ والهدى
تناءتْ بهمْ تلك القِفارُ البلاقِعُ
تفانوْا فكانوا للمواطنِ سلّماً
فقامَتْ على أشلائِهم تترافعُ
إلى الملأ الأعْلى سلامي كلّما
وقفتُ أمام اللّه والقلبُ خاشعُ
سلامٌ عليكمْ كلّما ذرّ كوكبٌ
وأومضَ برقٌ واستهلّت مدامعُ (١)

ونلحظ أن كلمة الوطن على لسان هذا الشاعر وأمثاله بدأت تتزايد ويزداد الإحساس بها ولكن في الإطار الاسلامي .

---

(١) السابق ص ١٥٤ .

ومن روائع «شوقي» الحربية قصيدته البائية في «مصطفى كمال» إذ استبشر بذلك الانتصار وقائده ومن معه من الجنود ، وملك النصر مجاميع فؤاده، وبدأ قصيدته بلفظة "الله أكبر" ، وفي هذا تأكيد على عظمة النصر ، وفيه نسبة النصر إلى الله مصدر كل نصر .

«ويقرن «شوقي» وهو في غمرة عاطفته القائد التركي بخالد ابن الوليد رضي الله عنه ، فهذا القائد هو في نظره مبعوث العناية الإلهية لإقالة عثرة الخلافة وإحياء مجد الإسلام فمقامه من الترك هو مقام خالد بن الوليد من العرب كلاهما قد قاد جيوش المسلمين متنقلا من نصر إلى نصر» .(١)

ويشيد به ، وبأعماله المجيدة التي كلها كرم ، وكان في حقن الدماء أشد كرما ، وحصافة في السلم والحرب ويشبهه «بصلاح الدين» في حروبه مع الصليبيين ووجه المقارنة أنه لم يقترف في حق عدوه فحشاء، ولم يقترف حرمة الصلبان والرهبان وتلك آداب المحارب المسلم .

ويؤكد أن قبوله للسلم إنما أتى من مصدر القوة ، على عتب من الخيل وعدم رضا من السيف ، وعملك هذا دلالة على التقوى ، وإن كانت سيوف قومك من طبعها ألا ترتاح للقرب ، ويبين أن هذه المحاسن هي من صميم الإسلام وأنت تعرفها فلا أزيدك بها معرفة ، ويصفه بالرأي الحازم ، ويطلبه أن يمهل عدوه ليمنحهم وقتا للتفكير فيما عرضت عليهم من آراء .

اللّهُ أكبرُ كمْ في الفتحِ من عَجَبٍ
يا خالدَ التّركِ جدّدْ خالدَ العَرَبِ

---

(١) الاتجاهات الوطنية ٢/٢٤٦ .

صلحٌ عزيزٌ على حربٍ مُظَفَّرةٍ
فالسيفُ فى غِمدِه والحقُّ فى النُّصُب
ياحُسنَ أمُنيةٍ فى السَّيفِ ماكَذَبتَ
وطيبَ أمنيّةٍ فى الرأى لم تَخِب
خُطاك فى الحقِّ كانت كلُّها كَرمًا
وأنتَ أكرمُ فى حقنِ الدَّمِ السَّرِب
حَذَوتَ حربَ الملاحيِّينِ فى زُمَنِ
فيه القتالُ بلا شرعٍ ولا أدب
لم يأتِ سيفُك فحشاءً ولاهتكَت
قناكَ من حُرمَةٍ الرُّهبان والصُّلُب
سُئِلتَ سِلماً على نصرٍ فجُدتَ بها
ولو سُئِلتَ بغير النصر لم تُجِب
مشيئةٌ قبلتَها الخيلُ عاتبةً
وأذعنَ السيفُ مطويّاً على غَضَب
أتيتَ مايشبهُ التقوى وإنْ خُلِقَتْ
سيوفُ قومِكَ لاترتاحُ للقُرُب
ولاأزيدُك بالإسلام معرفةً
كلُّ المروءةِ فى الإسلامِ والحسب
منحتَهم هُدنةً من سيفِك التَمِسَت
فهَبْ لهم هُدنةً من رأيك الضَّرِب

وواضح أن الشاعر قد استخدم ألفاظا قوية لتعبر عن تجربته وللدلالة على عاطفته تجاه القائد التركى ، فسمى أعماله فتحا ، وهذه اللفظة إلى جانب "الله أكبر" تحملان فى طياتهما معنى إسلاميا ، فالمسلم المحارب إذا ما اقتحم ساحة الحرب ردد "الله أكبر" وإذا ما انتصر رددها أيضا ، والحروب الإسلامية تسمى فتحا .

إلى جانب مافى "كم فى الفتح من عجب" من دلالة إيحائية على عظمة هذه الحرب وأن عجائبها لاتحد ولاتحصى .

واعتمد الشاعر التقسيم فى هذا المقطع لبيان إنسانية "الغازى" ودينه كما تصوره .

واستخدم الاستطراد فى قوله :

ولا أزيدك بالإسلام معرفة ‏ ‏ ‏ كل المروءة فى الإسلام والحسب

فهو يريد أن يمدحه بمعرفته للإسلام ، فعرج على بيان مكانة الإسلام وقوله : "فهب لهم هدنة" بعد قوله : "منحتهم هدنة" جره إلى ذلك رغبته فى المشاكلة .

ونوه "شوقى" بمكانة الرجل الثانى والظهير الأيمن "لمصطفى كمال" فى حربه وسلمه ذلكم هو "عصمت باشا"(١) ووصفه بالداهية ، وأن الحرب صقلت تجاربه .

وكان ضعيف السمع "أصم" "بلوزان" نعته الشاعر بذلك فإنه استخرج منه وصفا آخر "يسمع سر الكائدين له" ، ولايضيق بجهر الحانق عليه ، ويورد حقيقة تاريخية عن مؤتمر "لوزان" وماحدث فيه من أن المؤتمرين الأوربيين إذا مافرقتهم مطامعهم وتشتت آراؤهم فإنه يستثمر ذلك الخلاف لصالحه ، كل ذلك دلالة على حنكة "عصمت" وبراعته فى نظر "شوقى" .

أتاهُمُ منك فى "لوزانَ" داهيةٌ ‏ ‏ ‏ جاءتْ به الحربُ فى حيَّاتها الرُّقُبِ

أصمُّ يسمعُ سرَّ الكائدين له ‏ ‏ ‏ ولايضيقُ بجَهْر المُحْنَق الصَّخِبِ

---

(١) وزير مقرب من مصطفى كمال ، كان ضعيف السمع انهزم أمام اليونانيين فى موقعتين بسفاريا ، كان رجلا طائعا لرئيسه - مصطفى - منفذا لأوامره ، خلفه فى رئاسة الجمهورية .
انظر : الرجل الصنم .

لم تُفترق شهوات القومِ فى أربٍ
إلا قضى وطراً من ذلك الأرَبِ

أما الإشادة بالمحاربين مع «مصطفى كمال» ووصف بطولاتهم فيعرض الشاعر لذلك مبرزا أهم صفاتهم ، فهم صبر فى الحرب ، كتبت أعمالهم بالذهب ، لاتعرف أعمالهم بالأسماء والألقاب بل بما أحدثته من آثار ، ويكرر صفة الصبر ، مع إعطاء صورة تشبيهية عن قوة صبرهم ، «كالليث عض على نابيه فى النوب» ، ولسانهم المعبر سيوف الهند ، وإذا ماكتبوا فبأطراف القنا الطويلة ، ويبلغ الصبر والقوة مبلغها لديهم لدرجة سهولة المركب الصعب لهم ، والمحال لايستعصى على طلبهم ، ومن صفاتهم أيضا :

قوّادُ معركةٍ ورّادُ مهلكة
أوتادُ مملكةٍ آسادُ مُحْتَرَبِ

فهم جمعوا الخبرة القتالية ، والشجاعة والمغامرة ، مع حسن سياسة الملك ، ويعود ليتحدث عن دور «مصطفى كمال» ، فلقد انهزم الجيش أمام الحلفاء وانهارت الدولة وتفرقت شَذر مذر ، ولكنه جمعت تلك الفلول ، وشظايا تلك المملكة وأرجعت لها قوتها ، ويدعو «شوقى» القائد التركى أن يبين للملأ خبرة وبطولة من معه من الأجناد .

بلّوتَهم فتحدّث كَمْ شدَدْتَ بهم
من مُضْمَحِلٍّ ؟ وكَمْ عمَّرت من خَرِبِ

وكم ثلَمْتَ بهم من مَعْقِلٍ أَشِبٍ
وكمْ هزمتَ بهم من جَحْفلٍ لَجِبِ

وكم بنيتَ بهم مجداً فما نُبِسوا
فى الهدمِ ماليس فى البنْيان من صَخَبِ

من فَلِّ جيشٍ ومن أنقاضِ مملكةٍ
ومن بقيةِ قومٍ جِئتَ بالعجب (١)

فتلك صفات الاتراك كما رآها شوقي ، وبين أنه استخدم للدلالة عن مراده ولتأكيد دور المحاربين الاتراك في تلك المعركة الفاصلة ، الصفات الصابرين ، الكاتبين ، الجاعلين والصبر في البلاء صفة إيمانية انتزعها شوقي من قول النبي صلى الله عليه وسلم : عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له" .

واستخدامه لصيغة المبالغة "قوّاد" وكم الاستفهامية لتعظيم ذلك الإنجاز الضخم فكم شددت ، وعمرت ، وثلمت ، وبنيت بهم .

وأضفى الجناس في قوله "عض على نابيه في الذوب" جرسا قويا على البيت .

وهكذا نجد أن كل الشعراء السابقين يحتفون «بمصطفى كمال» وبمن معه من المحاربين ، ولانجد أى إشارة إلى الخليفة «وحيد الدين» (٢) ، ولا الخلافة العثمانية وماذلك إلا لأن الناس إذا قارنوا كفاح «مصطفى كمال» المظفر باستسلام الخليفة القابع في الاستانة مستكينا لما يجرى عليه من ذل ، كبر الأول في نظرهم بمقدار مايهون الثاني ، وزاد في سخطهم على الخليفة

---

(١) ديوانه : الشوقيات ١/٥٩-٦٣ .

(٢) محمد وحيد الدين السادس بن مراد ، ولد سنة ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م خلف أخاه محمد رشاد على عرش الدولة سنة ١٣٣٥هـ-١٩١٦م ، ولم تمض على خلافته بضعة شهور حتى سيطر الحلفاء على البلاد كلها إلا الأناضول ، وثق في مصطفى كمال بادئ الأمر وأمده بالمال فخيب ظنه ، تنازل عن الخلافة سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م ، دفن بدمشق سنة ١٣٤٤هـ/١٩٢٦م .
انظر : تاريخ الدولة العلية ، التاريخ الاسلامي - العهد العثماني ، الرجل المنم .

ماتناقلته الصحف من إهدار دم مصطفى كمال واعتباره عاصيا متمردا ، ولم يكن «مصطفى كمال» فى نظرهم إلا بطلا مكافحا يغامر بنفسه لاستعادة الخلافة الذى خيل اليهم أن الخليفة يمرغه فى التراب تحت أقدام الجيوش المحتلة " .(١)

بل وصل السخط ببعض الشعراء ممن لايشك فى ولائهم الإسلامى أن سخطوا على الخليفة .

فهذا الشاعر التونسى «محمد الخزنة دار» يلقب الخليفة بخاسر الدارين ، ويؤكد أن إهدار دم «مصطفى كمال» من قبل الخليفة إنما هو نتيجة لتغرير الحاقدين من أعوانه الذين لم ينفعوه ، ويصف القائد التركى بالعدل ويدعو له أن يبقى كشافا للملمات .

بالأمس عدّك فى الثوار مَنْ تَركُوا
وحيدَهم خاسرَ الدّارين مرذولا

لو لَمْ يغرّوه ياحامى خلافتَه
ماكان يأملُ أنّ يلقاك مقتولا

اقمْتَ بالعدلِ من تَرْضى خلافتَه
وباتَ بالعدلِ من ناواك معزولا

دمْ فى الملمّات كشّافاً متى انسدلتْ
مادامَ فَوْقك سرّ اللّه مَسْدولا

اثْنتْ عليك الليالى وهى خاجلةٌ
ولست فيها وأيمُ اللّه مخجولا (٢)

«وبدا هذا الخط فى قصيدة «شوقى» التى استقبل بها والدة الخديوى عباس عند عودتها من الآستانة حيث يقول موجها إليها

---

(١) الاتجاهات الوطنية ٢٩/٢ .
(٢) ديوانه ٧١/٢ .

الخطاب ، معرضا بالخليفة «وحيد الدين» متهكما به غاية التهكم» .

جارةَ الإسلام فى محنتِه عَلّمى الجاراتِ مما تَعْلَمين
ذكريهنَّ فروقاً وصِفى طلعةَ الخيلِ عليها والسَّفين
ووليـاً للطواغيتِ بها كان يُدعى بأميرِ المؤمنين

ويصفه بأنه ألبس الإسلام ذلا ، وكسا الخلفاء أثواب الضعة عوضا عن أبهة الخلافة ، ويستلهم أسطورة خليفة الصياد فى ألف ليلة وليلة زيادة فى السخرية والاستهزاء ، ويشبهه بالغادة فى القصر مسجونا لاحول ولاطول ، بينما «مصطفى كمال» وعصبته يذودون عن حمى الدولة ويحملون أعباءها .

ألبسَ الإسلامَ ذلاً وكسا
خلفاءَ اللّه أثوابَ القطين
كان كالصّيادِ فى دوْلتِه
دولةِ الوهْم وملكِ الحالمين
أمرُهُ فى السجنِ غادٍ رائح
وهو كالغادةِ فى القصْر سجين
حَمَلَ الأعباءَ عنه عصبةٌ
مثّلوا فى الملْعب المستوزِرين
قدْ أباحوا دمَ آسادِ الشّرى
فازْدراهم وجرى يَحمى العَرين
مَحَقَ الفردَ والغى حكْمَه
إنّ حكمَ الفردِ مرذولٌ لعين (١)

ولكن هل كان حقا السلطان «وحيد الدين» كما صوره شوقى ذلك مايبينه أمير البيان «شكيب أرسلان» بصدد تعليقه على هذه

ديوان الشوقيات ج ٢ ص ٣٠٣ – ٣٠٤

(١) «شوقى أو صداقة أربعين سنة ص ١٢١ .

القصيدة ، أن شوقيا قال في السلطان «وحيد الدين» بماكان شائعا وقتذاك من أنه خان أمته ومالأ الانجليز عليها ، وما أشبه ذلك من الأقاويل التي كان الكماليون يذيعونها ، وكانت تنشر في الخلق، وتجد هوى في نفوسهم لشدة ماعاني أهل مصر ، وأهل الشرق أجمع من ظلم الإنجليز ، وماوقر في قلوب الناس من بغضهم " (١) .

ويبين الأمير سبب تلك المقولة عن السلطان «إن حقيقة الحال هي أن السلطان «وحيد الدين» خاف الإنجليز وخشيهم بعد احتلال الاستانة فأطاعهم خوفا لاخيانة ، ولم يذهب إلى الأناضول وينضم إلى رجال الحركة الوطنية اعتقادا أنه إن خرج من الآستانة فلن تعود إلى المسلمين أبدا لاسيما وأن الإنجليز وغيرهم من الأجانب يتحينون الفرصة لإعادة «القسطنطينية» إلى الروم ، وقد استغل الأتراك الثوريون هذه الفرصة فاتهموه بالخيانة والخروج على الأمة حيث كانوا يمهدون لاسقاط آل عثمان ، واسقاط الخلافة الاسلامية " (٢) .

ثم إن الشعراء لم يكونوا على منوال «شوقي» ، بل نجد «أحمد محرم» ، و«أحمد رفيق المهدوي» (٣) يشيدان بمصطفى كمال ، وفي نفس الوقت يربطان بينه وبين آل عثمان ، والخلافة عموما ، فهذا «أحمد محرم» يطري «مصطفى كمال» و«الجيش التركي» في ملحمته الطويلة :

---

(١) السابق ص ١٢١ .
(٢) نفسه ص ١٢٣ .
(٣) أحمد رفيق المهدوي البرقاوي ، ولد سنة ١٣١٦هـ/١٨٩٨م ، تعلم بالاسكندرية ، تقلب في عدة وظائف ، وعمل بالتجارة ، وعاش فترة بتركيا ، يعتبر من أبرز شعراء ليبيا في العصر الحديث ، وظف جل شعره لخدمة قضايا وطنه ، له ديوان شعر ، توفي سنة ١٣٨١هـ/١٩٦١م . الأعلام ١/ ، دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربي ، د. محمد الحاجري ، الشعر والشعراء في ليبيا ، د. محمد الصادق عفيفي .

ومامُلكُ الهـلال بمستبـاحٍ
وإن غَفَتْ القواضبُ عنه حينا
لها خُلُقُ الصَّواعقِ حين تُغفَى
فما يُمسِكْنَ حتى يُرتمينـا
تبيتُ على مَضاجعِها المنايا
مُولَّهةً تظنّ بها الظّنونـا
تقرُّ وتفزعُ الدّنيا وتأبـى
ممالكُها الهوادةَ والسّكونا
....
لئن ظنّوا بجالينوس شرّاً
لقد عَرفوا النّطاسيَّ الأمينا
متى يلمسَّ مكانَ السّوءِ منهم
يُمِتْه وينزعِ الدّاءَ الدّفينا
مسيحٌ من بني عثمان سَمْحٌ
يُرينا الحقَّ أسطعَ واليقينا
أعزَّ اللّهُ دولَتَهُ وأحيـا
بهِ أُممَ المشارقِ أجمعينـا

فالشاعر جعل الملك ملك الهلال رمز العثمانيين ، وأشاد بمصطفى كمال وسماه «جالينوس» الطبيب الشهير كأنه شخّص داء الأمة وعالجه ، فإذا لمس مكان السوء ينتهى من حينه "يمته"، وينزع الداء ولايبقى له أثرا فهو مسيح من بنى عثمان فى ابراء الأدواء ، فالشاعر وإن أعلى من شأن القائد التركى إلا أنه نسبه إلى «بنى عثمان» ، وهذ ربط واعى فى غاية الأهمية .

ويمشى الشاعر فى ظلال قوله تعالى : {وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى باذن الله} (١) .

---

(١) سورة آل عمران : ٤٩

ويزيد الشاعر ربط تلك الانتصارات بالخلافة ، فالغازى يرفع الهلال وينشر اعلامها ، بل إن يديه التي يرمى بها هى "يد أمير المؤمنين" .

اذا ما الظُّلمُ ذو الزّلزال أمسى
يهُزُّ الأرضَ بالمستضعفينا

فحسبُ المؤمنين دفاعُ رامٍ	يداه يدا أميرِ المؤمنينا
تطلّعَ والهلالُ يميلُ غرباً	وأعلامُ الخلافةِ ينطوينـا
فأشرقَ يستقيمُ على يديْـهِ	وعُدْنَ به خوافِقَ يعتلينا

ويشير الشاعر من طرف خفى إلى أن الولاء يجب أن يكون لآل عثمان ، وأن من لم يرع ذلك العهد "فإن الله مولى الصادقينا" .

بنى عثمانَ من يكُ ذا امتراءٍ	فإنّ نفوسَنا لايمترينا
ومن يَرْعَ الذّمامَ لكم فيصْدُقْ	فإن اللّهَ مولى الصّادقينا
نصونُ العهدَ إلا مانسينا	وكيف يضيعُ حقّ اللّهِ فينا

ويصف المحاربين الأتراك بأنهم أبطال الخلافة .

تنفّست المشارقُ حين صاحوا	بأبطالِ الخلافةِ بارزينا

ويخصص بعض الأبيات لبيان مجد بنى عثمان وبأسهم وصدق إيمانهم :

بنى عثمانَ مَنْ يضربْ بسيفٍ	فما زلتم سُيوفَ الضّاربينا
....	
خُلقتُم للجلادِ وأرضعتْكم	ثُديُّ الأمّهاتِ مدرَّبينا
....	
سمَوْتُم فى الشّعوبِ بمُنجباتٍ	يُفئْنَ إلى غطارِفَ مُنجبينا

بل إن من يتنكر لبنى عثمان فإنه يتنكر لأمله ، لأنهم أفضل الناس وأصدق الأمم ، وأهاب بهم رسول الله لحماية دين الله والجهاد فى سبيله ، فلبوا النداء مدججين بالسلاح .

فإن يجهلْ بني عثمانَ قومٌ ... فما عرفوا الأبوَّةَ والبنينا
يَحلّون الكتابَ حمى نفوسٍ ... حَلَلْنَ من السَّماءِ بحيث شينا
أهاب بهم رسولُ الله هُبّوا ... فَهبّوا بالسُّيوفِ مُجاهدينا

ويؤكد ولاء المحاربين الاتراك للخلافة بقوله :

يُنادون الخلافةَ لاتراعي ... فلن نَرضى لتاجِكِ أن يهونا
إذا باتَ العرينُ بغيرِ حامٍ ... وريعَ حمى الخلائفِ فاذكرينا
لكِ المهجاتُ نَبذلها فداءً ... ولسنا في الفداءِ بمسرفينا

ويزيد على تلك الأوصاف ، أنهم يحاربون وحدهم في وقت نكصت بقية الشعوب الإسلامية عن الجهاد ، وينصرون الله ويجاهدون في سبيله .

ويتحدث الشاعر عنهم بضمير المتكلم لأنه يؤمن بانتمائه لهم ، وعمق الرابطة الإسلامية بهم .

نُجاهدُ وحدَنا ونراه حقّاً ... وإنْ نكَصتْ شعوبُ المسلمينا
ونحن القومُ لانَخشى المنايا ... ولانتهيّبُ الحربَ الزّبونا
علينا أن نُجيبَ إذا دُعينا ... ونصدُقَ في الوغَى مَنْ يبتلينا

....

إذا الخطباءُ للتّعليم هَبّوا ... خطبْنا بالسّيوف مُعلّمينا
ونكتبُ في الملاحم ما أردنا ... إذا التحمت صفوفُ الكاتبينا

....

لنصركَ ربّنا خضنا المنايا ... وفيك وفي رسولِك مالقيَنا
دعوتَ إلى الجهادِ ونحن صرعى ... فما أبتِ السيوفُ ولاعمينا

....

نضجّ مكبّرين إذا رُمينا ... ونستبقُ الجِنان إذا رُمينا

ولكن الشاعر وإن أشاد بالمحاربين الاتراك وقائدهم ، إلا أنه هجا السلطان المخلوع "وحيد الدين" ، وانطلى على "محرم" ما انطلى على "شوقي" من أن ذلك السلطان ذليل برغم عز الخلافة

وانه أذعن للمفسدين ، بل يصل به الحد أن جعله فى مصاف المجرمين ويقرنه بالشريف «الحسين بن على» (١) فى الخروج على الخلافة ، إذ هوى الاسلام صريعا بينكما :

تذلّ وماعلى الغبراء عزّ كعزّك لو رأوك به ضنينا
وتُذْعِنُ للتحكّم فوق عرش تَدينُ له قوى المتحكمينا
وتقضى الأمرَ مفسدةً وشراً ومثلُك لايُطيعُ الآمرينا
أكنتَ خليفةً أم كنت شاةً تولتْ تتبعُ الذئبَ اللّعينا
ومالِلْمجرمين إذا رأوها يثورُ غبارُها مِن شافعينا
وحسبُك بالحسين خدينَ صدقٍ إذا اسْتَصْفيْتَ فى الدُّنيا خدينا
هَوى الإسلامُ بينكما صريعاً وطاحَ بنوه حولكما عزينا (٢)

فى أوقات المحن والفتن العصيبة يتعذر الإنصاف ، وتمييز وجه الحقيقة ، فالخليفة تراءى «لمحرم» شاة تتبع الذئب والمجرمون يشعلون نار الفتنة ، ويحرقون بها ، وتزداد سعادتهم كلما رأوا غبارها يصاعد ، ولن يكون لهم من شفيع إذا جاء يوم الحساب .

ولايريد الباحث أن يغبن الواقع التاريخى على حساب الشاعر ، فجمال الأداء لايستقيم بتزييف الواقع ، أو طمسه ، كما لايكفى فى مثل هذا المقام القول بأن صدق إحساس الشاعر وحده هو المعول عليه ، والعبرة فى الحكم هو صدق المشاعر وجمال التخييل .

ومن هنا يجوز لى القول إن «محرم» أجحف بالرجل الذى تآمرت عليه القوى فى الخارج وفى الداخل ، وحسبت أوربا حساباتها الدقيقة لتجهز على دولة الخلافة .

---

(١) قائد الثورة العربية كما سيأتى .
(٢) ديوانه : السياسيات ٢/٥٦٩-٥٩٩ .

"محرم" وإن كان قدح في "محمد وحيد الدين" لتراخيه في سياسة الدولة حسب زعمه فإنه أطرى السلطان "عبد المجيد" (١) ، فكما أن أخاه كان شؤما على الشعوب الإسلامية ، كان هو خيرا لها ، وفي زعم الشاعر أن أحدا من خلفاء الدولة لم يبلغ شأوه ، لدرجة أن البيت لو سعى مباركا لأحد قبله لسعى اليه ويزعم أن الملائكة أتت إلى سدته طائفين مهنئين .

ومحرم في النص الذى معنا فوق مايؤكد من ولائه العميق للخلافة وللخليفة فإن معانيه الجزئية التى تنعقد عليها أبياته ، بل الصور والأخيلة التى تتضمنها هذه الأبيات كلها تمتح من عاطفة إسلامية مشبعة بحب الإسلام ، والانطلاق من هذا الحب المكين إلى كل المعاني والتصورات .

يخاطب السلطان "عبد المجيد" قائلا :

أميرَ المؤمنين طَلعْتَ يُمناً	وكنْتَ الخيرَ للمتيمِّنينا
ومابلغَ الجلالُ وإنْ تناهى	جلالَك في الهُداةِ الطالعينا
لو أنَّ البيتَ سارَ إلى إمامٍ	لجاءَك بالوفودِ مهنِّئينا
أتى جبريلُ يشهدُ حين حيَّا	رسولُ الله خيرَ الشاهدينا
لعمرُ المنكرين لقد توالَتْ	بسُدَّتِك الملائكُ طائفينا
لئن جحدُوا الذى لكَ من ولاءٍ	فقد بلغ "الصَّفا" وأتى "الحُجونا"
عقدْنا العهدَ إيماناً ومجدا	كذلك عهدُنا في العاقدينا

ويذكر في ثقة واعتداد أن منهج حكومته هو سبيل "محمد" صلى الله عليه وسلم ومن اهتدى بهداه ، وأن أمرهم شورى بينهم :

---

(١) عبد المجيد الثاني بن عبد العزيز ، ولد سنة ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م أصبح خليفة بعد إلغاء السلطنة سنة ١٣٤٠هـ حين أضحى مصطفى كمال رجل الأتراك ، إذ جرده من السلطة ، ثم ألغى الخلافة ، وطرد عبد المجيد وعاش منفيا بفرنسا الى أن مات .
انظر : تاريخ الدولة العلية ، التاريخ الاسلامي – العهد العثماني ١١/

تباعد عهدُهم فمشوْا إليْه على نُورِ الكتابِ مُسدَّدينا
لِربِّك حُكمُه والأمرُ شُورى وتلك حكومةُ المُتحفِّظينا (١)

فاذا كان محرم قد مدح "مصطفى كمال" وأعوانه ، فإن رضاه كان بحذر وكأنه بإلهام الشاعر كان يترقب ويتوجس ، ولذلك لم يبث ولاءه الللخلافة ، ولم يهجر الخليفة ، على الرغم من إدراكه أن منصب الخليفة يتداعى رويدا ، وأن الريح السموم تهب عليه من الداخل ومن الخارج .

أما لغة "محرم" في هذا النص فكانت رصينة واضحة صحيحة ، ديدن المحافظين الذين جعلوا من حرصهم على الدين وعلى الكتاب حرصهم على لغته فلم يفرطوا فيها ، ولم يتهاونوا في سلامتها . لكن هذا لم يمنع الشاعر من التهويل والإغراق في بعض المعاني كقوله :

خلقتم للجلاد وأرضعتكم ثُديّ الأمهاتِ مدرّبينا

وكقوله :

لعمر المنكرين لقد توالتْ بشدّتِك الملائكُ طائفينا

كما يلحظ الباحث جنوحه إلى الألفاظ الحماسية في مواضع كثيرة : يطوح – يهز الأرض – غطارف – لانخشى ولانتهيب ... وغير ذلك من الألفاظ المبثوثة في ثنايا القصيدة .

ومما يؤكد هذا الجنوح انه حالما وصل في النص إلى هجاء السلطان المخلوع تخير ألفاظا هي غاية في الحدة ، فهو كما يشاع مجرم غادر ، ويقرنه "بالشريف حسين" الذى استقر لدى العامة خروجه على الخلافة وممالأته لعدوها .

ولاينفرد "محرم" بالاتجاه الذى أشرت إليه ، وهو الإعجاب "بمصطفى كمال" وإكبار النصر الذى يحرزه الجنود الأتراك دون خروج على ولائه للخلافة وللخليفة .

---

(١) السابق ٢/٥٩٨-٦٠٢ .

فالشاعر الليبي "أحمد رفيق المهدوي" يشيد بنصر العثمانيين ، وبهزيمتهم لعدوهم في أوربا ، ويدعو إلى اتحاد المسلمين ، والحفاظ على عهد أمير المؤمنين والولاء له .

هَزَموا الكفّارَ هزمـا	فتحُوا أزميرَ رغما
ماوفوا بالصلح سِلماً	غير فتحٍ بالقتال
يابني عثمان أنتم	بحمى الإسلام قمتم
يابني الإسلام كونوا	في اتحاد لاتخونوا
ولهذا الدينِ صونوا	بنفوسٍ وعيال
احفظوا عهداً أمينا	لأميرِ المؤمنينا (١)

ويمضي الشاعر العراقي "معروف الرصافي" (٢) على نفس السنن فيشيد "بمصطفى كمال" ويعلي من شأنه مع الاحتفاظ بولائه للخلافة والخليفة .

ففي مستهل إحدى قصائده ينعته بأنه سمي "المصطفى" ، وأنه بلغ أوج المعالي ، ويشبهه بالشمس في رفعتها ودورانها في فلكها ، ويذكر أن انتصاره على اليونان ترك الغرب كله في ذهول وحيرة مما وقع ببني دينهم .

---

(١) الشعر والشعراء في ليبيا ص ٦ ، ط/الانجلو ١٣٧٥هـ ، محمد الصادق عفيفي .

(٢) معروف بن عبد الغني الرصافي الكردي ، ولد سنة ١٢٩٤هـ ١٨٧٧م تتلمذ على يد محمود شكري الالوسي ، عمل في التدريس ، ورحل إلى الاستانة وعين معلما في المدرسة الملكية ، وانتخب عضوا في مجلس المبعوثان العثماني ، تولى عدة وظائف تعليمية وإدارية بعد الحرب العالمية الأولى ، من رواد شعراء النهضة وأبرز شعراء العراق ، وظف شعره في خدمة القضايا الوطنية والإسلامية ، له عدد من المؤلفات منها : ديوانه ، نفح الطيب في الخطابة والخطيب ، محاضرات في الأدب العربي ، وغيرها ، توفي سنة ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م .
انظر : معروف الرصافي شاعر العرب الكبير حياته وشعره قاسم الخطاط وآخرون .

ويستمر الشاعر في ولعه بالمبالغات الممجوجة ، والخروج ببعض المعاني إلى إحالات لايستريح إليها العقل أو القلب ، فيونان ليسوا اكفاء لك وجيوشهم في رعب شديد منك ، إلى حد انهم لو ذكروا اسمك في نومهم لتعذر عليهم النطق به إلا تلعثما من شدة فزعهم .

سميَّ المصطفى لازلتَ تعلو — إلى أوجٍ يطاولُ كلَّ أوجِ
فدرْ كالشمسِ في فلكِ المعالي — وحلّ من الكمالِ بكلّ برجِ
نصرتَ على بني يونان نصراً — اقامَ الغربَ في هرجٍ ومرجِ
وأطلعَ في سماءِ الشّرقِ شمساً — تفيضُ عليه أنوارُ التّرجي
فسرَّ المخلصينَ وكلَّ حرٍ — وساءَ الخائنين وكلَّ سَمْجِ
وما اليونانُ كفؤك في نزالٍ — وإنْ ملئوا السّهولَ وكلّ فجِ
ولكنْ قد غَلبْتَ جيوشَ قومٍ — اذلّوا بالبوارجِ كلَّ لجّ
تركت جيوشَهم من فَرْطِ رُعْبٍ — تُعاهدُ للهزيمةِ كلَّ نهْجِ
إذا ذكروا سماكَ ولو مَناما — تحامَوْا ذكْرَه بسوى التّهجي

ثم يستوقفنا الأبيات التالية من النص لانها تدل على ما استقر في النفوس تجاه حركة «مصطفى كمال» أول الأمر ، وانها تتطلع إلى تحرير المسلمين من التخلف ، وتستنهض هممهم للحاق بأمم الغرب التي شرعت تجدّ جدها في التقدم المادي ، يقول فيها :

وقمْتَ على البلادِ مقامُ عيسى — على مَرْضاهُ من عميٍ وعرْجٍ

والبيت عكس شعورا بالمضاضة والتعاسة مما آل اليه أمر معظم المسلمين الذين هم أشبه بجموع من المرضى العمى والعرج .

فعالجْتَ الفتوقَ بحسنِ رتْقٍ — ولاءمْتَ الخروقَ بحسْنِ نَسْجِ
ورحْتَ إلى التجدّدِ في المعالي — تقودُ الناهضين بها وتُزجي
وتَخْطبُ في الجموعِ بيومِ حفْلٍ — كما خُطَبُ النّبيُّ بيومِ حجٍ

وتنهجُ منهجَ العُمران فيما ... بها للناس من دخلٍ وخرج
إذ ذُكر الهبوط فأنت مَعْقِل ... وإن خيفَ الحبوطُ فأنت مَنْج
وتشرب كأسَ المجدِ صِرفاً ... ويشربُها سواؤك ذاتَ مَزْج (١)

ويبدو أن الرصافي قد قادته حميته وحسن ظنه إلى ما انحدر إليه غيره من الذين أحسنوا الظن بحركة «مصطفى كمال» لأنها وافتهم في شدة الغلس، والناس في فجر مما حاق بالدولة والخلافة، على أن الرؤية الصحيحة لحركة «مصطفى كمال» لم تتضح على حقيقتها، ولم تتكشف نواياها إلا بعد أن أوقد بقية النار بالخلافة.

و«الرصافي» وقع في مبالغات مرذولة في قرن «مصطفى كمال» «بالرسول» صلى الله عليه وسلم، وبعيسى «عليه السلام».

ولغة القصيدة تعتمد على السرد كأن الشاعر يسجل الوقائع بألفاظه تسجيلا تاريخيا، وهو إلى ذلك يلجأ إلى بعض المحسنات التي حرص شعراء التقليد على ترديدها والإكثار منها - برغم مكانته بين شعراء النهضة - كالطباق والمقابلة في قوله :

فسرَّ المخلصين وكلَّ حرٍّ ... وساءَ الخائنين وكلَّ سَمْج
وتنهجُ منهجَ العمران فيما ... بها للناس من دخلٍ وخرْج

إلا أني أعتبره موفقا في اختيار روي الجيم لما يمتاز به صوت الجيم من أسر يناسب موضوع النص.

(١) ديوانه ١/٤٣٨-٤٣٩، ط/الاستقامة، القاهرة.

استعداد اليونان للقتال وتأهبها :

كان مما اتخذه اليونانيون في محاربة الأتراك هو إثارة الرأي العام اليوناني أو كما يقول شوقي حسنوا للشعوب التي لاتدرك مغزى لأهداف قوادهم مهاجمة الأتراك .

هم حسّنوا للسواد البُلهِ مملكةً
مِن لِبْدَةِ الليث أو من غِيلةِ الأشِبِ
وأنشئوا نُزهةً للجيش قاتلةً
ومن تنزّه في الآجام لم يؤبِ (١)

ولذلك جيشوا الجيوش استعدادا لخوض المعركة ، وملأوا جبال آسيا الصغرى وسهولها ولكنها ماكانت لتثنيهم عن الهزيمة .

ويصور شوقي استعدادهم بأسلوبه المميز حيث قال :

لم يغنِ عن قادةِ اليونان ماحَشَدوا
من السلاح وماساقوا من العُصَبِ
وتركهُم آسيا الصغرى مدجّجةً
كثُكْنَةِ النحل أو كالقُنفُذِ الخشِبِ (٢)

ويبين صالح النيفر (٣) أن اليونانيين جمعوا جموعا من طغام الوحوش وأغروهم بالمال لمحاربتنا ، وأعدوا السفن لمحاولة إرهابنا .

فكم جيَّشوا من طَغَامِ الوحوش	وكمْ من لُجينٍ لهم باذلين
وكم من سفينٍ وكم من شظاةٍ	ومامُقْلِكَاتٍ بها قاذفين

---

(١)،(٢) ديوانه : الشوقيات ١/٦٠-٦١ .
(٣) محمد صالح النيفر ، ولد بتونس سنة ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م درس بالزيتونة وتخرج منها ، نظم الشعر مبكرا ووظفه لخدمة قضايا أمته الاسلامية ووطنه .
انظر : الأدب التونسي في القرن الرابع عشر .

وكمْ أرهبوْنا وكم أرهقوا   ولكنهم جهلوا مَن نكون (١)

ويرى «عبد الحميد حمدى» (٢) أنه لولا الدول الاستعمارية الأوربية أمدّت اليونان بالمال والسلاح ماكان لها أن تجرؤ على منازلة الأتراك ، مع السخرية باليونانيين وأنهم لايحسنون الحروب .

منْ يُنجدِ الذئبَ المغيرَ على الحمى
وورائه يتحفّزُ الضّرغام
همْ أنجدوهم يومَ ظنّوا أنّهم
واتتْهمُ من تركيا الأعوامُ
هم زوّدوهمْ بالسيوفِ وبالْقنا
هل يُحسن الحربَ الضروسَ غلامُ
هم أطلقوهُم يطلبون فريسةً
أتصيدُ آسادَ الشّرى الأغنامُ (٣)

جرائم اليونانيين :

بين «أحمد محرم» جرائم اليونانيين فى موضعين من ملحمته ويشير «أحمد خير الدين» إلى ذلك فى ثلاثة أبيات ، بينما لم أجد أحدا سواهما يشير إلى ماارتكب من جرائم برغم فظاعتها وماذلك إلا لأن قصائد هذه الحرب قيلت فى أزمنة متفاوتة ، فبعضها قيل إبان سطوة اليونانيين وبطشهم ، وبعضها قيل أثناء الانتصارات التركية .

---

(١) الأدب التونسى فى القرن الرابع عشر ١٧١/١ .
(٢) عبد الحميد حمدى ، ولد بمصر من كتاب الصحافة بها ، اشتهر بمجلة السفور إذ كان من دعاة السفور ، وفتح لهم صحفه قبل انتشار وبائه بمصر ، عمل زهاء خمسين عاما بالصحافة ، توفى بالقاهرة سنة ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م . الأعلام ٣/ .
(٣) جريدة الأخبار عدد ٧٧٧ فى سبتمبر ١٩٢٢م .

وقد وفق محرم في بيان جرائم اليونانيين كما وفق في الإشادة بانتصارات الأتراك ، فنلفيه يوضح ما ارتكبه اليونانيون من فظائع في الحرب فيقول متسائلا متجها إلى الديار التي كساها الشحوب بعد الحسن ، ويخاطب الضمائر الحية أن يسألوا تلك الديار وما حاق بها من ظلم "كلون القار هن به طلينا" .

ألمْ تسلِ المدائنَ كيفَ بادتْ	ألمْ تبكِ المنازلَ إذ بُلينا
كساهنَّ الشُّحوبَ بليً عبوسٌ	وكانَ الحُسنُ ممَّا يكتسينا
سَلِ الأطلالَ من سُفْعٍ وسودٍ	أهنَّ إلى النَّواعبِ ينْتمينا
أُتيحَ لهنَّ من ظُلمٍ طِلاءٌ	كلونِ القارِ هُنَّ به طُلينا

ويخاطب الديار متسائلا أيضا متى زالت معالمك ، وهل حل بك بركان كبركان "فيزوف" ، "أم اخترمتك أيدي الساخطينا" ، أم أنه طوفان الجحيم ألم بك ؟

ويصور هول ما جرى فالنفوس على غوارب ذلك الموج حيارى تارة تلتقي وأخرى تفترق ، والنار تأكلهم الوفا مؤلفة لاذنب لهم ، وهم بين مستكين لما حل به ، ومن جافل ذاهب على وجهه ولكن النار تغشى كل مكان فلامفر من الموت .

ديارَ عُمومتي وبلادَ قومي	متى دُرستْ رسومُكِ خَبِّرينا
أثارَ عليكِ من فيزوفَ سُخْطٌ	أم اخترمتْكِ أيدِي السَّاخطينا
تفجَّرَ فيكِ طُوفانٌ جحيمٌ	هوى بكِ موجُه في المُغرقينا
لئنْ جاشَ العُبابُ فذُبتِ فيه	لقد ذابتْ نفوسُ السَّاكنينا
جرَيْنَ على غواربِه حَيارَى	ذوائبَ يفترقْنَ ويلتقينا
تظلُّ النارُ تأكلُهم ألوفاً	وليسوا بالعُصاةِ المُذنبينا
تُصيبُ المُذعنينَ فتحتويهمْ	وتعصفُ في وجوهِ الجافلينا
وتغشى كلَّ منزلقٍ ومثوَى	فيذهبُ كيدُها باللاجئينا
إذا مالَ السبيلُ بها فحارتْ	هدتْها صيحةُ المُستصرخينا

ولاشك أن استعمال الشاعر للنداء وتنويعه فى الاستفهام مما يشحذ ذهن المتلقى ويرسخ فى ذهنه المأساة .

وفى هذا المقطع يسوق صورة عن الجرائم المقترفة فهذه امرأة ناعمة شابة «ذات طفل يضىء وسامة ويرف لينا» ، تحضنه أمه «وتضم منه رياحين الرياض إذ ندينا» ، ولكن لهيب المعركة قد دهاها ، ورزئت بأهلها .

فكيف كان المهد بالنسبة لها ، وكيف كان الثدى لطفلها وتطلب طعاما عله يسد مابها من الرقم .

وناعمةِ الشّبيبةِ ذاتِ طفلٍ يُضىءُ وسامةً ويَرفُّ حينا
تلوذُ بمهدِهِ وتضمُّ منهُ رياحينَ الرياضِ إذا نَدينا
دهاها الخطبُ أحمرَ فى نُفوسٍ لَبِسْنَ الموتَ أسودَ إذ دُهينا
فعادَ الثّديُ فى فِمِهِ لهيباً وعادَ المهدُ فى يدِها أتونا
تثورُ فلاتريدُ سوى طعامٍ ولايُغنى القِرى فى المُطعمينا

ثم يورد صورا أخرى ارتكبت باسم الصليب - كما سيأتى - وهو يشير بذلك إلى تعصب يونان واستباحتهم للأعراض وقتلهم الأطفال والشيوخ باسم «المسيحية» .

رموا باسمِ الصّليبِ فما أصابوا ولاوجدوا الصَّليبَ لهم مُعينا
ومايرضَى المسيحُ إذا استباحت دمَ الضعفاءِ أيدى الآثمينا
ولا العذراءُ حين ترى العَذارى جوازعَ ينتحِبْنَ ويَشتكينا
رأت جللاً من الأحداثِ نُكْراً هراقَ العينِ واعتصرَ الجبينا
رأت حورَ الجِنانِ مُمرَّعاتٍ يُقرّبْنَ النفوسَ ويَفتدينا
يقلْنَ لها حنانَكِ أدْركينا فقد أزْرى بِنا ماتعلمينا
أقومُك أم ذئابٌ عادياتٌ وأمرٌ يسوءُ أمْ ماتأمرينا
أقاموها على الخلطاءِ حرباً تدكُّ مزاعمَ المتحضّرينا
فما هابوا الفتى والشيخَ فيها ولارحمُوا الرضيعَ ولا الجنينا

ولاتركوا بناتك ناجيات ولاخفروا ذمامك مجملينا (١)

وظاهر أن الشاعر ركز على النساء والاطفال وأشار إشارة إلى الشيوخ وماذلك إلا لأن نواحي العرض عند الأمم الحرة لاتستباح ، ثم إن الضعف وعدم القدرة على تحمل المشاق وويلات الحروب الصق بهن وبأطفالهن .

ويطلب «احمد خير الدين» من صاحبه أن ينظر إلى الديار وماحل بها من أولئك العلوج ، حيث دكوا الجوامع والآثار ، وانتهكوا شعائر الدين ، وحرقوا ونهبوا ، وماذلك إلا لأنهم لايرقبون في الاتراك إلا ولاذمة ، ومثلوا بالقادة الذين وقعوا بأيديهم .

قفْ بالمعاهدِ وانظرْ ماالذي فعلَتْ
تلك العلوجُ وحكِّم فكرَ ذي أدب
دكّوا الجوامعَ والآثارَ وانتهكوا
شعائرَ الدينِ من حرْقٍ ومن نهبِ
لايرقبوا فيكمُ إلا ولاذمماً
ويمْثلون بقومٍ قادةٍ نجبِ (٢)

ويشير في البيت الأخير إلى قوله تعالى : {لايرقبون في مؤمن إلا ولاذمة} (٣) .

ويقول في قصيدة أخرى مصورا بغي «اليونانيين» و«الانجليز» الذين استباحوا الأعراض وانتهكوا الحرمات .

الا ياليلةً اثخنْتِ فينا وساءَ المسلمينَ بك احتلالُ
اما يكفيكِ ماصنعتْ علوجٌ اما لهمومِك الجلّى زوالُ
قد احتلوا البلادَ وناصبُوها ضروبَ البغي واحتكمَ الضلالُ

(١) ديوانه : السياسيات ٢/٥٧٠-٥٧٢ .
(٢) الأدب التونسي في القرن الرابع عشر ٢/٩٤ .
(٣) سورة التوبة : ١٠

وسنّوا للقضا ويلاه حكماً ... تذوبُ لقسوةٍ فيه الجبال
وأبدى الإنجليزُ فِعالَ سوءٍ ... تشيبُ لها المفارقُ والقَذالُ
أباحوا عِرضَنا قسراً ومدّوا ... رُواقَ الظلم واتّسعَ المجال
وجوهٌ زانَها ربُّ البرايا ... حسيراتٌ بها انتحرَ الجمال
وكمْ نادى لدى الظلماتِ شيخٌ ... وقد أضناهُ في السجن اعتلال (١)

هزائم اليونان :

منى اليونانيون بهزائم متتالية في هذه الحرب فصور بعض الشعراء تلك الهزائم كل على طريقته . فهذا أحمد خير الدين يشبه "أثينا" وماوقع لها بشخص حزين كئيب ، ويجرد منها امرأة أجهشها البكاء ، ولبست ثوب الحداد دلالة على الحزن الذى انتابها ، وغلب عليها اليأس والقنوط ، إذ تخلى كل عن مسؤوليته نجاة بنفسه ، سواء الملك أو الوزير أو بقية أفراد الشعب بل لجأوا جميعا إلى الهرب .

ثم أشار إلى مطالبةِ اليونانيين ملكهم بالتنازل عن العرش ، ولكن تنازله ماكان ليفيد في تضميد مالحق بهم من جروح ، ويسألهم ساخرا أين مطامعكم ، وأين أمانيكم وآمالكم ؟

أثينةُ اليوم تبدُو في مناظرها ... كمثلِ شخصٍ لفَرْطِ الحزْنِ مُكتئب
أثينةُ برزتْ تبكي وقد لبِسَتْ ... ثوبَ الحِداد شعارَ الحزْنِ والغلب
تَمَاطَلَ اليأسُ وانسابُ القُنوطُ بها ... وصاحَ فيها غرابُ البينِ بالقَضَب

(١) السابق ٨٩/٢ .

فلاوزيرٌ لهـا يحمى وزارتهـا
ولامليكٌ ومـال القوم للهرب
إنى أرى ملكاً تبغى رعيتـه
منه التنازل "قسطنطين" فى تعب
فما تنازله يبرى جروحكم
"فالصيفُ ضيعت" ماقد قاله العربى
أرى تنازله لم يجنكم ثمراً
أين الوعودُ ومافهتم من الخطب
هى المطامعُ لاتلووا على فئةٍ
حتى تدهورها فى هوةِ العطب
هى الأمانى التى فاقت بوارقها
نارَ الحُباحب ظلت فكرَ ذى أرب (١)
"لويدُ جورج" قد فلت مضاربكم
خابت ظنونكم واضيعة الأرب

ويصور محمود صادق فى قصيدته "ذكرى النصر الخالد" أطماع اليونانيين وأمانيهم، وأحلامهم التوسعية، وكيف أنها ذهبت سدى ولم يجنوا من حربهم إلا الخسران.

تقوضتِ الأطماعُ وانهارتْ المُنى
كذلك ساءت بالبغاةِ المراتع
تفتح هذا الحلمُ عن يقظةِ الردى
فما الجنةُ الفيحاءُ إلا بلاقع
فأينَ مغانيهم وأين جموعُهم
مصايفهم أقوت وتلك المرابع
وأين الذى شادوا هناك وطنبوا
مرابضُ عفتها الوغى والوقائع

---

(١) السابق ٢/٩٤ .

وأين دعاواهم وكيف اقتدارهم

وما هو في قبضة الموت شافع (١)

ويلحظ أنه استخدم أداة الاستفهام "أين" وكررها زيادة في السخرية والاستهزاء وبيانا لأطماعهم .

ويتحدث "الخزنة دار" عن خيبة ظنونهم ، وكيف ضاعت أمانيهم ، وما حل بهم من الهزيمة ، وظل من نجا منهم من القتل شاردا هائما على وجهه لايدرى أين يذهب ، لأنهم ذعروا من الليوث التركية .

خابت ظنونُ بنى اليونان وانعكست

تلك الأمانى وضاعَ الحلمُ بالأرَب

ظلت بقاياهُ فى الأنحاءِ شاردةً

لم تدرِ أيّان مُرساها من التعبِ

قد أذعرتْها ليوثُ التركِ فانتشرتْ

منها شَعَاعاً ولجَّ الرومُ فى اللّجب

ثم يتحدث عن سوء سياسة ملك اليونان ، والشعب مغرور والقائد خرف ، ملقى للدسائس ، حسن لهم مهاجمة الاتراك دون أن يقدّر العواقب ، ويشير إلى عزل "قسطنطين" ، وشهرة "فينزيلوس" ، ولكنها ماكانت لها أن تغنى عن هزيمتهم وارغامهم على تسليم "طراكية " .

مغرورةٌ ساقها للنطعِ منهضُها

"لويد جورج" الخرِف المشغوف بالشّغب

فى روعها كيفما شاءَتْ سياسته

ألقى الدسائسَ بل فى جُحرها الخرِب

---

(١) ديوانه ص ١٥٥ .

فاستأسدت حيث أنساها محرشها
ماهؤلاء فلاقتهم على كثب

غطت على طرفها الأطماع فانخدعت
وساقها الجشع الممقوت للحرب

خابت وخاب سياسياً مؤيدها
والتف منتحب منهم بمنتحب

لاذت إلى الصلح وانحلت عزائمها
مما اعتراها ومالاقته من لغب

واستمنحت هدنة تبقى على رمق
لولا تورطها للرشد لم تثب

لم يشف إسقاط "قسطنطين" غلتها
ولا اشتهار "فنيزيلوس" بالخطب

للترك قد تركت رغماً "طراكية"
واستنزفت دمعة حرى لمكتئب (١)

وأما معروف الرصافي فعندما يهجو ويسخر يختار الكلمات المقذعة ، فهم الأم الأقوام وأخوفهم ، وحمير الوحش أحسن منهم وأرق طبعا ، وإن كانوا من ذوي البشرة البيضاء إلا أن طباعهم كطباع الزنوج .

هم اليونان الأم كل قوم
وأخوف في الوغى من فرخ قبج

أرق سجية منهم وأرقى
حمير الوحش سارحة بمرج

فلاتغررك أوجههم بياضاً
فإن طباعهم كطباع زنج

وجوه قد حكين الثلج لوناً
ولكن فاتهن نقاء ثلج (٢)

---

(١) ديوانه ١/١٣٤-١٣٥ .
(٢) ديوانه ١/٤٣٩ .

ويتحدث محمد عبد المطلب(١) في إحدى قصائده عن ظمأ القوات التركية، لكنها آثرت دماء اليونانيين على الماء الزلال ، لكن كيف ترويهم نفوس اليونانيين الذين هم أقل قيمة من التراب ، تلك النفوس التي شغلت بالأحلام القديمة ، وطلب المحال ، وأنها لم تتعظ بما حصل لها على مر التاريخ من هزائم ، وأن البغي شعارهم ولكنه أوردهم موارد الهلاك ، ثم إنه يفخر بالجيش التركي ويتحدث بضمير المتكلم استشعارا منه بوحدة المسلمين وأخوتهم أينما كانوا ، ثم يختم القصيدة بقوله إن اليونانيين ليسوا أكفاء لنا في الحروب .

وردْتَ بها وقدْ ظمئتْ نَجيعاً	أبتْ من دونِه الماءَ الزلالا
وماكانتْ لترويَها نفوسٌ	أرى من سامها بالتُّرْب غالى
رأت حُلماً به شُغِلَت قديماً	فثارتْ تطلبُ الحظرُ المحالا
نفوسٌ لم تؤدِّبْها الليالي	فلجّت في عمايتها ضلالا
ومن كانت مخيلتُه غروراً	تلمّس في أمانيه الخبالا

لقد ظنّوا الظنونَ بنا سَفاها

وراودوا البغيَ فانتجعوا الخيالا

كأنْ لم يعلموا أنّ المنايا	بأيدينا نصرِّفُها نِصالا
وأنّ لنا لدى الغاراتِ خيلاً	تجدُّ بنا إلى الموت اختيالا
وسُفعاً من مدافعنا غلاظاً	ندكّ بها المعاقلَ والجبالا

---

(١) محمد بن عبد المطلب بن واصل الجهني المصري ، ولد سنة ١٢٨٨هـ/١٨٧١م ، تعلم بالأزهر ثم دار العلوم ، عمل في عدة وظائف إدارية وتعليمية ، كان آخرها بدار العلوم يعتبر من رواد النهضة الشعرية ، امتاز بلغته الجزلة من كبار المناهضين للتغريب ، له عدد من المؤلفات منها ديوان شعر ، تاريخ آداب اللغة العربية ، اعجاز القرآن ، وغيرها . توفي سنة ١٣٥٠هـ/١٩٣١م .
انظر : شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي
الأعلام ٦/

وكيداً يترك البصراء عمياً ويترك لجّة الرّجاف آلا
وأياما ملأن الدهر هولاً عراضا فى بنى الدنيا طوالا
ومايونان إنْ جهلت بكفءٍ لنا يوم المغار ولامثالا (١)

ونلقى محرم يتحدث عن هزيمة اليونان حديث المستفيض فى كلتا قصيدتيه .

ففى إحداهما يصور كيف كانت أمانى اليونانيين فى لقاء الأتراك ولكن ماإن حمل اللقاء حتى انهار الملك ، وأما الشعب فأصبح فوضى لارابط يجمعهم بعد تفرق الملك ، وتناوب المصائب على البلاد ، إذ فى كل يوم يصاب بنكبة دهياء .

تمنّوا سيوفَ التُّركِ حتّى إذا مضت
مضَى المُلكُ وانهالَتْ عليه الفجائعُ
أرى الشعبَ فوضى والبلادَ كأنّما
تكفّتُها من جانبيها الزّعازعُ
أفى كلِّ يومٍ نكبةٌ مدلهمّةٌ
وناعٍ بأطرافِ البلادِ مُسارعُ
وفى كلِّ حينٍ نجدةٌ وإعانةٌ
يُشيّعُها قرضٌ لآخرَ تابعُ
لئن عمرتْ تلكَ الخزائنُ بالبِلى
لقدْ حَقَلَتْ منه الرِّيارُ البلاقِعُ

ثم يسخر من اليونانيين ، وكيف أن أجدادهم تركوا لهم ملكا عظيما لكن سوء سياستهم هوت بشعوبهم ، لذا فإن مايتمنونه اليوم هو مجرد خيالات شاعر لارصيد لها من الواقع .

---

(١) ديوانه ص ١٩٨-١٩٩ .

بنى الرُّومِ هلْ أمْشى علَى الارضِ يابسٌ
وهل فى الرُّبا من ذلك الغَرْسِ يانعُ
أضلكمُ البرقُ المليحُ وربَّما
أضلَّ وميضُ البرقِ والبرقُ لامعُ
ذهبْتم على آثارِ من طاحَ قبلكم
وفى الذاهبِ الماضى لذى الحِلْم رادعُ
أقاموا لكم مُلكاً تضيقُ بمثلِه
جوانبُ هذا الدهرِ والدهرُ واسع
هوتْ بشعوبِ الارضِ منهم سياسةٌ
لها شاعرٌ يُشْجِي الممالكَ بارعٌ
يُجِدُّ أفانينَ الخيالِ ويزدهى
أولى الشَّوقِ منه ذو تطاريبَ ساجعُ

ثم يؤكد تفرق ملك «قسطنطين» ، وشبهه بثوب مرتق ملفق ، وماذلك إلا لأن العثمانيين سددوا له الضربات من كل جانب ، ويسخر من اليونانيين هل بر حلفاؤكم بوعودهم ، وهل حققت آمالكم وأطماعكم ، وهل هذا هو الفتح الذى تزعمون ، والذى باركه حلفاؤكم .

ألم ترَ "قسطنطين" أصبحَ مُلكُه
كما صَدَعَ الثوبَ المُلَفَّقَ صادعُ
رماه بنو عثمانَ من كلِّ جانبٍ
فزُلْزِلَ حاميهِ وطاحَ المُدافِعُ
بنى الرُّومِ هل بَرَّت عهودُ حليفِكم
وهل صَدَقتْ آمالُكم والمطامِعُ
أهذا هو الفتحُ الذى طارَ ذكرُهُ
وضجَّ يُحيِّيه الحليفُ المُشايِعُ (١)

(١) ديوانه : السياسيات ٢/٥٣٠-٥٣٣ .

وينحو في قصيدة أخرى نحوا آخر في تصوير الهزيمة التي حاقت باليونان ، فيقول حين كرّت الجنود العثمانية على العدو مكبرة تولت جنودهم كالريح النكباء ، وطاروا فزعين مشردين كالنعام ، تكاد بلادهم وأرضهم تنكرهم وترتاب فيهم وهم مدبرون لكثرة ماأنزله بهم هوان الهزيمة ، ومن هلعهم يدبرون مدمرين مايعوقهم عن الفرار .

تولّوا كالرّياح تهبُّ نكبًا ... وطاروا كالنّعام مشرَّدينا

تكاد الأرضُ تُنكِرُهم إذا ما ... تولّوا في الأباطح مُدبرينا

تكادُ بلادُهم ترتابُ فيهم ... إذا مرُّوا بهنَّ مُدمِّرينا

فذلك بأسُهم والبأسُ عجزٌ ... إذا رحم الضعافُ العاجزينا

وتلك سبيلُهم لاعيبَ فيها ... وإن زهقتْ نفوسُ اللّائمينا (١)

والمقطوعة حافلة بالصور الجيدة المؤثرة ، فهم عند اللقاء طاروا كالنعام ، وتولوا كالريح النكباء ، وهم في وقت الهزيمة تغير منظرهم وسحنتهم وكل مايبدو على سيماهم ، وذلك من ذل الهزيمة .

ويصور دخول اليونان مدينة "أزمير" مفتونين مغرورين ، يهزون سيوفهم ، ويزجون جيادهم ، نشاوى يحسبون الأسد تغفى إذا أجماتها يوما غشيت ، ثم يصورها وقد اقتحم عليهم الأتراك الأسوار ، ويرسل حكمة مشتقة من الواقع ، مقرونة بدليل صوابها .

أتوا أزميرَ يستعلون عِزًّا ... ويستبقونها مُتخايلينا

يهزُّونَ السّيوفَ بها اغترارًا ... ويزجون الجيادَ مُخدَّعينا

نشاوَى يحسَبون الأُسْدَ تغفي ... إذا أجماتُها يومًا غُشينا

وأقربُ مايكونُ الذئبُ حتفًا ... إذا هاج الضّراغمَ مُستهينا

---

(١) السابق ٥٧٠/٢ .

نزوها نزوةً لم يعرفوْهـا ... وكانوا قبلَ ذلك جاهلينا
أشادُوا بالفُتوح مُحجَّلاتٍ ... وصاحوا صيحةَ المُتبجِّحينا
أتوا غَرِقينَ في صَلَفٍ وكِبْرٍ ... وعادوا بالهوانِ مُخيَّبينا (١)

أما أشد نكبة ألمت "اليونان" كما صورها "محرم" فمصرع عدد من القواد والوزراء في تلك المعركة فتراهم "على عاري الصعيد مجندلينا" ولشدة وقع الهزيمة على نفس "قسطنطين" سالت دموعه حزنا على قتلى معفرين مضرجين بدمائهم ، فهرب نجاة بنفسه ، وأخذ يذم العرش ويلعن قومه الذين أوردوه مورد الهلكة ، وأخذوا يشنعون عليه فراره وهو الذي جاد بعرضه دونهم ، ويذكره الشاعر بفراره في معركة سابقة عام ١٣١٤هـ/ ١٨٩٧م إبان كان وليا للعهد، فيسخر منه ويمعن في سخريته بأسلوب أشد لذعا فيقول : لئن جحد شعبه مناقبه فمعارك "ملونا وبلاريسا" شاهدتان على بطولته وحسن قيادته ، وكان من صفاته أنه إذا حمي وطيس الحرب ارتد على أدباره ومن معه من الفوارس ، ومن صفاتهم أنهم لايرون الجبن عارا إذا نجوا بأنفسهم .

وكان من عواقب هذه الهزيمة الفادحة أن مات "قسطنطين" كمدا ولهذا أهاب الشاعر بمن يخلفه أن يتعظ به :

ترى القُوّادَ والوزراءَ صَرْعى ... على عاري الصَّعيدِ مُجندلينا
يُلاقون الحُتوفَ وما أساءوا ... ولاكانوا الجُناةَ الْخائنينا
تظلُّ دموعُ "قسطنطين" تَهْمي ... لِقتلى بالدماءِ مُضرَّجينا
تولّى خوفَ مصرعِهِ حثيثا ... وخابت حيلةُ المُتربِّصينا
يذمُّ العرشَ والتاجَ المُحلّى ... ويلعنُ قومَهُ في اللاّعنينا

---

(١) السابق ٢/٥٧٩-٥٨٠ .

يُعيبونَ الفرارَ عليهِ ظلماً وأىُّ النّاسِ يُرضى العائبينا
يجودُ بعرضِهِ ويصونُ منهم بقايا العارِ للمُستهزئينا
لئن جَحدُوا مناقِبَهُ وكانوا يُقيمون المواكبَ شاكرينا
فما جَحَدَتْ "بلاريسا" الرّوابى ولا الشُّمّ الفوارعُ من "ملونا"
إذا جدَّ النزالُ ارتدَّ يعدو وأقبلَ بالفوارسِ راكضينا
فوارسُ لايرون الجُبنَ عاراً إذا غَنِموا النُّفوسَ مُتاركينا
أقسطنطينُ مَتَّ وماأرانا على حبِّ البقاءِ بخالدينا
كفى بالموتِ محواً للسّكارى وشكراً للصُّحاةِ المُدركينا (١)

وصف المعركة :

برغم الانتصارات التى حققها الأتراك فى هذه الحرب ، ومن تعدد المعارك ، فإننى لم أجد الشعراء وصفوا تلك المعارك وصفا حيا يوازى ذلك الانتصار إلا ماكان من «أحمد شوقى» ، و«أحمد محرم» .

فأما «شوقى» فأشار إلى معركة "سقاريا" وهى من المعارك الحاسمة فى تلك الحرب قائلا :

ماكان ماؤها إلا من جهنم طغت فاجتاحت الإغريق وأغرقتهم فى لهيبها ، ويصور تصويرا رائعا كيف أن تلك النار صارت وقودا لها ، فكانت القيادة اليونانية تحملهم وتلقى بهم فى لهيب تلك النار ، كناية عن زجهم بجنودهم فى أتون الحرب ، وأن سوء تقديرهم فى سياستهم جعلتهم يعملون ذلك .

أما وكيف حدث ذلك النصر وما السبل التى انتهجت ؟

فإن القائد التركى «مصطفى كمال» زحف بجنوده كالسيل العرم ، لم يتركوا مكانا إلا أتوا عليه .

---

(١) السابق ٥٨٩/٢-٥٩٠ .

والجنود الاتراك تحملها الخيل السريعة "قذفتهم بالرياح الهوج" ، عليهم الخوذ والدروع ، هبت تلك الرياح مدمرة لجميع معاقلهم .

وكانت الخطة تقضي بضرب جناحي الجيش ثم النفوذ إلى قلبه وفعلا تم ذلك وهرب من سلم منهم ، والقوا بالسلاح الذى كان يقيد حركتهم عن الهروب ، إذ استولى الرعب على قلوبهم بل حتى المدخر والخافى تركوه نهبا .

ثم يسخر من اليونانيين سخرية لاذعة لانسحابهم بسبب الهزيمة ، لأنهم لو لم ينسحبوا فرارا لأبيدوا "تدعى الهزيمة فيه حسن منسحب" .

أما القائد اليوناني فأحاطت به الجنود التركية وقائدها ، وأسر وهو يدبر خطة الهرب والنجاة ، ولايدرى عندما احيط به ، هل أتى من الجبل أم من السهل ، وهذا دلالة على أنه كان مشغولا بالفرار .

ماكان ماءُ "سقاريّا" سوى سَقَرٍ
طَغَتْ فأغرقتِ الإغريقَ فى اللَّهبِ
لما انبرتْ نارُها تبغيهمْ حطباً
كانت قيادتُهم حمَّالةَ الحطبِ
زحفتَ زحْفَ أتيٍّ غيرِ ذى شفَقٍ
على الوِهادِ ولارِفقٍ على الهِضَبِ
قذفْتَهم بالرِّياحِ الهُوجِ مُسرَجةً
يحمِلْنَ أشدَّ الشرّى فى البَيضِ واليلَبِ
هبَّتْ عليهم فذابوا عنْ معاقِلِهم
والثلجُ فى قُلَلِ الأجبالِ لم يذبِ
لما مدَدتَ جناحيهم وقلبَهُمُ
طاروا بأجنحةٍ شتَّى من الرُّعبِ

جدَّ الفرارُ فألقى كلُّ معتقلٍ
قناتَهُ وتخلَّى كلُّ محتقب

ياحُسنَ ما انسحبوا في منطقٍ عَجَبٍ
تُدعى الهزيمةُ فيه حُسنَ منسحب

لم يدرِ قائدُهم لمَّا أحطْتَ به
هبطتَ من صُعُدٍ أم جئتَ من صَبَب

أخذتَه وهو في تدبيرِ خُطَّتِه
فلم تتمَّ وكانت خطةُ الهرب (١)

ولو تأملنا النص الذى معنا لوقفنا على أسلوب الشاعر وطريقته في استدعاء المعاني ، وحرصه على المحسنات ، وماتنطوى تراكيبه من أخيلة جزئية .

ففي البيت الأول مثلا "اسم سقاريا" استدعى الماء ، واستدعى سقر ، وكيف أن ماء المدينة صار جحيما من هول المعركة .. ثم إن الماء الحار طغى فاغرق الإغريق في اللهب فالعلاقة بين الماء والطغيان والغرق والإغريق هي التي شكلت المقصود في النهاية .

ولو تأملنا البيت الذى يليه لوجدناه متبعا نفس النسق فنار "سقاريا" تبتغي حطبا ليدوم اشتعالها ، وقوادها هم الذين يحملون إليها الحطب ليستمر تأججها ، ولاشك أن الشاعر لحظ التركيب القرآني "حمّالة الحطب" في وصف امرأة "أبي لهب" فاقتبسه هنا وولد في معناه .

وهكذا يقفنا هذا النص على جانب من أسلوب شوقي وهو أسلوب يعتمد على توالد الألفاظ ، والعلاقة بين دلالاتها ، والتركيز على الجانب الموسيقى في لغته الشعرية .

---

(١) ديوانه : الشوقيات ١/٦١-٦٢ .

ويعرض أحمد محرم لوصف المعركة في ملحمته ، وأول ما يواجهنا وصف النيران اليونانية ، فهي تعلو الآفاق ، وتقذف كل ما أتت عليه ، ووقف الناس حيارى والنار تتقاذفهم في كل جانب ، وهي كثيفة جدا لدرجة أنها طالت حمى النسور ، وارتفعت في عنان السماء ولاقت السحاب كأنها تريد أن تجعل لها أكنة فيه .

ويبالغ محرم في عظمة تلك النار فلولا أن ملائكة السماء حالت دون وصول النيران إلى القمرين لهويا .

ثم إن السموات ارتاعت من هول ما حل بالأرض ، ورأت كيف خضع أهلها لأولئك الجبابرة المدبرين لتلك المعركة ، ويختم المقطع بأن ما حدث هو قيامة الأحياء .

تظلُّ النارُ مِلءَ الأفقِ تعْلُو
وتقذِفُ بالحَيَارَى الذَّاهلينا

تُريدُ حِمى النُّسور فتتَّقِيها
وتطلبُ في السَّحاب لها وُكونا

فلولا الجوُّ يمنعُ جانبَيْهِ
ملائكةُ السماءِ مُرفرفينا

هَوَى القَمرانِ من فَزَعٍ والقى
حِمَى المرِّيخِ بالمُستضعَفينا

هِضابٌ قمْنَ من لَهَبٍ عليها
دخانٌ كالجبالِ إذا رُئينا

تطَّلعتِ السمواتُ ارتياعاً
والقتْ نظرةً تصِفُ الشُّجونا

ترى الأرضينَ كيف عنَا بنوها
لآلهةٍ عليها قائمينا

فتلك قيامةُ الأحيـاءِ قامت
ولمَّـا يأتِ وعدُ السَّالفينـا (١)

وبـرغم مكانـة «محرم» بين معاصريه وعاطفته الإسلامية إلا أنـه يستلفت البـاحث من هذا النص جانب المبالغة والتهويل بمـا يفـوق الـواقع ، ولكن الخيال الخصب يختلف عن التهويل والمبالغـة ، إذ الخيال الخصب علامة من علامات الفن الأصيل ، ولهـذا نجـد فـى الحركـة النقديـة التـى اضطلعت بها مدرسة «الديـوان» بعـد ذلك تحاملا على المبالغة واتهاما للشعر الذى يعتمد على التهويل .

فالنـار تعـاظمت حتى بلغت السحاب تريدها أكنة ، ولولا الملائكـة تمنع جانبى الفضاء لهوى القمران ... إلى آخر هذا التزيد الذى يسىء إلى حقيقة الخيال .

جوانب انفرد بها محرم :

عرفنـا أن محـرم نظـم قصيـدتين فـى هذه الحرب إحداها النونيـة بلغت أكثر من خمسمائة بيت ، والأخرى العينية بلغت أكـثر مـن مائة بيت ، وانفرد فى قصيدتيه بأحداث سايرت تلك الحرب بل هى جزء منها من ذلك .

تصويـر الشعب التركى وقـد أجـاب دعـوة «مصطفـى كمال» للمقاومـة بمختلف فئاته ، فمـا إن دعا «مصطفى» لمقاومة العدو حـتى أجـاب النـداء النسـاء على مختلف طبقاتهن بكر وطفل ، والرجال كذلك كهل ويافع .

ويصـف دور النسـاء فـى هذه المعارك ، وذلك فى قصيدته العينيـة حـين نهضـن للمشاركة فيها والعدو على أتم التأهب فأسيافهم اتخـذت مآزر لهن ، وسرن وقد اتخذن أعراف الجياد بـراقع لهـن ، ولكنهن مع ذلك قمن بدورهن فى المعركة "يبتن

(١) ديوان - السياسيات - ٢/ ٥٧٢

وراء الخيل يحمين سرحها" ، ثم يعرض بالذين لم يشاركوا فى هذه المعركة من المسلمين ويعد نفسه منهم "إذا بات منا فى الحشية وادع" .

ولاشك أن الشاعر كان بارعا فى إضفاء هذه الصورة على المرأة التركية . فالاستجابة الجماعية هنا دلالة على إحساس الناس بصدق القيادة لذلك التفوا حولها .

ثم يتحدث عن دور خالدة أديب[1] ومشاركتها بنى قومها بالقلم والسيف وكيف أنها انفردت بكلا السلاحين عن محرم الشاعر ، ولكنه قانع بدوره مع كل ذلك ، وأحب القوافى التى تبين شدة قناتك ، والقوافى التى تشرح صورة الآخرين ، والخطيبات والخطباء .

لَعَمْرى لنعمَ القومُ هبَّت سيوفُهم
تَهُزُّ شعوبَ الشَّرْق والشَّرُّ هاجعُ

أبَوا أن يكون الملكُ نِحلةَ مُفسدٍ
تُساق عطاياهُ وتُزجى القطائعُ

دَعُوا فانبرتْ للحربِ بِكرٌ ومُطفِلٌ
وخفَّ إلى الهيجاء كهلٌ ويافعُ

يُغامرُ ذو العشرين فيها بشيخهِ
وتُلقى إليها بالبنينَ المَراضعُ

نَهَضنَ وأسيافُ الغزاةِ مآزر
وسِرْنَ وأعرافُ الجياد بَراقعُ

---

(١) روائية تركية ولدت سنة ١٣١٢هـ/١٨٨٤م كانت ذات علاقة مشبوهة مع كثير من الضباط الأتراك ومنهم مصطفى كمال ، من حاملات لواء السفور ، متغربة بحجة الفن والفكر نشرت سمومها فى تركيا هلكت سنة ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م .
انظر : الرجل الصنم .

يَبتنْ وراء الخيل يَحمينَ سَرحَها
إذا بات منّا في الحشيقِ وادعُ

....

أخالد زِيدى مجدَ قومِكِ وارفعى
لهم من معالى الذكرِ ماأنا رافع

يَراعٌ يهزُّ المسلمين صريرُه
وسيفٌ لأعناق المُغيرين قاطع

ظفرتِ به دونى وإنّي بواحدى
وجَدِّكِ إلا أن تلومى لَقَانع

أُحبُّ القوافى ماتصوغُ لك الظُّبى
وتُنشدُ أهليكِ الرماحُ الشوارع

خَطبنَ فأحسنَّ البيانَ وإنّهم
إذا خطبوا فى مأزقٍ لَمَصاقع (١)

أما فى مطولته فقد عرض لصورة المرأة المسلمة المجاهدة كما تصورها ممثلة فى خالدة أديب - وإن لم تكن حقيقتها كذلك - فتخيلها الشاعر وأضفى عليها من ألقاب البطولة مالايضفى إلا على قائد مجرب للحروب ، فلقد عهد الناس أن الغيد يولين عنايتهن بالحلى والأساور ، ولكن هذه المرأة خرقت تلك العادة وأخذت تتحلى بحديد الهند، عوضا عن الذهب اللماع ، وركبت الخيل لتصارع العدو، وتلفيها فى غمرة الحرب تحط قناعها وتتقنع بالحديد مثل الفرسان ، وتصنع من دماء الأبطال مرطا تتزيا به ، وتزين جفونها بالنقع عوضا عن الكحل .

---

(١) ديوانه : السياسيات ٢/٥٣٢-٥٣٣ .

وواضح أن تلك الصورة هي صورة المرأة المثلى التي آثرت أن تخوض المعارك ذودا عن حياض الدين من أن تستباح محارمه، فهي امرأة مثالية كما يصورها خيال الشاعر ، وكان بارعا حقا في ذلك وإن كان استمد ذلك من ذاكرته التي عرفت نساء في التاريخ الإسلامي كن كذلك .

ثم إنه يوضح الدور الذي لعبته النساء في تلك المعركة اذ يؤكد أن النساء المسلمات لن يفعن السلاح مادمن يرين العدو رابضا على هضبات بلادهن ، وماذلك إلا لأنهن حرائر لايشغلن انفسهن بغير الشرف الرفيع وطلبه ، ويؤكد عراقتهن انهن "سللن من القواضب وانتضينا" فالمشاركة حتى من البيوتات الكريمة .

ويعيد صورتهن مع الخيل التي عرضت في القصيدة الأولى بطريقة أخرى فإذا سارت الخيل نفرن يقابلن جماعات خيل العدو ، ولايكتفين بالدفاع بل يهاجمن ويسلبن من جيش العدو برغم ضخامته ، في وقت يسلب مثيلاتهن في الجيش المقابل ، ويخيل للناظر أن اللاتي يقمن بذلك "آساد وعينا" ، فقد جمعن بين الشجاعة والقوة والجمال ، لذلك يعيد الضمير تارة بنون النسوة ، "يعاجلن الصفوف" ، وتارة بضمير جماعة الذكور "ويغشون الحتوف مغامرينا" لتأكيد شجاعتهن .

ويؤكد ماقرره في قصيدته السابقة من أن الأتراك خرجوا جميعا ملبين النداء لمجابهة العدو بمختلف طبقاتهم .. شبانا وشيبا ، أبكارا وعونا ، ولاعجب في ذلك فهم يستمدون العظة والبطولة من تاريخهم المليء بالعظات .

أَروني سيفَ خالدٍ وعُدّوا   مناقبَها العُلى للمُعجَبينا

....

عَهِدنا الغيد يُؤثرن الحَشَايا   ويُغْلين القلائدَ والبُرينا

فما بالُ التى جعلتْ حُلاها
حديدَ الهندِ فى المُتَلَبِّبينا

رمتْ بالسابحاتِ تَسُحُّ ركضاً
إلى الغمرات تَلقى الدارعينا

تَحُطُّ قِناعَها وتخوضُ فيها
فوارسَ بالحديدِ مُقَنَّعينا

وتَلبسُ من دمِ الابطال مِرطاً
تفيضُ له نفوسُ اللابسينا

تَزينُ جُفونَها بالنقعِ فَرحى
اذا مازَيَّن الكُحلُ الجُفونا

وماتَضعُ السلاحَ بناتُ قومى
ولاتَدعُ الحِمى للواغِلينا

حرائرُ ماشُغِلْن بمُسْتَحَبٍّ
سِوى الشرفِ الرفيعِ ولاعُنينا

نَمتهنَّ المناسبُ مُشرِقاتٍ
سُلِلْنَ من القواضبِ وانْتُضينا

إذا ماالخيلُ سِرنَ نفرن بيضاً
يُبادرن الرِّعالَ ويَنْبرينا

يُغْرِنَ فَيَسْتلبنَ الجيشَ ضخماً
إذا اسْتُلبَ العقائلُ أو سبينا

فمَنْ يَشهد حُماةَ المُلكِ يشهدْ
خِلالَ النقع آساداً وعِينا

يُعاجلْنَ الحتوفَ مُغامِراتٍ
ويغشَون الحُتوفَ مُغامرينا

فيالكَ سُؤْدُدا وطِرازَ مجدٍ
يروعُ جلالُه المتأنِّقينا

....

أكنتم أمــةً خُلِقتْ سُيوفــاً تعالى اللهُ خيرُ الخالقينا

تخوضُ الحربَ شُبّاناً وشيبــاً وتغشى القتلَ أبكاراً وعونا

لكم نورُ الفتوحِ يُضيء فيها إذا هزّته أيدى المُطّلِبينــا

سنا عُثمان ذى النُّورينِ فيه وسِرُّ اللــه للمتوسّمينــا (١)

ولاضير على الشاعر .وقد كرر الحديث عن "خالدة أديب" وعن دور المرأة فى هذه الحرب ، لأنه ليس تكرارا ممقوتا بل لتوكيد عظمة ذلك فى وقت استكان فيه بعض الرجال من بنى قومه ، ثم إن فيه اشباعا نفسيا فهو تكرار معنوى لالفظى .

واستخدام الشاعر لبعض الألوان البيانية زاد من تجسيم الصورة وعظمتها كالكناية فى قوله :

فما بال التى جعلت حلاها حديد الهند فى المتلببينا

وما أجمل الاستخدام المجازى فى قوله "وتلبس من دم الأبطال مرطا" ، وللدلالة على سرعة حركتهن فى الحرب أتت الأفعال مناسبة "سرن ، نفرن ، يبادرن ، ينبرينا ، يغرن ، يستلبن" كلها فى بيتين متتاليين .

ناهيك عن اللفتة التاريخية "سنا عثمان ذى النورين" ، مما يجعل القارىء يسرح بذهنه وهو يتابع المشهد الحربى الى أعماق التاريخ الاسلامى ، ويستعيد صورة ماعرف عيانا كأنه أعيد من جديد على يد المعاصرين الأتراك .

---

(١) السابق ٥٨٤/٢-٥٨٥ .

ذكرى وقائع غاليبولي :

كانت هذه من وقائع الحرب العالمية الأولى – كما سيأتى والتى منى الحلفاء فيها بهزيمة ساحقة لدرجة أنهم أطلقوا على جزيرة "غاليبولي" وادى الجحيم ، فيذكر الشاعر اليونانيين وحلفاءهم بها ، فالقبور شاهدة على هزيمتهم بها والخوف لايزال ينتاب جنودهم إلى اليوم عندما يمرون بها ، ثم يصور تلك المعركة ويرجع بالذاكرة إلى أحداثها ، وكيف سيقت جنود الحلفاء اليها كالقطعان ، ولكن تلك الأرض لاتحب الغرباء فتدور جوانبها وتهوى غضبا تطاردهم يمينا وشمالا ، وإذا ثارت ملأت الآفاق رعبا على العدو .

نسوا بالدردنيل لهم قُبوراً	تفيضُ لها دموعُ الذّاكرينا
ترى الأسطولَ يَفزعُ حين يمشى	بساحتِها ويخشعُ مُستكينا
وما وادى الجحيمِ بِمُستطاعٍ	وإن عَزُبَتْ حُلومُ الغافلينا
لئن جَحدوا المصارعَ دامياتٍ	لقد شهدتْ منايا الهالكينا
لبئس القومُ كالقطعانِ سيقوا	إليه وبئسَ مَرْعى المُصطَلينا
أَطاعوا الآمرين فأنزلوهم	بأَرضٍ لاتُحبُّ النازلينا
تدورُ بهم جوانِبُها وتهوي	وتَصعدُ فى مطارِ الصاعدينا
تُطاردُهم إذا ذهبوا شِمالا	وتطلُبهم إذا انقلبوا يمينا
تثورُ فتملأ الآفاقَ رُعباً	إذا ملأوا الفضاء مُحلّقينا (١)

كان الشاعر موفقا فى إعطاء صورة موجزة عن تلك الحرب ، وهو استطراد تاريخى رائق عن كيفية مقاومة العثمانيين للحلفاء فى تلك الجزيرة ، وانزلوا بهم هزيمة منكرة ، لاتزال قبورهم بها تذكرهم ، ولاتزال أساطيلهم تفزع من هول

---

(١) السابق ٢/٥٧٥-٥٧٦ .

الذكرى إذا اقتربن منها ، ولاغرابة فهم كالقطعان لايتعظون ، وكلما دفع بهم رؤساؤهم أطاعوهم فأنزلوهم بأرض تكرههم ، وياويل عدو ينزل بأرض تكرهه !

المعدات القتالية :

ومن أوصاف المعارك هنا ماذكره بعض الشعراء عند عرضهم للمعدات القتالية ، إذ كانت هذه الحرب آخر حرب تخوضها الدولة بعد الحرب العالمية الأولى ، فى وقت ظهرت فيه أنواع من الأسلحة ، ومن المؤكد أن بعضها قد استخدم فى تلك الحرب وكان من المتوقع أن يعرض الشعراء لتلك الأسلحة ولو لمسمياتها فقط ولكننى لم أجد شيئا من ذلك ، بل وجدته فى النثر وفى أخبار الصحف .

وكان أكثر أنواع الأسلحة حضوراً فى شعر هذه الحرب ، السيف ثم الرماح والخيل والسفن على اختلاف مسمياتها . من ذلك قول شوقى :

صُلحٌ عزيزٌ على حَرْبٍ مُظَفَّرةٍ
فالسيفُ فى غمدِهِ والحقُّ فى النُّصُبِ

ياحُسنَ أُمنيةٍ فى السيفِ ماكَذَبت
وطيبَ أمنيَّةٍ فى الرأى لم تَخِبِ

لم يأتِ سيفُك فحشاءً ولاهتكتْ
قناك من حُرمَةِ الرُّهبان والصُّلُب

مَشيئةٌ قَبِلَتْها الخيلُ عاتبةً
وأذعنَ السيفُ مَطويّاً على غَضَبِ

....

لاخيرَ فى مِنبَرٍ حتى يكون له
عُودٌ من السُّمر أو عودٌ من القُضُبِ

خيلُ الرسولِ من الفولاذ معدِنُها
وسائر الخيل من لحمٍ ومن عصبِ
أفي ليال تجوب الراسياتِ بها
وتقطع الأرضَ من قُطْبٍ إلى قُطُبِ
سلِ الظلام بها أيُّ المعاقل لمْ
تَطْفِرْ وايُّ حصونِ الروم لم تَثِبِ
آلَت لئن لم تَرِد أزميرَ لانزلتْ
ماءً سواها ولاحلَّت على عُشُبِ
والصبر فيها وفي فرسانها خُلُقٌ
تَوارَثوه أباً في الرَّوْع بَعدَ أَب
كما وُلِدتُم على أعرافِها وُلِدَت
في ساحة الحرب لافي باحة الرَّحَب

....

يومٌ كبدرٍ فخيلُ الله راقصةٌ
على الصعيد وخيل الله في السُّحُبِ
غُرٌّ تُظَلِّلُها غرّاءُ وارفةٌ
بَدريّةُ العُودِ والدِّيباجِ والعَذَبِ
نَشْوى من الظفَر العَالي مُرَنّحةٌ
من سَكْرةِ النَّصْر لامن سَكْرة النَّصَبِ (١)

أهم عدة وقف عندها شوقي في هذه القصيدة هي الخيل ، ولم يصف شكلها ولونها وغير ذلك من الأشياء الحسية ، بل تعداها إلى وصف قدراتها وكفاءتها القتالية ، وأنها منسوبة إلى خيل الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا تأكيد على إسلامية المعركة في نظره ، فهي خيل من الفولاذ في قوتها ،

---

(١) ديوانه : الشوقيات ١/٥٩-٦٣ .

تجوب السهل والجبل ، تشب المعاقل والحصون ، والصبر من شيمها وشيمة فرسانها "توارثوه أبا في الروع بعد أب" .

ويذكر محرم السيف والخيل والسفن .

تُذكِّرُهم بالمَشْرفيِّ إذا نسوا
وللغافلِ الناسي من الجهلِ شافعُ

أهابوا بأبْطالِ الجهادِ فمالهم
ولا للموافي عن دمِ القومِ دافع

وينسبه الى العثمانيين مع تأكيد انتمائه للاسلام .

تألّقَ فيه سيفُ "عثمان" كوكباً
تَغيبُ الدّراري كلُّها وَهْوَ طالع

على مَتْنِهِ فجرٌ من الفتح صادق
وفي حدِّهِ نورٌ من الله ساطع

يلوح من الغازى المجاهد في يد
لها من يد الهادى الأمين أصابع (١)

ويقرنه مع الخيل في ملحمته :

يَرُدُّون السيوفَ بلاقتالٍ	ويَلْوون الأعِنَّةَ مُعرِضينا
تَوَدُّ سيوفُهم أن لو أقاموا	وإن أخذوا الأعنَّةَ زاهدينا
يَهُزون السيوفَ بها اغترارا	ويُزجون الجيادَ مُخدَّعينا

على انه قد مر بنا اجزاء من هذه القصيدة فيها ذكر للسيف ومسمياته . واما الخيل فنحو قوله :

رَمَتْ بالسابحاتِ تَشُحُّ ركضاً
إلى الغَمَراتِ تَلْقَى الدارعينا

إذا ما الخيلُ سِرنَ نَفَرنَ بيضاً
يُبادرن الرِّعالَ ويَنْبَرينا

---

(١) ديوانه ٢/٥٢٨-٥٢٩ .

(٢) نفسه ٢/٥٤٠ - ٥٤٢

والسفن مما ورد ذكرها عند «محرم» :

تلود به الاجناد فى البريّة خيفة

وتهفو إليه فى البحار الدوارع (١)

وقوله :

رموا بجنودِهم من كلِّ فجٍّ

وجاءوا بالسفائنِ مُهْطعينا

ترى الاسطولَ يفزعُ حين يمشى

بساحتِها ويخشعُ مُستكينا

دَعوا أُسطولَهم فاهتاج ذُعْرا

وبات جُنودُهم مُتفزِّعينا

وورد ذكر الرصاص والمنجنيق فى قوله :

أَلَحَّ الأُسْرُبُ المسمومُ يَفري جَمَاجمَهم فخرُّوا هامدينا

وإنْ شَقُّوا الخنادقَ فى جِناقٍ فقد شَقُّوا القبورَ مُموِّهينا (٢)

ونجد «أحمد أبى النجا» لايذكر فى قصيدته سوى السيف كقوله :

قاموا بمعجزة الدهور وأحرزوا

فخرا بكلِّ مُهَنَّد مَصْقُولِ

سَلّوا الصوارمَ فى الرُّبُوع تخلّصاً

من ساسَةٍ نزعوا لكلِّ وبيل

أرويت من تلك الدماءِ أسنّةً

ظمأى ولاتروى بغير جليل

السيفُ حَسْبك منقذاً لعزيمةٍ

فدعِ النزالَ بحجة وبقيل (٣)

---

(١) السابق ٢/ ٥٢٩
(٢) نفسه ٢/ ٥٧٠-٥٨٩ .
(٣) ديوانه ص ٧٠-٧١ .

وهذا الشاعر الضابط «محمد فاضل» لابد أن يكون لديه إلمام بالشئون الحربية بحكم عمله، إلا أنه لايذكر فى قصيدته غير السيف :

سلّوا السيوفَ ووطّنوا عزماتِهم لفروقَ أو للقاءِ يومٍ دامِ (١)

وربما تكون هذه الأدوات السيوف والخيل وغيرها مما نوه به الشعراء رمزا لأسلحة القتال التى طفقت تظهر فى ميادين الحروب .

الجرحى والبر بهم :

فى هذه الآونة التى ادلهمت فيها الأحداث ، وتمخضت المعارك عن جم غفير من الجرحى الذين يفتقرون إلى العون بأشكاله العديدة ، آنذاك جاشت النفوس بعواطف الخير ، وتقديم الإحسان لهؤلاء الجرحى ، وسالت أنهار الصحف العربية بالقصائد والمقالات يدبجها كبار الشعراء والكتاب ، إلى أن صار البر فى ذاته معنيا بهذا الأدب ، والذى يعنينى هنا هو جرحى المعارك فى هذه الحرب، وكان من المفترض أن أجد قصائد تنضم إلى مثيلاتها فى الحروب السابقة لهذه الحرب يسهم الشعراء من خلالها باستدرار العطف لهم والبر بهم ، ولكننى لم أجد إلا شاعرا من «تونس» هو «أبو الحسن بن شعبان» (٢).

بدأ الشاعر أبياته بدون مقدمات ، وكانت لفظة صوت أول مايبده القارىء وماكان أى صوت بل صوت الجريح ينادى إلى

---

(١) شعراؤنا الضباط ص ١٣٨ .
(٢) أبو الحسن بن شعبان ، ولد سنة ١٣١٥هـ/١٨٩٧م بتونس من عائلة صوفية ، درس بجامع الزيتونة وتخرج منها ، نشر عددا من قصائده فى سن مبكرة من عمره ، درس بمدرسة ترشيح المعلمين ، لم يجمع شعره بعد .
انظر : الأدب التونسى فى القرن الرابع عشر .

الإحسان ، وغدا يرنُّ في الآذان ، فهو قوي ، ولكنه صوت الواجب الذي ينبغي أداؤه ، إذ هو من دعائم الإيمان .

ولكن كيف كان موقف المسلمين من ذلك ، يتساءل الشاعر ويجيب بقوله :

مالي أراهُ مردداً من بيننا   والناسُ بين تصامُمٍ وتواني

ثم يوجه عددا من الأسئلة والاستفهامات مستثيرا الأمة لإغاثة الجرحى فيقول : هل انت من الأمة التي "شادت مفاخرها بكل مكان" ، ولماذا التثاقل أكذا حال الأخ مع أخيه ؟

والجريح ماكان ليسعى لمصلحة نفسه بل "لنصرة الدّيان" "وحماية الأوطان" ثم يوازن بين حاله ومآل إليه ، وبين حال بقية أفراد الأمة .

أيبيتُ فوقَ التُّربِ مَكلُومَ الحَشا
وتَبيتُ في فُرُشٍ بقلبٍ هاني

ثم يعدد مآثر ذلك الجريح ودوره البطولي بقوله :

ذاك الذي طلبَ الحياةَ بعزةٍ   ذاك الذي لايَرتضي بهوانِ
ذاك الذي قد علَّمتْهُ جدودُه   قهرَ العِدى ثم انْبرى لطعانِ
لمّا رأى الأعداءَ حولَ دياره   باعَ الحياةَ وهبَّ للميدانِ

ولكنه بعد أن هزم العدو ، وأذاقهم طعم العذاب ، أتته طعنةٌ أودت به إلى ذلك المصير .

حتّى إذا هَزَمَ العِدَى وأذاقهم
طَعْمَ العذابِ منوَّعَ الألوانِ
نالتْهُ طعنتُهم وكمْ من طعنةٍ
سَبَقَتْ إلى بطلٍ بكفِّ جبانِ
فهوى إلى التربِ المُخضّبِ بالدّما
مُترنّحا كترنّحِ النّشوانِ

وبينما هو فى تلك الحال ، إذ أتى الطبيب ليداوى جراحه ، والدماء تزداد تدفقا فطلب الدواء ولكنه لم يعثر عليه ، ثم يستفهم الشاعر موبخا ومعللا عدم وجوده "هل يرجى الدواء ، والمسلمون نواعس الأجفان" ؟

ويزيد أمرهم تفصيلا :

هذا يُجيدُ الاعتذارَ عن العطا   وسواهُ أصبحَ فاقدَ الآذان

وقد استخدم الشاعر قافية حزينة فى ذاتها ، إلى جانب لغته السهلة التى قامت على أسلوب الاستفهام ليزيد من استثارة النفوس وبعث كوامن الأسى وإن عمد إلى التقريرية فى عرضه .

صوتُ الجريحِ دعا إلى الإحسانِ   وغدا صداهُ يرنُّ فى الآذان

صوتٌ يذكرُنا بأقدسِ واجبٍ   بُنيتْ عليه دعائمُ الإيمانِ

مالى أراهُ مُردّدا من بيننا   والناسُ بينَ تصامم وتوانى

أولستمُ من أمةٍ حسّاسةٍ   شادَتْ مفاخرَها بكلِّ مكان

ماذا التثاقلُ عن إغاثةِ إخوةٍ   أكذا تكونُ إغاثةُ الإخوان

هل سرّكم أن يُتركوا من بعدِما   خاضوا الحروبَ لنصرةِ الدّيان

هل سرّكم إهمالُ ذيّاك الجريـ   ـح وقدْ سعى لحمايةِ الأوطانِ

أيَبيتُ فوقَ التربِ مكلومَ الحشا

ونَبيتُ فى فُرُشٍ بقلبٍ هانى

ذاك الذى طلبَ الحياةَ بعِزّةٍ

ذاك الذى لايُرتضى بهوانِ

ذاك الذى قد علّمتْه جدودُه

قهرَ العدى مهما انبرى لِطِعانِ

لمّا رأى الأعداءَ حولَ ديارِهِ   باعَ الحياةَ وهبَّ للميدان

حتّى إذا هَزَم العدىَ وأذاقَهمْ   طعمَ العذابِ منوّعَ الألوان

نالتْه طعنتُهم وكمْ من طعْنةٍ   سَبَقَتْ إلى بطلٍ بكفِّ جبانِ

فهوى إلى الترْبِ المُخضَّبِ بالدِّما
مترنّحاً كترنُّحِ النَّشوان
حتى إذا ضمَدَ الطبيبُ جروحَه
ودماؤه تزدادُ فى السَّيلانِ

ورأى بأنَّ الداءَ أصبحَ مُعضِلاً
مُستحكِماً بمكامنِ الجُثمان
طلبَ الدواءَ فقيلَ هلْ يُرجى الدوا
والمسلمونَ نواعسُ الأجفانِ
هذا يُجيدُ الاعتذارُ عن العطا
وسواهُ أصبحَ فاقدَ الآذان (١)

ولاشك أن هذا العمل مما يجدد هذا الغرض فى الشعر العربى ، وتزداد النفس خصوبة بهذه المشاعر التى تحيى فيها خمول الوجدان .

الدافع الدينى :

تعرض «محرم» لما يزعمه الأوربيون من أنهم يريدون التقدم والحضارة للشرق وحماية النصارى من ظلم الأتراك ، ففند هذا الأمر وكشف عن حقيقة الدوافع المستورة فى نفوسهم لإطلاق هذه المزاعم .

وهذا الغرض أولى بالنثر منه بالشعر ، لما يحتاج إليه من عرض دعاوى الخصم وتفنيدها ودحضها ، وهى أمور عقلية لامساس لها بالوجدان إلا فى أضيق الحدود ، أما الشعر فهو أمس بالشعور ، وأحوج إلى الاستعانة بالعواطف والأخيلة ليكون افعل واكثر جاذبية وتأثيرا على المتلقى .

(١) الأدب التونسى فى القرن الرابع عشر ٦٧/١ .

وفى هذا النص يشير إلى تزييف الأناجيل ، وأن أناجيلهم المزيفة وصوامعهم التى يرددونها فيها يطل منها الموت لأهل المشرق ، ثم يختم المقطع بقوله إن نواقيسهم مطارق للجاهلين ، وصلبانهم مقامع للغافلين - يقصد بذلك المسلمين وهى دعوة صريحة للمسلمين إلى الاتحاد وترك الفرقة ، وفيها بيان أن الجهل المتفشى فى البيئة المسلمة من أهم الأسباب التى عوقتهم .

بنى الغربِ مافى طبِّكم وكتابِكم
دواءٌ لأوجاعِ المشارق ناجعُ
صببْتم علينا الداءَ حتَّى إذا طغى
ترامَتْ بنا فى الهالكينَ المنازعُ
خذوا ماكتبْتم من أناجيلَ ماقضى
على الشرقِ إلا شؤمُها المتتابعُ
أناجيلُ رهبانٍ بأيدى أثمةٍ
لهمْ بِيَعٌ من أعظُمٍ وصوامعُ
تطلُّ على الأعناقِ من جنباتها
مُدًى من نضارٍ زيَّنتها الروائعُ
دمُ العاجزِ المغلوب فى حُجراتِها
ومازِينَ من تلك المحاريب مائعُ
يصلِّى بها الأحبارُ من كلِّ ناسكٍ
يخرُّ على الأذقانِ والجفنُ دامعُ
....
نواقيسُهم للجاهلينَ مطارقٌ
وصلبانُهم للغافلين مقامعُ (١)

(١) ديوانه : السياسيات ٢/٥٣٦-٥٣٧ .

وفى غمرات هذا التزييف ، والحرب الضروس استخدم الغرب فيها كل الأسلحة ، ومنها التضليل ، وتمويه الأهداف ، ولي الحقائق وتشويهها ، سواء بالنسبة لغير المسلمين أو للمسلمين أنفسهم لاسيما الذين غطى الجهل على بصائرهم .

فقد كان يوجد فى صفوف المقاتلين اليونانيين أناس مسلمون يقاتلون بنى دينهم من الاتراك ، وكان ذلك بسبب جناية الاستعمار عليهم ، واعتذر «أحمد محرم» لهم وأنهم قوم ضعاف لاحول لهم ولاطول ، شقوا باليونانيين وظلمهم ، «كما شقينا» تعريضا بالاستعمار الإنجليزى فى «مصر» وظلمه ، ويصور شعور الاتراك بضمير جماعة المتكلمين لانه جزء منهم ، وأنهم يريدون حياة حرة ككل الشعوب ، ولكن قوى البغى والاستعمار حالت دون ذلك ، ويبتهل إلى الله أن يخلص الجميع مما هم فيه . والشاعر كان عارفا بسياسة الاستعمار لذا كانت معالجته متزنة لموضوع حساس مثل هذا ، وأنهم جزء لايتجزأ من أمة واحدة .

تقاذفُ عن ذوى الأرحامِ طُرّاً ويقذفُنا العدوّ ببنى أبينا
ونعلمُ أنّهم قومٌ ضعافٌ شقوا بالغاصبين كما شُقينا
يسامون الهوانَ أذىً وبغياً ويأتونَ الدنيةَ صاغرينا
إذ انبعثَتْ قذائفُهم غضبْنا فإن بعثوا القلوبَ لنا رضينا
تبيّتُ صفوفُهم تهفو إلينا وإن مضت الطلائعُ تتقيّنا
يريدونَ الحياةَ ككلِّ شعبٍ وتقتلُهم قوى المُستعبدِينا
أولئك قومُنا اللّهم فافتحْ لنا ولقومِنا الفتحَ المبينا (١)

(١) السابق ٢/٥٨٣ .

نشوة الظفر على اليونان :

استطاع أتاتورك أن يقود العثمانيين إلى النصر على اليونان ، بعد سجال دام طويلا ، وأرث نار الحقد فى قلوب الفريقين .

وكان لهذا النصر صداه الواسع فى أرجاء العالم الاسلامى وحسب المسلمون انهم استردوا مكانتهم فى التاريخ ، كما حسبوا أن «أتاتورك» يستهدف استعادة مكانة المسلمين ، واجتاح هذا الشعور العارم بالبهجة الشعراء فيمن اجتاح من طبقات الأمة وعناصرها .

ويصور «أحمد خير الدين» بهجة دار السعادة مقر الخلافة بهذا النصر .

ويومُ النصرِ ذا يومٌ عظيمٌ ... به اتضحَ المحرمُ والحلالُ
بدت دارُ السعادةِ فى سرورٍ ... تُنادى لاعدمْتك ياكمالُ
ويومُ الفتحِ قد برزَت تهادى ... كخَودٍ سرَّها منكم وِصالُ
فأبدى ثغرُها لكم ابتساماً ... وحيَّتك المدافعُ والرجالُ (١)

وفى مقطوعة أخرى يتنفس الشاعر ذاته الصعداء ، وتغمره نشوة النصر ، وعلى بعد مابينه وبين ميدان المعارك فانه يرى البرق ، وينشق منه ريح الاناضول ، فلايسعه إلا إزجاء الشكر «لمصطفى كمال» الذى أحرز ببراعته النصر على العدو .

ياباِرقاً قدْ هَفَا يسْعَى على خَبَبِ
انعشْتَ منّا فؤاداً باتَ فى تَعبِ
كأنّما البرقُ فى الليلِ البهيمِ هَفا
تبسّم الأسَدِ التركى فى لَعِبِ

---

(١) الأدب التونسى فى القرن الرابع عشر ٩٠/٢ .

ماأضرمَ الشوقَ إلا برقُ أنقرةٍ
يابرقُ قلْ لي وعالجْ بالهنا وَصَبي
تنفّسَ البرقُ عن نفحٍ يخالطه
ريحُ الأناضول يابُشرى بذا الأَرَبِ
وقالَ لي البرقُ هيا لاتكنْ كَسِلاً
عن واجبِ الحمدِ واشكرْ مُفرجَ الكُرَبِ[(1)]

و"أحمد خير الدين" الذي معنا يشبه كثيرين في هذه الحقبة ممن تعاطوا الشعر عن غير موهبة ، فحسبوا من الشعر أن تكون ألفاظه موزونة مقفاة ، حتى لو جارت التراكيب على صحة المعاني وشرفها وعمقها ، ولو خلت من الخيال الخصب الذي يجذب القارئ ، ويبعث فيه الحس الجميل .

ويبدو أن مجرد النظم كان كافيا ليدرج نفرا من هؤلاء في زمرة الشعراء ، ولاسيما إذا كانت له وجاهة اجتماعية ، وهذا هو مايلحظه مؤرخ أدب هذه الحقبة من خلال ماتطالعه به الصحف والمجلات .

وإذا كان مثل هذا الضرب من الشعر يسقط من حساب الشعر الجيد ، فإنه بالنسبة لتاريخ الحركة الشعرية في حقبة ما يعد مؤشرا عاما للوهدة التي كان تردى فيها الأدب ، ومقدار ماحققته النهضة الفنية من تقدم على طريق البعث والإحياء .

ومن هذا المنطلق أجدني لا أتنخل الشعراء لاختيار جيدهم وحسب بل أقبس مع القصائد الجيدة نصوصا أخرى لأدل على اتساع الحركة الشعرية وكثرتها ، والتي ستنتهي بعامل التطور إلى خصوبة ورقي وجودة كما تقضي بذلك سنة التطور .

ومن قبيل ماسبقت الإشارة إليه من شعر "أحمد خير الدين"

---

(١) نفسه ٢/٩٣ .

أسوق قطوفا أخرى ، منها نص لشاعر يدعى "محمد مناشو"(١) يستهله بقوله :

ياصباً جُرَّ عاطرات الذيول
حيِّي عنَّا معاهدَ التنزيل

يارخاءً يسيرُ بالنصرِ شهراً
بشِّر المصطفى بنصرٍ جليلِ

وأَنِلْ بعد السلام "إنا فتحنا
لك فتحا" ونادِ بالتهليل

قُلْ لهُ رايةُ الهلالِ استقلَّت
فاستقرَّت بها ربا الدردنيل

وثغورُ الإسلام تفترُّ بشرا
بمعادِ الهلال للأناضول(٢)

وإذا كان "مناشو" أزجى التحية "لمصطفى كمال" وعزا إليه النصر وحده فالشاعر "محمود صادق" يزجيها للشعب التركي كافة :

ياأيُّها الشعبُ المجيدُ تحيةً   من مهجةٍ تُخفي الأسى وتداري
حنَّتْ إليك حنينَها لبقيةِ الـ   ملكِ الفسيحِ وكعبةِ الأمصار(٣)

وينطوي البيتان على بعض مايستوقف الدارس ، ففي قوله من مهجة "تخفي الأسى وتداري" إيماء إلى ماكان يحرص عليه الاستعمار "الانجليزي" في "مصر" من كبت المشاعر نحو الخلافة ، قصدا إلى قطع الوشيجة التي تصل المصريين بها .

---

(١) محمد عثمان مناشو ، ولد سنة ١٣٠٢هـ/١٨٨٢م بتونس ، درس بجامع الزيتونة وتخرج منه عام ١٣١٩هـ/١٩٠١م ، اشتغل بالتوثيق بين المتعاقدين ، والتعليم في المدارس ، إلى أن أصبح أستاذا بجامع الزيتونة ، من اتباع التيجانية ، نشر كثيرا من البحوث الأدبية والاجتماعية .
انظر : الأدب التونسي في القرن الرابع عشر .
(٢) السابق ١١٠/٢ .
(٣) ديوانه ص ١٣٤ .

أو لعل مهجة الشاعر تخفي الأسى وتداري مما كان حل بالدولة من محن وأرزاء يخشى من آثارها على حاضر المسلمين وعلى مستقبلهم ، وقد يعزز هذا التفسير ما أبداه الشاعر من فرح واستبشار «بمصطفى كمال» بعد ذلك إذ يقول :

يامصطفى هذى تحيةُ شاعرٍ مستبشرٍ بك أيّما استبشارِ (١)

والحق أن الشاعر "محمود صادق" لم يترك لنا مجالا للحدس والتأويل بالنسبة للمشاعر التى اعتلجت فى صدره ، وترددت فى ربوع العالم الإسلامى ، حيث قال فى حاشية ديوانه تعليقا على هذا النص :

"كان الاتراك على أبواب «ازمير» وكان العالم بأسره فى حالة شديدة من الدهش ، أما الشرق عامة والعالم الاسلامى خاصة فكانت الافراح فيه قائمة على قدم وساق ، والمظاهرات تطوف البلاد فى الهند والافغان وفى مصر ، وهتافها يشق عنان السماء حتى استعصى النوم على الكثيرين ، وكانت دموع الفرح تنهمر من عيون المخلصين ، وكان الناس يتبادلون أحر التهانى ، ويتعانقون فى الطرقات ، وكانت توزع الصدقات على الفقراء ، وكانت هذه المظاهر على أشدها بشكل لم يعهده التاريخ ساعة وصول الانباء بدخول أزمير" . (٢)

ويبدو فرحه الغامر بعودة أزمير فى أبياته التى يقول فيها :

أأزميرُ هذا اليومُ أسعدُ ماراْتْ
عيونٌ واشهى ما استلذّت مسامعُ

---

(١) السابق ص ١٣٥ .
(٢) نفسه ص ١٥٤ .

أأزميرُ هبّى عانقى الشرقَ طالما
لأجلِك أضنته النّوى والوجائعُ
تعالى تعالى أسعديْنا فإنّما
غرامُكِ أقوى ما احتوتهُ أضالعُ
تعالَى فتاةَ الشرقِ والدرةَ التى
يعالجُها عن مُفرقِ الشرقِ نازعُ
تعالى تأسّي عن خطوبك بعدما
دهتك تصاريفُ الرّدى والفظائع
تعالى فداك الشرقُ إن جدَّ طارىء
ولم يبقَ للحوضِ المقدّس مانعُ (١)

وعاطفة الشاعر مشربة بالصدق التى تعكس فرحه بعودتها إلى الوطن الأم "أسعد ما رأت" ، "وأشهى ما سمعت" ، وفى تكرير دعائه لها تعبير عن النشوة الغامرة بعودتها إلى عاصمة الخلافة ، وللإشعار أنها قريبة منه فى الحس وإن بعدت فى المكان .

ويشارك «الكاشف»هذه الزمرة من الشعراء الفرحة التى كانت أكثر عمقا وغزارة ودفئا لديه ، فلقد ألفه قراؤه يتوله بنصر المسلمين ، وأعاد له هذا النصر عافيته بعد ما نال منه الأسى ما نال فى وقت الهزائم ، ولاغرابة فوشائج القربى والعناصر المشتركة تجمعه بالأتراك ، فهو ليس دخيلا عليهم ، كما يؤكد أنه مازال وفيا للعهد بينه وبينهم يقول :

عوّدتُمونى أنّ أتيهَ بنصركم
واعتدتُم أنّ تسمعوا أشعارى

(١) السابق ص ١٥٥ .

رفقاً بمُعْتلِّ الحشا نالَ الأسى
منه وقاربَ موضعَ الأسْرار
فاسترجِعُوا بالنَّصرِ عَافِيَتى
لكم لاجيدَ ذكرى هذه الآثار
إنى أمتُّ إليكمُ بعقيدةٍ
وخليفةٍ وقرابةٍ وجوار
وأصونُ عهدَ الله فيكم غالبا
برَّ الفتى بالفتيةِ الأبرار (١)

والشاعر قدم العقيدة على العلائق الأخرى ثم الخليفة لأن العقيدة أعظم وشائج القربى ، ومما تأمر به العقيدة طاعة ولى الأمر ، وكذا القرابة والجوار مما يأمر الإسلام بحسن رعايتها .

ويعتبر «محمد عبد المطلب» تلك الانتصارات فرصة لشعراء (٢) الإسلام أن يتغنوا بمآثرها ، والسبب هو ذلك الظفر الذى أحرز حتى أضحى الدين الحنيف عالى المكانة ، وتبلغ به الفرحة أن جعل الهلال يضحك لها مستبشرا بعد ماأجرت مدامعه شئون غمام» وهى تورية لطيفة قد يذهب فيها الظن إلى هلال السماء ، لكنه يعنى الهلال الموسوم على الراية العثمانية .

هذا مقامُك شاعرَ الإسلام
فقِفِ القريضَ على أجلِّ مقام
عادتْ صوارِمُنا إلى أغمادِها
من بعدِ ماظفرتْ بغير مُرام

---

(١) الاخبار العدد ٨٧٤ ، سبتمبر ١٩٢٢م ولم أجدها فى ديوانه .

(٢) على أن محمد عبد المطلب لم يسترسل فى قصيدته تلك لما بلغه مبكرا من انحراف «مصطفى كمال» كما فى حاشية الديوان .

هذا الجنيفُ يسيرُ تحت ظلالها
فخمُ الجلالة سامي الأعلام
ضحك الهلال لها الغداة وربما
أجرتْ مدامعُه شؤونَ غمام (١)

وواضح أن الشاعر قد استخدم ضمير المتكلم في البيت الثاني ، لأنه يحس أن انتصارهم هو انتصار للمسلمين جميعا (٢) ، كما أن إسناد الضحك الى هلال الراية فيه إيماء إلى ماكان يعروه من ذل الهزائم السابقة .

ويصور «أحمد شوقي» مظاهر الفرح والنشوة التى عمت البلاد الإسلامية اعجابا واكبارا لتلك الانتصارات فيبدأ بالبيت الحرام ، والروضة الشريفة ، والحجاز عامة ، وقد أرج الفتح أرجاءه ، وكذا دمشق اهتزت فرحا ، وانتبه «بنو أيوب» من ذلك وطفقوا يهنئون «بنى حمدان» «فى حلب» ، فى ربط للحاضر بما سبق من صراع بين المسلمين والنصارى على ثرى تلك الديار .

ونجده لايقتصر على المسلمين فى الابتهاج بذلك النصر بل يبين أن «الهندوس» فى جذل ، و«الأقباط» فى طرب ، ربما لضيقها جميعا بالرجل الأوربى المستعمر .

أخرجتَ للناسِ من ذلٍّ ومن فشلٍ
شعباً وراءَ العوالى غير مُنشعبِ
لما أتيتَ ببدرٍ من مطالعها
تلفّتَ البيتُ فى الأستارِ والحُجبِ
وهشّت الروضةُ الفيحاءُ ضاحكةً
إنّ المنورةَ المسكيةُ الترب

---

(١) ديوانه ص ٢٥٣ .
(٢) الاتجاهات الوطنية ٢٨/٢ .

ومسّت الدارُ أزكى طيبها وأتت
بابَ الرسول فمسّت أشرفَ العتب
وأرّجَ الفتحُ أرجاءَ الحجازِ وكم
قضَى الليالىَ لم يُنْعَمْ ولم يطِبِ
وازّيّنَتْ امهاتُ الشرق واستبقت
مهارجُ الفتح فى المؤشيّة القشب
هزّت دمشقُ بنى أيوبَ ، فانْتَبَهوا
يهنّئون بنى حمدان فى حلب
ومسلمو الهندِ والهندوسُ فى جذلٍ
ومسلمو مصرَ والاقباطُ فى طرب
ممالكٌ ضمّها الإسلامُ فى رحم
وشيجة وحواها الشرقُ فى نسب (١)

والنص عامر باللفتات التاريخية التى تؤكد وعى "شوقى" بالتاريخ ، وبراعته فى الإشارة لما بين الأحداث من علائق ، دون أن تفقد لغته الشعرية خصبها وإيحاءها .

ويسترعى مواكب النصر "أحمد محرم" فيقول : إن من غاب عنها فما تمتع ناظراه بمواكب الملوك وهم يتوجون ، وهى أبهى ماتكون المواكب بهجة ورواء ، ففى موكب الزهو بالنصر كان الهلال يتألق على الاعلام فخما جليلا رصينا ... ومهما وصف الواصفون فقد ضاق بيانهم عن شرحها ، أو الاقتراب من حقيقة عظمتها ، وجهابذ الكتاب عجزوا عن وصفها حتى كأن العجمة تجور على لسانهم .

ثم يومىء للشكوك التى طفقت تساوره حول حقيقة نوايا "أتاتورك" بأنها خيالات يلحن ويختفين .

---

(١) ديوانه : الشوقيات ١/٦٣-٦٤ .

مواكبُ من يغبْ في الدّهر عنها ... فما شَهِدَ الملوكَ مُتوّجينا
ولاعرفَ الهلالَ يسيرُ فخماً ... ولانَظرَ السُّهى يمشي رَمينا
مشاهدُ خانتِ الأنباءُ فيها ... وضاقَ بها بيانُ الواصفينا
يظلُّ الكاتبُ العربي فيها ... يجورُ به لسانُ الأعجمينا
يهجيننا الحديثَ وتعتريْنا ... خيالات يلُحْن ويختفينا (١)

ويرفع الشاعر التونسي «الخزنة دار» التحية من «تونس الخضراء» «لأنقرة» وقائدها ، فقد ذكره بانتصارات «المعتصم» في «عمورية» ، وفرح «أبي تمام» لها :

تحيةٌ من بني الخضرا لأنقرةٍ
تحيي امرأ القيس يُلقيها أكاليلا
قد اذكرتني قوافيها بمعتصم
تحدو به نحوَها الشهباءُ تعجيلا
والشاعرُ الفحلُ يومَ الفتح يُنشدُهُ
«السيفُ أصدقُ أنباءً» كما قيلا (٢)

والشاعر في قوله "تحيي امرأ القيس" إشارة إلى ماذكر من أن «امرأ القيس» وصل إلى تلك المدينة .

وفي قصيدة أخرى يصور فرحته الممزوجة بالمدح ، ويبين أن «المصطفى» صلى الله عليه وسلم راض عن «مصطفى كمال» ، وأن الإسلام قد اعتز بهذا النصر ، واحتفلت الممالك الإسلامية فرحا وزهت «بمصطفى كامل» .

يامصطفى المصطفى راضٍ عليك فخرْ
هذا الرِّضا شرفاً ياخيرُ منتخب
حيّتك تونسُ فلتقبلْ تحيتها
عن روضِ شعري بباقاتٍ من الأدب

---

(١) ديوانه : السياسيات ٥٧٨/٢ .
(٢) ديوانه ٦٢/٣ .

فى شخصك الأمةُ السمحاءُ قد برزت
تختالُ بالنصر فى أثوابها القشب
واعتزّ شأنُ بنى الإسلام واحتفلت
كلُّ الممالك واهتزت من الطرب (١)

قيم أبرزتها الأحداث :

فى عصر الظلمة التى حاقت بأمتنا لم يغب عن ضميرها قيمة القوة ، وأثرها فى مساندة الحق ، وقد تكفل الأدب الشعبى فى ذلك العصر بسد الثغرة فأنشأ سيرا للبطولة والأبطال مثل سيرة «عنترة» ، و«أبى زيد الهلالى» ، وغيرهما إشباعا لحاسة التطلع فى نفوس الناس بعد ماذهب عنهم بأس الدولة ومنعتها .

هذا ومنهج الإسلام قائم على اعتبار القوة أساسا لتربية المسلم ، والكتاب والسنة حافلان بالشواهد والأدلة .

فلما كان هذا الزمن الذى ندرس أثره على الشعر تفاقمت الأحداث ، وتعاظمت الخطوب ، وكثرت الهزائم والانتصارات وتجلى أثر القوة فى دعم الحق ، فالحق وحده ليس يجدى .

ومن هنا طفقت نغمة القوة تبدو بين القيم التى يتهاتف بها الشعراء .

والذى يظنه الدارس أن مخايل هذه القيمة هو انعكاس للروح العامة التى أخذت تجيش فى صدور المسلمين ، وفى الوقت ذاته لم تعد تخطئها فى بعض الأبيات والقصائد ولدى الموهوبين من الشعراء فتلوح على صورهم وتراكيبهم ، وعلى أخيلتهم ، وقوة تأثيرهم ، لقد كان الحديث عن القوة يظهر بطريقة مباشرة ، وحينا تظهر آثارها فقط .

---

(١) السابق ٢/١٣٦ .

مما قاله "الخزنة دار" يعزو فيه استرداد الحق المسلوب إلى السيف ، ولولا السيف لضاعت الحقوق .

لولا البواترُ فى أيدى الأباة قضت
بالحقّ لم تعطِ ما أعطت ولم تَغِب
وهكذا الحقُّ لولا السيفُ يظهرُه
لمْ يحترمْ ربّه فينا ولم يهب (١)

ويمجد "أحمد أبو النجا" أثر السيف ، ويهيب "بمصطفى كمال" أن حسبك السيف منقذا ، ويدعوه إلى ترك مقارعة العدو بالأقوال والحجج ، فالسيف أصدق عادل محكم .

ثم يورد آثارا وأوصافا للسيف تبين قيمته فى إحقاق الحق ، فهو ان رأى الجور على الضعاف رده ، ومن البراهين على ذلك أنه يضيء بحده المسلول نور العدالة فى ظلام الظلم .

السيفُ حسبُك مُنْقذاً لعزيمةٍ
فدعِ النزالَ بحجةٍ وبقيل
والسيفُ أصدقُ عادلٍ حكّمته
لايرعوى لسياسةٍ وحويل
إنَّ همّ سيلُ الجورِ يكتسحُ الضعا
فَ أبى ولم يسمحْ له بمسيل
أو لم يضىءْ نورَ العدالة فى ظلا
مِ الظلم ضاءَ بحدّهِ المسلول
فى غمدِهِ للحقِّ جلبابٌ وكم
فى غَربِهِ للعدل من إكليل
وهو الذى يغشى الغشومَ بضوئِه
وهو الذى للنّصر خيرُ منيل (٢)

---

(١) ديوانه ١٣٥/٢ .
(٢) ديوانه ص ٧١ .

وإن عمد الشاعر إلى السهولة فى لغته لبيان دور السيف إلا أنه أتى بمجموعة من الصور الشعرية التقريرية ، التى أتت من غير انفعال فقل تأثيرها نحو قوله :

فى غمده للحق جلباب وكم ... فى غربه للعدل من إكليل

ويقول «صالح النيفر» وهو أحد الشعراء الذين يكثرون من نظم الشعر على تهافت فى المعانى ، وركة فى العبارات وتهاون فى صحة الأوزان ، لكن الباحث يأتى بأمثال هؤلاء للدلالة على تردى الحركة الأدبية بعامة فى بعض الولايات العربية ، وتردي الشعر بخاصة ، ثم تطوره من خلال الأحداث ، وانعكاس مخايل القوة عليه رويدا رويدا ، وهى حالة تمخضت فى النهاية عن ظهور مثل أبى القاسم الشابى (ت ١٩٣٤م) .

يقول «النيفر» إن الذئاب دائما تحج الخراف ، لأن الحق مع القوة ، والقوى محق أمين ، ولايسلم الباحث بهذه القيمة إلا فى أزمان الاختلال . يقول الرجل .

فإنّ الذئابَ تحجُّ الخِرافَ ... وإنَّ القوى محقٌ أمَين
ولولا الحديدُ يفلُّ الحديدَ ... لما كان فى جمعهم من معين
ولولا القواتُ تُبين الحقوقَ ... لما كان ربي القويُّ المتين
وذا خير درسٍ لكلِّ البلاد ... ترى الحقَّ فى طلب الطالبين
فان لم نعدَّ لها المستطاع ... رباط قواتٍ وسُحْب سفين
فلامن عهودٍ ولامن سلامٍ ... وما الحقُّ إلا مع الغالبين (١)

وأما «أحمد الشارف»(٢) الشاعر الليبى ، فيقول : حين تعذر

---

(١) الأدب التونسي فى القرن الرابع عشر ١/١٧٢ .
(٢) أحمد بن على الشارف ، ولد سنة ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م ، حفظ القرآن ، ودرس الفقه واللغة على كثير من شيوخ عصره فى بلده ، شغل عددا من الوظائف ، التحق بالمجاهدين إبان العدوان الإيطالى على ليبيا ، يلقب بشيخ الشعراء وشاعر ليبيا الأكبر ، توفى سنة ١٩٥٩م .
انظر : أحمد الشارف دراسة وديوان .

الحكم بين الخصمين المتنازعين كان السيف هو الفيصل الذى لاينازع قضاؤه ، ولاينازع في حكمه ، وإذا كانت الدماء أريقت فليس الذنب ذنبنا ، ولم نقترف جريرة العدوان ، ومحاولة التنكيل بنا لأننا ضعاف ، وتبلغ به الحماسة مبلغها حين يشير إلى معنى «المتنبى»:

عِشْ عزيزاً أومُتْ وأنتَ كريمٌ بَيْنَ طعنِ القنا وخَفْقِ البُنُود

يقول «الشارف»:

ولمّا تعذّرَ فصلُ القضا	وزادَ اللجاجُ وطالَ الخصامْ
أتى السيفُ بالرغم لابالرّضا	لحسمِ القضيةِ بين الأنام
فإنَّ الحسامَ إذا ماقضى	يُنزّهُ عن شبهةِ الاتّهام
فلاغَرْوَ إنْ جدَّ يوم اللقا	وسالتْ نفوسُ لحدِّ الظُّبا
فما الشرقُ أوجبَ أن تهرقا	ولكنَّما الغربُ قد أوجبا
حياةٌ على الضيم بئس الحياة	ونعم المماتُ إذا لم نفز (١)

وظاهر أن الشاعر نوّع فى قوافيه مع المحافظة على ترتيب المعانى فى الأبيات مسايرة لما في الموضوع من حماسة .

ويقول «أحمد محرم» إنَّ الحكم ماقررته السيوف ، وكل حكم بعدها باطل ، ثم إن بعض النفوس اذا لم تردعها عقولها عن الغى فان السيف هو الرادع .

هو الحكمُ أمضتْه السُّيوفُ القواطعُ
فلاحكمَ إلا باطلٌ بعدُ ضائعُ
إذا لم يَزَعْ بعضَ النفوسِ حلومُها
ففى السيف للغاوى المُضلِّل وازع (٢)

١ - ديوانه شرح العكبرى ج ١ ص ٣٢١

(٢) أحمد الشارف ، دراسة وديوان ص ١٠٢ ، ط/دار مكتبة الفكر ، على المصراتي .
(٣) ديوانه : السياسيات ٢/٥٢٨ .

ومن مطولاته التي بين فيها أن السيف هو الحكم في أعداء الخلافة ، ووحوش الاستعمار ، والحسام أعدل حاكم في الأرض إذا ماجمحت الأهواء بعقول الحاكمين ، وإذا خفنا وعيد الباطل فإننا لانستحق الحياة ، ولولا البأس لما حققت الأماني للشعوب ، ولانهضت الحظوظ بالعاثر حظه ، ولولا الحروب التي تخوضها الممالك لما قام لعروشها ملك .

ومافي الأرض أعدلُ من حُسامٍ إذا جَمَحَ الهوى بالحاكمينا
وماحقَّ الحياةِ لنا بحقٍّ إن خِفْنا وعيدَ المُبطلينا
ولولا البأسُ ماوُفِيَتِ الأماني ولانهضتْ جدودُ العاثرينا
ولولا النقعُ يُنهضُ مُكفهِرًّا لما نهضتْ عروشُ المالكينا (١)

ويقول «شوقي» إن الأماني المعلقة بالسيف لم تكذب ، وأن الأتراك تلمسوا سبل العزة فما وجدوا غير السيف موصلا لها .

ياحسنَ أمنيةٍ في السّيفِ ماكذبت
وطيبَ أمنيةٍ في الرأي لم تخِبِ
تلمّسَ التركُ أسباباً فما وَجَدُوا
كالسّيفِ من سُلّمٍ للعزِّ أوْ سَبَبِ

ويوجه نصيحة لبناة الملك عامة : أن الملك لايبنى بالأقوال بل الكتائب هي التي تبنيه ، ويفلسف معنى الحق اذ يقول : إنه عند هذه الأمم القوة وهو معنى من معاني الغلبة والانتصار .

ويتحين «شوقي» المناسبة فيعزف على قيثارة الحكم الأخلاقية التي يجيدها ويصوغ هذه الحكم صوغا عقليا كما يجرى بذلك أسلوبه في بعض المناسبات ، وحبذا لو لم تكن هذه الحكم في هذا الشكل التقريري العقلي ، فأخرجها في نسق

(١) السابق ٥٨١/٢ .

تصويري مختلطة بمشاعره واحاسيسه ، اذن لبلغ من التأثير والجمال منزلة عالية .

تدرّعت للقاء السّلم أنقرة
ومهّد السيف في اوزان للخطب

فقل لبان بقول ركن مملكة
على الكتائب يبنى الملك لا الكتب

لا تلتمس غلبا للحق في أمم
الحقّ عندهم معنى من الغلب

لا خير في منبر حتى يكون له
عود من السمر أو عود من القضب

وما السلاح لقوم كل عدتهم
حتى يكونوا من الأخلاق في أهب (١)

ولاشك أن تمجيد القوة وجعل السيف رمزا لها في معظم ماتقدم ماهو إلا صدى لما ذكره «أبو تمام» في قصيدته الشهيرة في فتح عمورية مما سأعرض له بإذن الله في مكان آخر .

(١) ديوانه : الشوقيات ٦٠/١ .

الفصل الثالث

حروب البلقان ١٣٣٠هـ/١٩١٢م

(١) فزع المسلمين لتساقط المدن العثمانية فى أيدى الأوربيين .
(٢) الطابع الصليبى للحرب .
(٣) وصف المعركة والجند .
(٤) تصوير الجرائم التى ارتكبها العدو .
(٥) استنهاض المسلمين والاستغاثة بهم .
(٦) الاتحاد ونبذ الفرقة .
(٧) الموقف من السلم .
(٨) القوة هى الفيصل فى التعامل مع الغرب .
(٩) الدعوة إلى الأخذ بأسباب العلم .
(١٠) الفخر والأمل فى غد مشرق .
(١١) الهجاء .
(١٢) معدات هذه الحرب .

تحالف دول البلقان :

قام تحالف بين «الصرب» ، و«بلغاريا» ، و«اليونان» ، و«الجبل الأسود» بمباركة «روسيا» ، و«بريطانيا» ، و«فرنسا» ، يجمعها العداء المشترك للدولة العثمانية برغم الخلاف الواضح حول أهداف تلك الدول ومطامعها في الدولة العثمانية .

وفعلا بعد أن تم التحالف قاموا بالهجوم على «تركيا» ونجحت الحرب في الاستيلاء على كثير من المدن التركية الهامة «كادرنة» ، «وسالونيك» ، بل لم يبق من المدن العثمانية الهامة في أوربا إلا «القسطنطينية» ، وعقدت هدنة لمحاولة إيقاف الحرب واقتسام الغنيمة ، وقامت ثورة داخل «تركيا» رفضت الصلح وواصلت الحرب ، ثم إن الحلفاء اختلفوا فيما بينهم ، فاستغل الاتراك الفرصة فهاجموا «بلغاريا» واستعادوا منها «أدرنة» ، ثم عقدت الهدنة وتم الصلح عقب تحقيق الحلفاء مكاسب ضخمة بعد أن خرجت «تركيا» مهيضة الجناح من جراء سياسة التتريك والضعف العسكري ، وازدياد العدوان الأوربي ، والاصرار على اخراج «تركيا» من خارطة العالم كقوة يحسب لها حسابها في الميزان الدولي[1].

جاءت هذه الحرب في وقت كانت الدولة العثمانية تعاني من مشكلات داخلية عنيفة نتيجة تسلط أعضاء "حزب الاتحاد والترقي"(لذلك حققت دول البلقان ، تعضدها قوى النصرانية في العالم انتصارات على الدولة) وسقطت مدينة «أدرنة» درة البلاد العثمانية ، فكان لسقوطها أشد الأثر في نفوس المسلمين ، وانبرى الشعراء كل على طريقته يعبر عن هول ذلك المصاب ، وراعت بعضهم وقفة أوربا ـ داعية السلام ـ بجانب دول التحالف ، فبينوا الهدف من تلك الحملة الضارية على

(١) انظر : التاريخ الإسلامي ـ العهد العثماني ـ ج ٨ ص ٢١٤ ـ ٢١٦
وتاريخ اوربا في العصر الحديث ص ٣٣٤ ـ ٣٥٤

الدولة العثمانية ، وهبوا يحثون المسلمين للوقوف إلى جانب دولتهم ، وعثرت على شعر غزير فى الصحف والدواوين لبعض شعراء تلك الحقبة ، وهو كم هائل يعطينا صورة مفيئة عن مؤازرة الشعراء لدولة الخلافة . ارتأى الباحث ترتيبها على النحو التالى :[1]

(١) فزع المسلمين لتساقط المدن العثمانية فى أيدى الأوربيين :

ترنحت دولة الخلافة فى مهب العصيان الذى أعلنته الدول الخاضعة لها فى أوربا ، ثم أيدتها بقية الدول الأوربية - كما سبق - ودارت الحرب ضروسا يؤرث نارها الحقد على الإسلام وأهله من ناحية ، وإخفاق دولة الخلافة فى اتباع السياسة الإسلامية الصحيحة فى معاملة الشعوب الأخرى من ناحية ثانية ، وتسرب عوامل الضعف إليها من ناحية ثالثة .

أما جمهرة الشعراء فأكثرهم لم يع هذه الحقائق وعيا كاملا وهاجت وجداناتهم غيرة على الدين ، وحزنا على ضياع بلاد المسلمين .

فهذا "أحمد شوقى" يأسى على سقوط "أدرنة" ويصل أحداث التاريخ بعضها ببعض ، فيذكره سقوطها ضياع الأندلس كاملة .

فمصيبة المسلمين فى "أدرنة" لاتختلف عن محنتهم فى الأندلس ، ولهذا الشبه الشديد بينهما فهما أختان ، إضافة إلى مايوحى به التركيب "أخت أندلس" من شجن ممتد ، وأسى عميق ، ومايبعثه فى نفس المتلقى من شعور بالأخطار الداهمة .

(١) مع اعتقادى أنه فاتنى شعر كثير لم يتسن لى الاطلاع عليه

وفي "نزل الهلال" لطيفة من لطائف الكناية الموفقة ، فالمعنى القريب غياب الهلال عن سماء المدينة ، وإطباق الظلام عليها ، والمعنى هو ازاحة علم الخلافة الذى يخفق فى سمائها فيبعث فى نفوس المسلمين الشعور بالعزة ، فزواله ظلام معنوى كالظلام الذى يقترن بغياب القمر .

والذى أزال الهلال عن أوجه هو الذى يحيل البدر إلى محاق ، القدر النافذ وقضاء الله الذى لايرد ... ونحن مؤمنون بقضاء الله ولكن كان أخلق أن يمد الشاعر عقله إلى ماوراء الاحداث والكوارث من أسباب ، ولو فعل لوجدها فى تراخى المسلمين وتفكك وحدتهم ... لكن الشاعر قنع بإظهار الاسى ، ورد الأمر إلى قدر الله ، دون أن يقرع بمطرقة النذر عقول المسلمين فيوقظها من سباتها ، وإن كنت أجد للشاعر شفيعا فى الصور الحزينة الملتاعة المتعاقبة "جرحان الثانى يسيل والأول بعد لم يلتئم" تعاقب المأتمان ، فلم يطو الأول حتى قام الثانى ، ولذلك قال «شوقى» :

يا أُخْتَ أندلسٍ عليكِ سلامُ ... هَوَتِ الخلافةُ عنكِ والإسلامُ
نَزَلَ الهلالُ عن السَّماءِ فَلَيْتَها ... طُوِيَتْ وعمَّ العالَمِين ظَلامُ
أزْرى به وأزالَه عَنْ أوْجِه ... قَدَرٌ يحُطُّ البدْرَ وهْو تَمَامُ
جُرْحان تَمْضى الأمَّتان عليهما ... هذا يسيلُ وذاك لايلتَئامُ
بكما أُصيبَ المسلمون وفيكما ... دُفِنَ اليراعُ وغُيِّبَ الصَّمصامُ
لم يُطوَ مأتمُها وهذا مأتمٌ ... لَبِسُوا السوادَ عليكِ فيه وقاموا
مابين مَصْرعِها ومصرعِكِ انقَضَت ... فِيمَا نُحِبُّ ونَكْرَه الأيَّامُ (١)

(١) ديوانه : الشوقيات ١/٢٣٠ .

فجرح المسلمين بفقد «أندلس» لايلتئم ، وستظل تذكر به الأيام على مر التاريخ ، وجرح المسلمين بفقد «أدرنة» مابرح يسيل ، وهما جرحان أوهنا العزم ، وبعثا الإحباط فى النفوس فلم يعد مجال للسيف أو القلم .

وفى البيت الأخير من المقطع إشعار بما أصاب النفوس بعد مافلت غربها المحنتان العظيمتان ، فأمست لاتبالى ماتأتى به الأيام من خير أو شر ، وتلك أقسى حالات الإحباط التى تمنى بها النفس ، أفلح الشاعر فى تصويرها من خلال ماتوحى به الألفاظ والتراكيب فى هذا البيت .

ويأتى العيد على «أحمد الكاشف» بعد نكبة «أدرنة» فيعيد أحزانه ، ويؤججها من جديد ، إذ كيف يطيب العيد والعدو رابض على أدرنة المسلمة ، البيت والحجيج حوله قد بلغهم حديث المسلمين فى دار الخلافة ؟ إنه لايبلغهم إنّما يستنفرهم ويحرفهم ، والتوجه إلى الحجيج فى البلاد المقدسة حين يحيق بالمسلمين فى أرجاء الأرض مكروه ، يطابق شعور المؤمن ، لأنها ملتقى المسلمين جميعا ، وقبلتهم ، ولأن فى التوجه الدائم إليها ، توحيدا لغايتهم الدينية والدنيوية .

وهل بلغ حديثهم البيت وهال الحجيج حوله ؟

إن الخطاب الشعرى عند «الكاشف» — كما تنم عليه أبياته — يمتزج بشعور دينى عميق ، وهو الطابع الذى أحسب أنه ساد جانبا من شعر هذه الحقبة ، وإن ظل الجانب الفنى يتفاوت من شاعر لآخر ، كما يتفاوت بين مرحلة وأخرى .

وهل بَلَغَ البيتَ الحرامَ حديثُهم
وهالَ حجيجاً حولَهُ وقَبائلا

وهل عَلِمَ القبْرُ الكَريمُ بما جَرَى
فَقَدْ بَاتَ مهتزَّ الجوانبِ سَائلا

ويختم القصيدة بقوله :

عَفَاءٌ على الدّنيا إذ بتُّ لا أرى
جحافلَ للإسلام تُرْدِي الْجَحافلا (١)

فالشاعر يرى أنه بلغ رسالته الشعرية إلى الأماكن المقدسة ، وأن خطابه قمين أن يستجمع المسلمين من أقطار الأرض ليذودوا عن دينهم وعن حرمة أوطانهم ، فإن لم يفعلوا فعفاء على الدنيا ، ولبطن الأرض خير من ظهرها مع ذل الهزيمة .

واللهجة الخطابية واضحة في أبيات الكاشف على الرغم من صدق مشاعره وتوجهه ، ولو أن ملكته الفنية ضارعت هذه الروح قوة لكان لأبياته تقدير أعلى .

ويصف«محمد بن محمود» حالة المسلمين حين سمعوا بأنباء الكارثة ، وكيف زلزل الخبر المفجع وجدانهم وقض مضجعهم .

لقد بكى لبُكاك المسلمون جوىً
وماشَكَاهم نزوحُ الدار أوْ مُنَعا

إذ كان خطبُك خطبَ الكلِّ قد نُكِبوا
فيه وقد فَجَعَ الإسلامَ مافَجَعَا

حزنٌ أنَاخَ على الإسْلام كَلْكَلُه
فناءَ بالعبءِ إعياءً ومضطلعا

وباتَ يهذي كَمَحْمُومٍ تُعاوِدُه
حمّاهُ أو شِبْه منْ قَدْ مُسَّ أو صُرِعا (٢)

وتوحي الأبيات بأن المسلمين في أقطار الأرض يتنسمون أخبار دار الخلافة على اختلاف الأوطان ونائيها ، وشح وسائل

---

(١) ديوانه ٢/٢٤ .
(٢) ديوانه ٢/١٠٤ .

الأخبار ، وبأن الحزن كبير مرهق ، وتبعاته جسيمة خطيرة ، ويصور الإسلام في قلوب أهله كأنهم محمومون عاودتهم نوبة الحمى ، أو أنهم جنوا أو صرعوا .

ويصف محمد الهاشمي (١) شدة حزنه وألمه من جراء ماصارت إليه ديار المسلمين في يد العدو ، وأضحت هدفا ومطمعا للغزاة حين قال :

ألَيْت شعري هل يباحُ لي الكرى ... وفي وطني هُوجُ الوقائع تَقصِمُ

بقلبي همومٌ لو تجشّمتُ بعضها ... عَييتُ وأعيا ساعديك التجشّمُ

أتى جارفُ الأعداء يغشى بلادنا ... لأمواجِه حول المواطنِ هيقمُ (٢)

فكيف يأتي لي النوم – والنوم لاينعم به غير الخليين وفي وطني هوج الوقائع تقصم ، وليست الهموم صغيرة ، في أمر من أموره الشخصية فيسلو عنها ، لكنها هموم الوطن الكبير وطن المسلمين .

بعض هذه الهموم لاكلها جدير أن يقصم الظهر ، فكيف بها وهي كثيرة ، فالعدو يأتي على الوطن من أطرافه كالسيل الجارف ، لأمواجه من حولنا هيقم .

والصورة في تقديري دقيقة موحية بصور كثيرة ، وما أريد تقريره في هذه اللفتة وأمثالها ، أن الحركة الشعرية طفقت تدب فيها الحياة على وقع الأحداث ، وهزها للمشاعر ، وبعثها

---

(١) محمد بن يحيى بن بكير الهاشمي ، ولد سنة ١٣١٥هـ/ ١٨٩٨م ببغداد ، درس بها في المدارس النظامية ثم في حلقات العلماء ثم سافر إلى القاهرة ودرس بالأزهر ودار العلوم ثم تركهما ، ودرس ببغداد في مدرسة الحقوق ، ناصر العثمانيين في بداية عهده ، ثم ناصر الثورة العربية ، له عدد من المؤلفات أهمها ديوانه . توفي سنة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م .
انظر : مقدمة ديوانه .

(٢) ديوانه ص ٢٥٢ ط/وزارة الثقافة العراقية ، تحقيق عبد الله الجبوري .

للعواطف ، وانعكاساتها في إطار الشعر رويدا رويدا ، صورة من هنا وصورة من هناك ثم يجيش قدر الشعر جملة .

أما الرصافي فقد اشتجرت في أبياته الآتية مشاعر الأسى بفقد «أدرنة» بمشاعر العزم والتصميم ، فيعيذها وهي في أسرها أن تتمهل ، لأن بين السيوف وبينها عهدا ستوفى به ، ويظهر الحسرة على مغانيها وروابيها الزاهية ، وعلى مسجدها الجامع الذي أحاله المليبيون إلى كنيسة ، وخلا من الركع السجود ، ومن المنبر والمحراب .

وإخراج «أدرنة» إلى دار الكفر فجيعة فجع الزمان بها أم القرى ، وقبر النبي – صلى الله عليه وسلم – وقبر خليفته ومن في البقيع وسائر الصحابة وكل المغاوير الذين شهدوا الفتوح ونصر الإسلام .

أدرنة مهلاً فإنّ الظُّبا ... ستَرعى لكِ العهدَ والموثقا
وداعاً لمغْنَاك زَاهِي الرُّبا ... وداعاً ولكنْ إلى الملْتقى
عزاءً لمسجدِك الجامعِ ... أفارقَ محرابُه المنبرا ؟
وهل في مصلاهُ من راكعٍ ... يُجيبُ المؤذنَ إن كبرا ؟
فيالَسقوطِكِ من فاجعٍ ... به فَجعَ الدهرُ أمّ القرى
وقبرَ النبُوّة في يثربٍ ... ومَثْوى مُجيعيّه مَثْوى التقى
ومنّ في البقيع ومَنْ في قبا ... ومن شَهدوا الفتح والخندقا (١)

ويتوالى سقوط المدن في أيدي الغزاة ، كعقد تنفرط حباته ، فحين لحقت "سالنيك" (٢) «بأدرنة» يبكيها «خيري

(١) ديوانه ٢٩١/٢ ، ط/وزارة الأعلام العراقية سنة ١٩٧٥م .
(٢) مدينة رومية قديمة تقع الآن في اليونان بالقرب من حدودها مع بلغاريا .

الهنداوي بكاء حارا[1] ، لكنه لايغفل العلل والأسباب التي أضاعت سلانيك، كما أضاعت سواها .

فقومها الذين أضاعوها بما تضيع به الدول والشعوب ، بله الأسر والأفراد ، أضاعوها بالأضغان والشقاق بينهم ، لم يستول العدو عليها ، بل هم أنفسهم الذين سلموها له بأيديهم . .

ويستأنس الشاعر في البيت الرابع بمعنى الآية الكريمة {إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم}[2] ، ويقرر هذا المعنى في البيت الثالث ، لتقوم الحجة على أهلها بأنهم هم الذين ضيعوها .

ويجيء البيت الخامس كأنه نتيجة للحقيقة السابقة ، فسالنيك لم تؤخذ غلابا ، وإنما فرطوا فيما وصاهم به دينهم من الاعتصام بحبل الله ، ومن نبذ الشقاق فضعفوا وذهبت منهم المدينة ، فتغيرت ملامحها ، وعرتها الأحزان .

أمّ البلادِ أضاعكِ الأقوامُ	فبكا مرابعَ مجدِكِ الإسلامُ
قد ضيعَتكِ بنُوكِ في أضغانِها	بلْ أسلمتكِ إلى العدى الأوهامُ
إنّ البلادَ إذا تخاصمَ أهلُها	فالأبْعدون بها همُ الحكّامُ
وإذا النفوسُ تغايرَتْ أهواؤُها	لاغروَ أنْ تتغيّرَ الأحكامُ
ذهبتْ سلانيكُ الغَداةَ مضاعةً	فتنكستْ لذهابِها الأعلامُ

---

(١) خيري بن صالح بن عبد القادر الهنداوي ، ولد سنة ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م ، تعلم مبادئ القراءة وعلوم العربية ، عمل موظفا في إحدى الشركات الأجنبية ، سخط على الأتراك في آخر عهدهم وأودع السجن وهرب منه إبان الحرب العظمى ، هادن الإنجليز في بداية أمرهم ، ثم نفوه إلى خارج العراق ، تقلب في عدة وظائف حكومية . توفي سنة ١٩٥٧م .
انظر : خيري الهنداوي حياته وشعره ، د. يوسف عز الدين .

(٢) سورة الرعد : ١١

قد أظلمت ساحاتها وتنكرت	عرصاتها وبكت بها الآكام
ضاقت مرابع أنسها من بعدما	رحبت وأوحش ثغرها البسام
نبأ تلعثمت الرواة بنقليه	وتعثرت بطروسها الأقلام
أم البلاد عليك من متوجع	قطن العراق تحية وسلام
ياملجأ الأحرار جاوزك البلى	خانتك بعد عهودها الأيام
لوكان يومك منه من أبنائنا	خبر لطاشت للعدو سهام (١)

كان أخلق أن يكون البيت الثامن مطلع القصيدة .

هذا على أن النص الشعرى صنعة فنية ، تتسق فيها الصور وتتناسب ، وقد يقال إن عرض الصور على هذا النحو أصدق فى التعبير عن التجربة التى زلزلت وجدان الشاعر .

وفى زعمى أنه أفلح فى تصوير مشاعره الحزينة على فقد «سلانيك» ، ويبدو ذلك فى كونه :

عمد إلى اختيار عبارات الحزن تعبيرا عن وقع المأساة على نفسه وعلى المسلمين عامة ، إذ كرر لفظة «ضاع» مع مشتقاتها «أضاعك» ، «ضيعتك» ، «مضاعة» ، أكثر من حروف المد فى القصيدة عامة ، وفى هذا المقطع بوجه خاص ، مما يعطى حسابا لإيقاع الحزن داخل القصيدة ، مع كونه ركز على الفعل الماضى إحساسا منه بذهاب تلك المدينة إلى غير رجعة .

وبذلك كان الشاعر بارعا فى التعبير عن فداحة الحدث ، كما سيتضح من بقية القصيدة التى سأعرض لها فى موضع لاحق .

---

(١) خيرى الهنداوى حياته وشعره ص ١٩١ ، ط/لجنة البيان العربى ، د. يوسف عز الدين .

الطابع الصليبى للحرب :

وعى المسلمون الهدف الذى من أجله نشبت هذه الحروب المتعاقبة على الدولة العثمانية ، وأنها حروب صليبية قصدها النيل من الإسلام والمسلمين ، ولذلك عبر أحد مسلمى الهند عن هدف حرب البلقان بقوله : "يوقد ملك اليونان نار حرب صليبية جديدة ، ويشير وزراء «بريطانيا» العصبية النصرانية على الإسلام ، ويأتمر وزراء الروسية فى «بطرسبرج» لرفع الصليب على قبة مسجد «أيا صوفيا» ، فاليوم هم يأتمرون فى هذا الخطب ، وغدا يفعلون مثل ذلك للاستيلاء على المسجد الأقصى فى بيت المقدس" (١) .

ولذلك انبرى بعض الشعراء ليؤكد تلك الحقيقة مثل «الكاشف» حين قال سائلا سؤال الساخر المستنكر :

صليبيةٌ يا قومُ أم عنصريةٌ
حروبُكم والدّينُ هذا أم الشِّركُ
وجيرانُكم أعداؤكم أم حُماتُكم
وأعداءُ عيسى المسلمون أم التركُ

ويذكر أن ليس من أخلاق «عيسى» عليه السلام ما ارتكبوه ضد الدولة العثمانية .

فهل كان عيسى يَطلبُ الثّأرَ بالخَنَا
وهل كان من أخلاقه البَغْيُ والفتكُ (٢)

والأنباء تترى بهزائم الدولة ، والمذابح على أشدها ضد بنى دينه ، فيسأل العيد سؤال الكمد المحزون قائلا :

---

(١) حاضر العالم الاسلامى ٣١٢/١ .
(٢) ديوانه ٢٥/٢ .

بأيةِ عيدٍ أنت ياعيدُ عائدٌ تفيض تباريحاً لنا أم شمائلا
جزعتُ من الأنباءِ حتّى كأنّني أُلاقي من الأنباءِ جيشاً مُقاتلا (١)

ويكرر تلك الأسئلة دلالة على شدة وقع المأساة على نفسه

فهل غادرَ الليثُ الرهيبُ عرينَه
وأسلمَ أبطالُ الذِّمار المَعاقِلا
وخانت سيوفُ الفاتحين أكفَّهم
وضلّتْ سفينُ الفاتحين السَّواحلا (٢)

ونلحظ أنه مع شدة الهزيمة للعثمانيين فإنه لم يعنفهم أو يحط من قدرهم ، بل أضفى عليهم ألفاظ الشجاعة والفخر مما يدل على مكانتهم في نفسه كما في قوله "غادر الليث" ، "أبطال الذمار" ، "سيوف الفاتحين" .

ثم ينقلب الشاعر إلى حال من الفزع واستعظام المصاب ، فينكر ماحدث ويستحث المسلمين أن يفيقوا من غواشيهم ، لأن النار التي أضرمها العدو شرعت تأكل أطرافهم ، وتغير على مستقر دولتهم ، فيسأل ويقرر أن تلك الأعمال إنما هي من تدبير ملوككم باسم "المسيحية" :

أقرَّ بأضغانِ النفوسِ ملوكُكم ومن كانَ في شكٍّ فقد ذهبَ الشكُّ
أفي كلِّ برٍ يحملُ الشرَّ جحفلٌ وفي كلِّ بحرٍ يرتمي بالأذى فلكُ (٣)

ويؤكد في قصيدة أخرى الطابع الصليبي لهذه الحرب ولذلك يتحسر على عدم نصرة المسلمين للخلافة العثمانية من أعدائها الكائدين .

حياتي لمغلوبين عانوا مكايداً
صليبيةً قبل الوغى وحبائلا

---

(١) السابق ٢/٢٣-٢٤ .
(٢) نفسه ٢/٢٥ .
(٣) نفسه ٢/٢٥ .

إذا استنجدوا بالمسلمين تخلّفوا
وكَمْ وَجَدوا من قومِ عيسى مخاتلا (١)

ويرسلها شوقى قوية إلى أولئك الذين استغلوا النصرانية فى جمع جحافل الأوربيين لمحاربة المسلمين ، حيث القسس تتقدمهم مزينين لهم قتال المسلمين ، فارتكبوا أبشع الآثام من القتل والتنكيل باسم المسيحية كذبا .

ويعلّل شوقى أسباب ذلك العنف بالطبيعة التى جبل عليها أولئك الأعداء وبالسياسة العامة التى توجههم ، فالقسس فى مقدمة المحرضين ، ثم الملوك الذين استعبدوا الشعوب الجاهلة كأنها أنعام ، ومن طبيعة أولئك الحكام :

سِكّينُه ويمينُه وحزامُه والمولجانُ جميعُها آثامُ

ويؤكد أن عيسى عليه السلام ماكان سفاكا للدماء ، ولاداعيا لارتكاب الجرائم والآثام ، بل كان داعية سلام ومحبة (٢) لذلك يقرر شوقى هوية تلك المعركة وأنها صليبية لامراء ، وأن هذه الحرب اعادة لما بدأه أجدادهم أيام صلاح الدين .

ويحثّه باسم الكتاب أقِسّةٌ
نَشِطوا لِمَا هو فى الْكِتابِ حرامُ
ومُسيطرون على الْمَمَالك سخّرت
لهم الشعوبُ كأنها أنْعَام
من كل جزّارٍ يرومُ الصّدْرَ فى
نَادِى الملوكِ وجَدُّه غنّام
سِكّينُه ويمنُه وحزامُه
والمولجانُ ، جميعهُا آثام

---

(١) السابق ٢/٢٥ .
(٢) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ١/٥٨ .

عيســـى سبيلُك رحمــةٌ ومحبــةٌ
في العالمين وعصمةٌ وسلامُ
ماكنتَ سفّاكَ الدِّمــاءِ ولاامـرأً
هانَ الضِّعافُ عليه والأيتام
ياحاملَ الآلام عن هــذا الـورَى
كَثُــرَتْ عليـهِ باسمك الآلام (١)
أنت الذى جعل العبادَ جميعَهَـم
رَحِمَاً وباسمك تُقَطّع الأرحام
أنتِ القيامةُ فى ولايـة يوســفٍ
واليومَ باسمك مرتين تقام
البغيُ فى دينِ الجَميع دنيّـةٌ
والسِّلم عهدٌ والقتالُ ذِمام
واليـومَ يهْتفُ بالصَّليبِ عَصَائـبٌ
همْ لِلإلَــهِ وروحِــه ظُــلّام
خلَطوا صَليبك والخناجرَ والمُدى
كلٌّ أَداةٌ لـلأذَى وحِمَــام (٢)

وهــذا الاسلوب الذى يقوم على سبك الكلام فى جمل قصيرة متلائمــة الفــواصل متعادلــة الفقرات مما يحدث شعورا بالحزن الهادىء العميق الذى أنعم وجدان الشاعر ، كأنه بقايا دخان من حريق كبير أتى على مدينة .

ويؤكـد عبد المحسن الكاظمى (٣) ماقرره شوقى ، والكاشف من

---

(١) يشير هنا الى اعتقاد النصارى من أنه صلب ليحمل خطيئة بنى آدم الأولى .
(٢) ديوانه : الشوقيات ١/٢٣٣-٢٣٤ .
(٣) أبــو المكــارم عبــد المحسن بن محمد بن على الكاظمى ، ولد سنة ١٢٨٢هـ/١٨٦٥م ببغداد ، ونشأ بالكاظمية وتعلم القــراءة والكتابــة ، حاول والده صرفه الى التجارة ، فتركهــا ومــال الــى الأدب وحفظ كثيرا من الشعر العربى =

أن طابع المعركة مليبي في قوله :

مليبية تدعونها ، ونعدها
هلالية والسيف أعدل حاكم

وسوف ترى سود القلانس ما الذي
ستلقاه من كرات بيض العمائم (١)

والحقد على الإسلام والمسلمين متأصل في نفوس دول البلقان ، والهدف من تلك الحرب هو هدم دعائم الإسلام وقوته المتمثلة في الدولة العثمانية ، وهو الدافع وراء ذاك التجمع الكثيف من الجنود الأوربية كما يقول «محمد الهاشمي» :

تألبت الأعداء طرا ليهدموا
دعائم للإسلام لاتتهدم

فياغيرة الإسلام هذا احتياجنا
إليك وهذا المأزق المتجهم (٢)

وكذا قول «عبد المحسن الكاظمي» :

حماة حمى الإسلام إن خصومكم
خصوم جميع المسلمين الأكارم

فلم يعدهم صدق الأحاديث عنكم
بإفك وشايات العدى والنمائم

تألف أهل العزم في كل بقعة
وقد عقروا الأضغان عقر السوائم

= اتصل بالأفغاني بالعراق ، ثم ذهب إلى مصر ولازم محمد عبده حيث كان يصرف عليه بعد أن افتقر ، يعتبر من كبار شعراء النهضة ، لقب بشاعر العرب ، يتقيل أساليب الشعر العربي الرصين ، توفي بالقاهرة سنة ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م .
انظر : شاعر العرب عبد المحسن الكاظمي ، د. محسن فياض ، الأعلام ٤/

(١) ديوانه ١١٩/٢ ، ط/ابن زيدون ، القاهرة ١٩٤١م .
(٢) ديوانه ص ٢٥٣ .

وهبّوا إليكم ينظرون بأكبدٍ
تغلغلَ فيها كلُّ همٍ ملازم (١)

أو كما يقول «أحمد أفندي» (٢) :

تردّت من ثياب الغدر ثوباً
تقادمَ نسجه من عهد عاد (٣)

ويعلن «محمد آل كاشف الغطاء» (٤) السوء الذي يكنه أولئك المعتدون على الإسلام والمسلمين .

كشّر الشرُّ عن عواطفِ سوءٍ
ليس تُبقي رسماً من الإحسان

اظهرَ الغربُ ما أجنَّ من الغدْ
رِ وأبْدى كوامنَ الأضغان

بيناتٌ تبينُ نياتِ بغي
أنضجتها تقلباتُ الزّمان

وأحاطتْ بالمسلمين علوجُ ال
بَغْي من كلِّ جانبٍ ومكان (٥)

ومن الدلالة على حقد الغرب على الإسلام والمسلمين أن معظم بلادهم وقعت في قبضة الغزو الصليبي الجديد ، ولم يقتصروا على حدود تركيا الأوربية ، بل تعدوها إلى ولايات أخرى في عمق الدولة .

فيتحسر «شوقي» على تلك الممالك ، مشيرا إلى تقلص ظل الدولة ونفوذها عنها بعد أن كانت زمنا تجمعها راية الهلال فهذه «مقدونيا» – أدرنة عاصمة الاقليم – أيضا ينقض عليها العدو فتلحق بتلك الممالك العظيمة المغتصبة .

---

(١) ديوانه ١١٧/٢ .
(٢) لم أعثر على ترجمته .
(٣) المقتبس عدد ١٠٤٢ في ١٣٣٠/١٢/٨هـ .
(٤) محمد حسين بن علي الرضا بن موسى بن جعفر كاشف الغطاء امامي من أهل النجف ، ولد سنة ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م ، كان فقيها إماميا كاتبا وشاعرا ، له مؤلفات منها : أصل الشيعة وأصولها ، وديوان شعر ، توفي سنة ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م .
انظر : شعراء الغرى ٨/ ، الأعلام ٦/
(٥) شعراء الغرى – أو النجفيات ١٧٩/٨ ، ط/المطبعة الجديدة في النجف ، تأليف علي الخاقاني .

بالأمس "أفريقيا" تولّت وانقضى
ملكٌ على جيد الخضمّ جسام
نَظَمَ الهلالُ به ممالكَ أربعاً (١)
أصبحْن ليس لِعقدهنّ نِظام
واليومُ حكمُ الله في مقدونيا
لانقْض فيه لنا ولا إبْرَام
كانت من الغرب البقيةِ فانقضتْ
فعلى بنى عثمان فيه سلامُ (٢)

ويذكر «محمد منيب زعتر» (٣) أن الغرب الذى هاجم مقدونيا وهيج حرب البلقان ، هو الذى هاجم طرابلس ، ونكل بأهلها على شتى طبقاتهم .

يا أيها الغربُ يكفينا مراوغةً
من السياسات أشكالا وألوانا
هيّجتِ للحرب طليانا وقد جهلتْ
شرّ العواقب تنكيلا وخُسرانا
فهاجمونا بغدرٍ فى «طرابلس»
وأججوا النارَ فوق القطرِ شنانا
لمْ يتركوا فى الحمى طفلاً ولا امرأةً
ولاشيوخاً وشحاذاً وعميانا
إلا وقدْ مثّلوا فيهم كأنّهم
يقرّبون بهم للربِّ قربانا (٤)

ويتعاظم الخطب النازل بالمسلمين ، فيوحد مشاعرهم ، تجاه رؤية ذلك الواقع على اختلاف بلدانهم ، فهذا «محمد آل

---

(١) مصر ، طرابلس ، تونس ، الجزائر .
(٢) ديوانه : الشوقيات ١/٢٣٣ .
(٣) لم أعثر على ترجمته .
(٤) المقتبس عدد ١٠٢٧ .

كاشف الغطاء» يبين ذلك الخطب ، وكيف ترددت أصداؤه فى بقاع المسلمين جميعا .

وأحاطت بالمسلمين علوجُ ال　　　بغي من كلِّ جانبٍ ومكان
يتشكّى "المُرّاكشيّ" اغتصابا　　　وكشكواه يشتكى العثمانى
وإذا ولولَتْ طرابلسُ فى الغر　　　ب أتاها العويلُ من إيران (١)

وصف المعركة والجند :

وصف الشعراء بعض المعارك التى دارت ، على تباين مواهبهم وقدراتهم واختلاف أوقات نظم قصائدهم .

فيسأل «عبد الرحمن المصرى» (٢) سؤال المفتخر مخاطبا صاحبه مخبرا عن دور الجنود العثمانية فى تلك الحرب ، وهلع دول البلقان منهم ، مستعملا ضمير المتكلمين شعورا منه بوحدة الأمة .

خليليَّ هلْ شاهدْتَ هجمةَ جندِنا
على دولِ البَلْقان بالصارمِ العضب
فلو شاهدَتْ عيناك والنَّقعُ ثائرٌ
عساكرُنا فى صدِّ ملحمةِ الغرب
لشمْتَ بنى البلقان يرجفُ قلبُها
وترعدُ كالمحموم من شدّةِ الرّعب (٣)

ويفخر الشاعر العراقى «عبد المحسن الكاظمى» فى مطولته بالجيش العثمانى ، ويبين انتسابه إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم ، شعاره التكبير ، تظلّله عناية الله ، وكأن «عليا» رضى الله عنه يصحبه ، وأن ما أبداه من فنون القتال أعاد به مجد العرب القديم .

---

(١) شعراء الغرى ـ النجفيات ٨/١٨٠ .
(٢) لم أعثر على ترجمته .
(٣) المقتبس عدد ١٠٣٠ فى ١٣٣٠/١١/٢٤هـ .

وفي الشطر الأخير إشارة صريحة لعصور الضعف والاسترخاء التي خيمت على الأمة الاسلامية بعد مجدها القديم :

وجندُك في الهيجاءِ أم جندُ أحمدٍ
تشيعه هيمُ القُلوب الهوائم

إذا لغطَتْ تلك النواقيسُ كبَّروا
وعادَ صدى تسْبيحِهم كالزَّمازم

جنودٌ كأنَّ اللَّه قال لها ارتقي
إليَّ ببيض الهندِ لابالسَّلالِم

كأنَّ علياً قائمٌ في صفوفها
يقوِّمُ معوجاتِها بالقوائم

أعادَتْ لنا المجدَ القديمَ وجدَّدت
بَوالِيَ هاتيكَ العُصُور القوادم

ثم يصور المعركة كم تصورها بخياله ، فالغبار ثائر والرياح عاتية ، وشفار السيوف تلمع في وسط الغبار كالبرق يلمع ويرى "من فروج الغمائم" ، والموت يصب صبا منها ، والنار تنبعث من تحتها ، والطائرات ترمي بنيرانها كذلك على رؤوس المقاتلين ، والبنادق والمدافع لها دور فاعل لاتبقي على شيء إلا أتت عليه ، ويخص المدافع ، فهي ذات أفواه ضخمة ، صواعقها تدك الجبال الشوامخ .

يثورُ عليها قَسْطلٌ بعدَ قسْطلٍ
ترى الهَوْجَ فيه بين مُسْدٍ ولا حم

تلوحُ شِفَارُ البيضِ بين عَجاجِها
كما شِيمَ برقٌ من فروجِ الغَمائم

إذا خَفَقَتْ أعلامُها الحمرُ خِلْتَها
قلوبَ بني البلقانِ بين الهماهم

كأنَّ مصبَّ الموتِ بين بُنودِها
يصبُّ على هامِ العدى بالخراطم
كأنَّ اللَّظى من تحتِها يَقذِفُ اللَّظى
ومن فوقِها بالطائراتِ الرَّواجم
لديها معداتُ المَنونِ كوامِلُ
تدارُ بأيدٍ للمنونِ كوالِم
فتلكَ اللّواتي قِيلَ عنْها بنادقٌ
رواجمُ لاتُبقي على كلِّ راجم
تُذيقُ الرَّدى من قبلُ أنْ يزحمَ الرَّدى
بأنفاسِه قلبُ الجرئ المُزاحم
وتلك اللّواتي قيل عنها مدافعٌ
تُهاجمُ أرواحَ الكُماةِ الهَواجم
ذواتُ لُهىً لايُسْبَرُ السيفُ غَورُها
إذا زَفرتْ أَتْت على كلِّ صارِم
لها مَعقَاتٌ تترُكُ الطَّودَ ذا الصَّفا
يلوذُ بكُثبانِ النَّقا والأناعم (١)

يقفنا الشاعر أمام معركة عصرية ، تقاتل الجنود فيها بشتى أنواع الأسلحة ، فالسلاح الأبيض كان له دور ووجود في المعركة ، وكذا البنادق والمدافع والطائرات من المخترعات الحديثة .

وجمع في هذا المقطع بين ماتختزنه ذاكرته من حروب على مر التاريخ ، وبين ماتموره في هذه الحرب .

واستخدم أداة التشبيه ليقرب الصورة ، وجعل من الموت شيئا محسا يصب بالخراطم فيوحي بالكثافة والغزارة .

---

(١) ديوانه ١١٦/٢ .

كأنّ مصبّ الموت بين بنودها   يصبّ على هام العدا بالخراطم

وجعل المدافع "ذات لهى" إذا زفرت أخذت على كل صارم ، فزادت الاستعارة من تفخيم صورة المدافع .

أما عن قوة فعلها فقد صورها ببراعة فى قوله :

لها معقات تترك الطّود ذا الصّفا

يلوذ بكثبان النقا والأناعم

وفى قوله : "وتلك التى قيل عنها بنادق" ، "وتلك التى قيل عنها مدافع" مايوحى بدخول بعض مصطلحات الحرب إلى اللغة العربية .

وأما محمد عبد المطلب فيبدأ فى وصف المعركة من مطلع القصيدة ، اذ هاله صوت المنايا وصليل السيوف وغبار المعركة الذى أشبه الليل ، والرياح العاتية تعصف عصفا ، وتحته نيران كثيفة تندفع من أفواه المدافع مصوبة للحصون والمعاقل ، ومن سجايا تلك المدافع أنها عمى اذا ما انطلقت فلافرق عندها بين المسالم والمحارب ، فهى تدك كل ماتأتى عليه ، ويحولها الشاعر من مادة جامدة الى مادة حية ، فهى ان غضبت كالجن تخالها فاغرات الخياشم ، تمزق المحاربين الذين تصيبهم أشلاء متطايرة يتلقفها الطير .

صريفُ المنايا أم صليلُ الصّوارم

وليلُ الرّدى أم نقعُ تلك الملاحم

تموجُ به الهُوجُ الخطوبُ وتحتَهُ

صواعقُ نيرانٍ دواهٍ دواهم

تصرّفُها فى كلّ حصنٍ ومعقلٍ

أكفّ الرّدى عن كلّ أسفعَ جاثم

مدافعُها عمىُ المرامى إذا رمتْ

رمتْ لم تميّزْ شكةٍ من مُسالم

وإنْ غَضِبَتْ فى مَوْقِفِ الهولِ خِلْتَها
بنى الجنِّ ثارَتْ فاغراتِ الخياشم
يشولُ بأشْلاءِ الكُمـــاةِ لُعابُهـــا
فهنَّ بأعلى الجوِّ بين الحَوائـــم
فمن هامـــةٍ تَهْوِى إلى جنْبِ حِدَّأةٍ
وجذعٍ تراهُ طائراً فى القشاعـــم (١)

وهكــذا استطاع الشاعر أن يتخيل تلك المعركة من منظور مــوافق لعصر تلك الحرب ، وما استخدم فيه من أدوات القتال ، فــى لغــة قويــة كقــوة تلــك المدافع ، ذات ألفــاظ جزلة ، فى ايقــاع موسيقى (بحــر الطويل) مناسب لهدير المعركة وقعقعة السلاح .

كمـــا استعـــان ببعض الأشكال البديعية ليزيد من الصورة تــأثيرا فــى وجــدان المتلقـــى ، وإن كانت كثرتها من مخلفــات عصور الضعف نحو قوله :

تموجُ به الهُـوَجُ الخطوبُ وتحتَــه
مواعقُ نيرانٍ دواهٍ دواهــم
مدافعُها عميُ المرامي إذا رمت
رَمَتْ لم تُمزَّزاشكةٍ من مُسالم

ويصف شوقى حصار أدرنة الذى دام خمسة أشهر ، وكيف كان حال المدينة مابين المدافعين والمحاصرين فالقتال مستمر فى المدينـــة ، والكــوارث المختلفة تنتابها ، فالحرب من جهة ، والسيول الجارفــة ، والثلــوج المتراكمــة ، والجــوع يفتــك بأهلهــا فتكــا ، وفيهــا أنــاس أتقيــاء فإن لم يجوعوا بسبب الحصار جاعوا صوما طاعة لله ، فهم يحتسبون ذلك عند الله ،

---

(١) ديوانه ص ٢٧١ .

ومن علامات تقاهم أنهم لم يرضوا لعرض أن يستبيحه العدو ، ويصور كيف كان الحصار شديدا فهو محيط بالمدينة "كأنما حلقاته فلك والقذائف ترمى عليها" ومقذوفاتها أجرام ، ولكن أهل المدينة والمدافعين عنها استماتوا فى الذود عنها :

ورمى العِدَى ورميتِهم بجهنمٍ مما يصبّ اللهُ لا الأقوام

وسقطت مدينة «أدرنة» فى يد العدو ولكنها لم تكن لقمة سائغة ، بل كل شبر منها بذل العدو ثمنا له من رجاله ، ويزيد الأمر توضيحا ويخاطب المدينة قائلا : "فالحصون بقيت ثابتة بينك وبين العدو كما كان بينك وبينهم من عظام القتلى أكوام كالحصون فلم يأخذك إلا بعد أن صرت مقابر لرجاله ، جثثا هامدة ولهذا لم تفعلى مافيه غبن ولامايقتضيه الندم" .

السيفُ عارٍ والوباءُ مُسلَّطٌ
والسيلُ خوفٌ والثلوجُ رُكام

والجوعُ فتّاك وفيه صحابةٌ
لو لم يَجُوعوا فى الجهادِ لَصاموا

ضَنّوا بعرضِك أن يُباعَ ويُشترى
عِرْضُ الحرائرِ ليس فيه سُوام

فاقَ الحصارُ كأنّما حلقاتُه
فلَكٌ ومقذوفاتُها أجرام

ورمى العِدَى ورميتِهم بجهنّمٍ
مما يصبُّ اللهُ لا الأقوام

بِعْتِ العدوَّ بكلِّ شبرٍ مهجةً
وكذا يُباعُ الملكُ حين يُرام

مازال بينكِ فى الحصارِ وبينَه
شُمُّ الحصونِ ومثلهنَّ عِظام

حتى حواكِ مقابراً وحويته
جُثثاً فلا غَبْنٌ ولا استذمام (١)

ولايخفى أن التناسب الإيقاعي في البيت الأول اضفى صورة مهولة على جو المعركة ومكانها ، وتشبيهه حمى المدينة من أن يستباح بالعرض والحاح الشاعر عليه في الشطر الثاني فيه تأكيد على مكانة العرض في حس المسلم ، وقول الشاعر "مما يصب الله لاالأقوام" فيه إشارة إلى قوله تعالى : {ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى} (٢) مما يدل أيضا على تأثره بالقرآن الكريم ، واستلهامه في شعره .

ويصف «خيري الهنداوي» كيف تزاحم الناس في «سالونيك» هربا عندما سمعوا دوى المدافع ، والبوارج تمخر عباب البحر كأنها الأعلام ، والدخان قتام ، وألسنة النيران تنبعث من أفواه المدافع ، ولكن وحيهن حمام ، والنتيجة أن الأرواح تتطاير من هول ماتسمع وترى ، مثلما أن الأجسام تتطاير .

لمْ يسمعا غيرَ المدافع مُحْوةً
فتسارعًا فإذا هناك زِحام
واذا البوارجُ في الخضمّ كأنّها الـ
أعْلَامُ تَمخُرُ والدُّخان قَتَام
والنارُ تبعثها المَدافعُ ألسناً
تُوحي ولكنّ وحيُهن حمام
تتطايرُ الأرواحُ من أصواتِها
رُعْباً كما تتطايرُ الأجسامْ
عِلْماً بأنّ الأمرَ ليس بهيّنٍ
بل إنّه أمرٌ الـمّ جسام (٣)

---

(١) ديوانه : الشوقيات ٢٣٩/١ .
(٢) سورة الأنفال : ١٧
(٣) خيري الهنداوي حياته وشعره ص ١٩١ .

ويصف شوقي كثافة جند الدول المتحالفة ، إذ غطت كل الاماكن ، وأخذت تحاصر المدن والقرى، وتضيق الخناق عليها :

أخذَ المدائنَ والقرى بخناقِها	جيشٌ من المتحالفينَ لُهَام
غطّت به الأرضُ الفضاءُ وجوهَها	وكست مناكِبَها به الآكام
تمشي المناكرُ بين أيدي خيلِه	أنّى مشى والبغيُّ والإجرام (١)

ويصف معروف الرصافي الجيش العثماني ويشيد بقدرته على خوض المعارك مع نزعة للفخر كأنه واحد من أفراد ذلك الجيش مما يدل على عاطفته تجاه الدولة ، ويشعر قارئ القصيدة بجلجة وحطمة مع سهولة في ألفاظها وكأنها لم توضع إلا للترنم بها في ميدان الحرب .

نحنُ للحربِ العَوان	ولإدراك الأماني
لانعدُّ العرسَ إلا	يومَ ضربٍ وطعان
يوم نحسو من دمِ ال	اعداءِ لابنت الدّنان
ماصليلُ السيفِ إلا	عندنا صوتُ المثاني
شفّنا الحبُّ لبيضِ ال	هندِ لابيضِ الحِسان
نشتهي غمغمةَ الابطالِ	لاعزفَ القيان
نحن لانفخرُ إلا	بلسانٍ من سِنان
شيمٌ ينظرُ من تحـ	ـتٍ إليها الفرقدان
وبها قد شهِدَ النجمُ	لنا والقمران
سلْ بنا كلَّ زمانٍ	سل بنا كلَّ مكان
هل بنينا المجدَ إلا	بالحسامِ الهُندُوان
كم جلونا غُمّةَ الهيجاءِ	ذاتِ المعمعان
بسيوفٍ أضحكت في الرّ	وعِ وجهَ الحدَثان
وكماةٍ ثبتت حيـ	ـثُ تزلُّ القدمان

---

(١) ديوانه : الشوقيات ٢٣٣/١ .

كلُّ رحبِ الباعِ معبُ الـ ... ملتقى ثبْتُ الجنان
رابطُ الجاشِ وقورٌ النَّـ ... ـفسِ جوالُ العِنان
حيثُ شَخَصَ الموتُ في الـ ... مأزق بادٍ للعَيان (١)

وينظم الرصافي قصيدة أخرى لما انكسر الجيش العثماني في معركة "السولا بوغاز" (٢) وكان قائد الجيش العثماني إذ ذاك ناظم باشا (٣) الذي قتله الاتحاديون في الاستانة (٤) حيث علل الشاعر الهزيمة وردها إلى خيانة قائد الجيش ، إذ أن الجيش كثير وقوي في نفس الوقت ولكن قائده تركه ولم يصرف شئونه فظلت الجند تقاتل مرتبكة ، واستفرغت جهدها في مناجزة العدو ، ولم تفر من المعركة على الرغم من هول ماواجهت إذ الفرار يوم الزحف كفر كما يقول .

ثم ينعى على قائد الجيش وتصرفه في أثناء المعركة ، فهو يلهو ويعاقر الخمر والنساء بينما جيشه يواجه أشد المصاعب مما أدى إلى خسارته في تلك المعركة .

تاللّهِ لم ينكسرْ في الحرب عسكرُنا
من أجلِ قِلتِهِ أو من جنايتِهِ
وكيف وهو يفوقُ الطيرَ كثرتُه
وتستعيرُ الرواسي من رَزانتِهِ
لكنَّ قائدَه ماكان يمْسَأنُه
ولايبالي بأمرٍ من مُعانته
حتّى لقد نَفِدَتْ في الحرب عِيْنَتُه
بحيث لم يبقَ سهمٌ في كِنانتِهِ

(١) ديوانه ٢/٣٠١ .
(٢) تقع على الممر الوحيد بين بحار أوربا وبحر مرمرة ، كان لها شهرة ابان الحرب العالمية الأولى كما سيأتي .
(٣) لم أعثر على ترجمته .
(٤) نفسه ٢/٢٩٧ .

فظلّ يرْسفُ في النيران مُرْتبكاً
مستفرغاً كلَّ جهدٍ من متانتِه
حتى غدا جلُّه للنّارِ ماكله
وماتزحزحَ شبراً عن مكانته
ولا استكانَ لهولِ الحربِ من فَرَقٍ
بلْ كان يَفْرَقُ من هولِ استكانته
فخاضَ غمْرَ المنايا صابراً وأبى
على الفِرارِ انغماراً في مهانته
ليس الفرارُ لجُنْدِ المسلمين ألاَ
إنَّ الفرارَ لكفرٌ في دِيانته
وكيف يَغْلِبُ جيشٌ كان قائده
يحفّه بجيوشٍ من خيانته
فالجيشُ تلتهمُ النيرانُ أنفسَه
وقائدُ الجيشِ لاهٍ في مجانته
أقامَ في القَصْفِ والأجنادُ طاويةٌ
معاقراً بهناءٍ بنتَ حانته
تلقاهُ من بين ذاك الرّهط في مرحٍ
كأنّه الجابُ ينزو بين عانته
لهْفي على الجيشِ جيشِ المسلمين فقدْ
قضَى ولمْ يقضِ شيئاً من لُبانته (١)

والرصافي في هذا النص الخطير لايوارب ولايداري بل يصرح بالسبب الحق للمحنة التي حاقت بالجيش ، وأنزلت به الهزيمة .

فلم يهزم عن قلة عدد أو عدة ، وإنما لأن قائده مفرط

---

(١) السابق ٢/٢٩٧-٣٠٠ .

مهمل في واجبات القيادة التي تموّن جيشه من الاندحار ، وإن صح مايروي «الرصافي» من أن القائد كان لاهيا عن المعركة بمعاقرة الخمر وبالقصف ... لوقفنا على أصل البلاء الذي ابتليت به الجيوش في هذه المعارك .

وصدق الله العظيم {وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا} (١) .

وإن صح مايروي الشاعر فان قصائد الشعراء التي أشادت بالجيش العثماني لاتعدو أن تكون أماني زخرفتها الأحلام على الرغم مما في بعضها من صدق الشعور ، وقوة العاطفة وجودة الأداء .

ويدعو «شكيب أرسلان» (٢) إلى تأمل الجيش العثماني وقد ملأ البر والبحر يتقدمه «أحمد عزت باشا الأرناؤوطي» قائد الجيش ، والأبطال من خلفه ، ليوث في الوغى ، بدور وأنجم في خارجه .

ويحذر العدو من غضبة المسلمين مؤكدا على تلاحمهم عربا وأتراكا ، مما يؤكد توجه الشاعر إلى وحدة المسلمين ونبذ الفرقة بين العرب والأتراك التي استفحل أمرها آنذاك فيقول :

---

(١) سورة الاسراء : ١٦

(٢) شكيب بن حمود بن حسن أرسلان ، ولد سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م من دروز لبنان ، درس في عدة مدارس ، عين في رتبة قائم مقام الشوف ، وعضوا في مجلس المبعوثان ، شارك في جهاد الطليان ، دافع عن العثمانيين ، وحاول الإصلاح بينهم وبين العرب ، عاش متنقلا بقية حياته بين دول أوربا مناصرا للقضايا العربية ، له عدد من المؤلفات منها : حاضر العالم الاسلامي ، تعليقات ، لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ، ديوان شعر وغيرها . توفي سنة ١٣٦٦هـ/١٩٤٦م .
انظر : شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، أحمد الشرباصي ، الأمير شكيب أرسلان حياته وآثاره ، د. سامي الدهان .

تعجّلتمـوا منّا شغـوراً شواغـراً
فهلّا وقد جـاءَ الخَميسُ عُرَمْرَمـا

خميسٌ إذا الثّنيـاتُ محّـتَ رايتـه
يُخيم معْـه نصرُه حيـثُ خيّمـا

تأمّـلْ أهاضيبَ الجبـالِ وقدْ رُسَتْ
وحدّث عن البحر المحيط وقد طمى

تضـىءُ نواحيـه بعـزةٍ "عـزةٍ"
مشيع ماتحت الضلـوع غَشمْشَمـا

يَليه مـن الأبْطـالِ كلّ غضنفـر
إذا عبس الموتُ الزؤامُ تبسّمـا

تراهمْ ليوثاً فى الوغى وضياغمـاً
وفى أُفق النّادى بدوراً وأنجمـا

فمن مُبلـغٍ البلغارَ أنّا إلى الوغى
واخوانَنـا الاتراك نزحف توأمـا

وانـا جميعٌ العربِ والتـركِ إخـوةٌ
عليهم إليهم يبتغـون تقدّمـا

وليس يزالُ العـربُ والتركُ أمـةً
حنيفيةً بيضـاءَ لـن تتقسّمـا (١)

---

(١) ديوانه ص ١٠٠-١٠١ . ط المنار مصر

تصوير الجرائم التى ارتكبها العدو :

مادام هجمة الحلفاء على الدولة العثمانية بتلك الشراسة ، يذكيها الحقد الدفين على العثمانيين ، فلابد أن تكون نتائجها وخيمة .

وقد صور بعض شعراء هذه الحرب فظاعة ماارتكبه جنود الحلفاء ، وكيف أنهم قتلوا النساء والأطفال ولم يسلم منهم أحد أو يجد رحمة وعطفا .

قد تتشابه جرائم الحرب فى جميع المعارك ، وربما يقال إن الإشارة فى جريمة تغنى عن ذكر الجرائم فى سائر المعارك، لكن إذا صح هذا فى رواية الأخبار وفى التاريخ ، لكن الشعر يختلف ، فقد تتشابه المعارك والنتائج لكن الشعر مع هذا التشابه لايكون متشابها ، أو المفروض ألا يكون متشابها ،بل يتميز باختلاف الأوقات والشعراء ، لأن اللغة الشعرية تقاس بالشعور وبطريقة الأداء لابالحوادث اللهم إلا فى عصور الضعف والتأخر ، فهنا يكون الجمود هو علة التماثل .

ومن الشعراء الذين وصفوا لنا جرائم هذه الحرب،محمد عبد المطلب،إذ يصف تعدى العدو طوره إذ استضعف العثمانيين وعاث فى الأرض فسادا ، حتى الضعفاء سامهم عذابا ، وغالى فى انتهاك المحارم ، ثم يبين ماالمقصود بتلك المحارم ، ويركز عليها فى بيتين نظرا لمكانة العرض فى حس المسلم ففيه دعوة صريحة واستثارة لهمم المسلمين لحمايتها .

فمن حرةٍ تَبْكى عفَافًا هَفتْ بـه
يدُ البغى من تلك الأكفِّ الظوالِم

إذا صَرَخَتْ فى الخِدْر لم ترَ ناصراً
وإنْ تستغثْ لم تلقَ رحمةَ راحم

وإذا كان هذا حال النساء ، فحال الأطفال الذين لايملكون حتى الفرار أشد وأنكى :

وطفلٍ يعاني سَكْرةَ الموتِ في الظُّبى
ويكْرعُ من كأسِ الرَّدى غيرَ هائمِ

إذا مابكتْه أمُّه فتكَتْ بها
ذُبابةُ هنديٍّ من البيضِ صارمِ

ثم يبين وقع ذلك المنظر على نفسه :

بواكٍ يذيبُ القلبَ رجعُ أنينِها
وتجْرى لها حُزناً دموعُ الغمائمِ (1)

ويقدم «أحمد شوقي» صورا من تلك الجرائم التي ارتكبها الغزاة ، فالأطفال الرُّضع فطموا على حد السيوف ، والصبايا اللواتي هتكت أعراضهن ، والشيوخ الذين استبيح وقارهم ، وجريح لم يحنوا عليه بل وأدوه ، ومهاجرون تنكرت لهم أوطانهم ففروا إلى هنا طلبا للنجاة ولات نجاة ، فمصيرهم إلى السيف إن حاولوا ، والنطع يطلبهم إن قاموا ، ثم يصف حزنهم وهم يجمعون أنفسهم مودعين "فاللحظ ماء ، والديار ضرام" .

كم مرضعٍ في حِجْرِ نعْمتِهِ غدا
وله على حَدِّ السيوفِ فِطَام

وصبيّةٍ هُتكت خميلةُ طُهْرِها
وتناثرتْ من نَوْرِه الأكْمام

وأخي ثمانين استبيحَ وقارُه
لم يغنِ عنه الضَّعفُ والأعوامُ

---

(1) ديوانه ص ٢٧١-٢٧٢ .

وجريح حرب ظامىءٍ وأدوه لم
يعطفهم جرحٌ دمٍ وأوام
ومهاجرين تنكرت أوطانهم
ضلوا السبيل من الذهول وهاموا
السيفُ إنْ ركبوا الفرارَ سبيلُهم
والنطعُ إن طلبوا القرار مُقام
يتلفتون مودعين ديارهم
واللحظ ماءٌ والديارُ ضِرام (١)

وفى المقطوعة تألقت موهبة الشاعر فى غير ماتكلف للفظ ولا اعتساف لمضايق القوافى ، فالمعانى والالفاظ والصور تنساب كنسيم رقيق هادىء ، محدثة أثرها العميق فى نفس المتلقى .

ويستوقف الباحث فى هذه المقطوعة أمثال هذه الصور "المرضع فى حجر امه الذى يفطم على حد السيوف" فالصورة مكتملة تامة ، ولاكتمالها أثره فى إحداث ذلك الأسى ، فلو قال "الرضع" واكتفى دون ذكر الأم لماكان لقدهم بالسيوف هذا الاثر ، وانهم فى حجر أمهاتهم جعل قد الرضيع بالسيف فطاما له ، لأنه بالفعل فطام له عن ثدي الأم وعن الحياة بأسرها .

وهكذا بقية الصور فى هذه المقطوعة ، فهى نابعة من وجدان الشاعر ، مصوغة صياغة فنية رائعة .

ويبين الشاعر العراقى،محمد الهاشمى،سطوة دول البلقان على المسلمين والظلم الذى حاق بهم ، اذ أبادت جموعا غفيرة منهم :

(١) ديوانه : الشوقيات ١/٢٣٥ .

سطتْ أمُّ البلقان في الأرضِ سطوةً
تمورُ سماءٌ من لظاها وأنجمُ
وفي "الرّوملي" قد أنْزلَ الخطبُ رحلَه
وأصبحَ فيها الظلمُ وهو مخيّمُ
هنالك ذلّ المسلمون ودُمّرت
بلادُهم يا منْ من الذلّ يُعصِمُ
وكمْ قد مضى منهم خميسٌ عرمرمٌ
إلى الحرب يتلوه خميسٌ عرمرمُ
فجاهدَ حتّى شتّتَ الموتُ شملَه
وزاحمَ بحرَ الموتِ والبحرُ مُفعمُ (١)

وينظم «محمد حسين آل كاشف الغطاء» قصيدة نونية عرض فيها تربص الغرب بالشرق ، وعدد ألوانا من الجرائم التى ارتكبت فى هذه الحرب ، وفى عدوان «إيطاليا» على «طرابلس» – كما سيأتى – وبدأها بهذا المطلع :

سلْ لدى الحرب السنُ النّيران عن منيعِ الإنسانِ بالإنسان
أو سلْ الأرضَ ماجرى فسيولُ الـ ـدّم فيها هدّارة بالبنيان
أو سلْ الشرقَ مالقيتْ من الـ ـغرب وعدّدْ غرايبَ العُدوان

ثم يبين صور النساء والأيامى والأمهات اللاتى رزئن فى هذه الحرب ، ودعا المسلمين إلى نجدتهن شاحذا العزائم والهمم .

كم بريئاتٍ انفسٍ اشبعتها
غُصصُ الموتِ خاشعاتِ الأماني
كم مصابيحَ أوجهٍ اطفأتها
واغراتُ الصدورِ بالشنآن

---

(١) ديوانه ص ٢٥٤ .

كم ثمارٍ قد اينعتْ من رؤوس
فجنتها بالظلم كف الجاني

سلْ قذيفَ المكسيم كمْ من فِرابٍ
سيمَ خَسْفاً فيه على العمران

كم جريحٍ ملقىً وآخرُ شلو
وصريعٍ مفنىً وآخرُ عاني

كم رؤوسٍ أوْدى بها حِممُ القلْع
فسالتْ غازاً على الجثمان

كم نساءٍ اضحت ايامى تعاني
من يتامى فقيدها ماتُعاني

تعقدُ الراحتين بالقلب مهما
نثرتْ بالدّموع عِقدَ جمان

كم ثُكولٍ تُشجى الحمائمَ بالنو
ح فتبدى غرائبَ الالحان

ولكمْ أم واحدٍ ذات رزءٍ
مالها عن عويلها من ثاني (١)

والشاعر دلف إلى موضوعه مباشرة ، واتخذ صاحبا له ، يخاطبه يبين له واقع ماحدث ، وكرر أداة الاستفهام "كم" تفخيما وتكثيرا لأعداد الموجوعين ، وعمد لبيان الصور الحزينة ، من نساء ثكل مشردات وأطفال رضع يبكون ولاعائل لهم .

(١) شعراء الغرى أو النجفيات ١٧١/٨ .

استنهاض المسلمين والاستغاثة بهم :

إلى جانب ماسبق من جرائم رسمها شعراء تلك الحرب ومافيها من استنهاض لهمم المسلمين ، فقد دعا بعض الشعراء اخوانهم المسلمين إلى اعانة الدولة ، ورعاية منكوبي الحرب وانب بعضهم الدولة والمسلمين في أرجاء المعمورة على خذلانهم لإخوانهم الذين اصطلوا بنار تلك الحرب .

واتخذ «خيري الهنداوي» صورة جديدة في تأنيب العثمانيين اذ تصور حادثة محبين كانا يعيشان في سعادة وهناء ، وقد خيم الحب عليهما وسقاهما من كئوس اللقاء مترعة في نشوة وجذل ، إذ هاجمت قوات «البلغار» المعتدية الدولة التركية فما كان من الشاب «نجيب» إلا ان يلبي داعي الجهاد للذود عن حمى دولته والدفاع عنها ، وفي «سلانيك» يلاقي مصيره المحتوم ، فتنكب عليه حبيبته "أسماء" هلعة جزعة ، فقد اختطف العدو حبيبها الغالي ، واحاطوا بها من كل جانب ، وليس لها من معين غير حسرات حرار ، ودموع غزار ، والأسر الذى يوصلها ذليلة حسرى الى امير جيش الاعداء فتصرخ الفتاة مستغيثة تطلب النجدة والعون [(١)] :

كم روعت في ساحتيك لدى الوغى
خودٌ وكم لفظ الحياةَ غلامُ
عاشا زمانا في بلهنية الصِّبا
غرّين لم يزعجهما النمام
لم يسمعا غيرَ المدافع فُضُوة
فتسارعا فإذا هناك زحام

---

(١) الشعر العراقي الحديث ص ٦٥ .

رجعا وقد اخذ العدوُ عليهما
سبلَ الرجوعِ ولبس ثمَّ مقامُ
فتعانقا من بَعْد أنْ عَلِمَ الفتى
أنْ ليس يُغنى عنهما الإحْجام
أسماءُ ها أنا ميتٌ فتأمّلى
هلْ تذكرينى والعظامُ رِمام
قالتْ وقدْ منعَ البكاءُ كلامَها
إنْ حلَّ موتُك فالحياةُ حرام
وبكتْ فبدّلت الدموعُ بخدها
درراً لها الحسنُ البديعُ نِظام
ظلتْ تودّعه وتلثم ثغرَهُ
والموتُ نحو همالهُ إرْزام
فمضى "نجيبُ" غيرَ موجس خيفة
فى كفّه البأسُ الشديدُ حسامُ
متلفتاً ليصيبَ آخر نظرةٍ
منها فلم تسمحْ له الأقسام
بلْ فاجأتْه من الفضاء رصاصة
لا الخوفُ يدفعُها ولا الإقدامُ
فهوى يجودُ بنفسِهِ مُتعفّراً
يعلوه من مَرِّ الرِّياح رُغامُ
فأتتْه صارخةً تشقُّ جيوبَها
حسرى تجيشُ بقلبها الآلام
أمجرعى الثكلَ الممضَّ أناثمٌ
أمْ قدْ أتاكَ عن الوُشاةِ كلام
فمددْتَ عنّى مُعرِضاً متجهمّاً
لاكان ماهمست به اللُّوام

إنْ كنتَ تحسبُنــي جنيْــتُ جنايــةً
فالصفحُ عند الأكرمين يشامُ

ظلّــت تخاطِبــه ولامــن سامــع
وتذودُ دمعَ العينِ وهو سَجامُ

حتى إذا علمتْ بألا يُرتجى
لنجيبها حتّــى القيــام قيــام

مكّــت براحتِهــا مُنيــرَ جبينِهــا
فاسودّ ذاك البدرُ وهو تَمامُ

مَرَخَــتْ بأعلــى موتِهــا مرعوبــةً
فالتفّ حول صُراخِها الأقــوامُ

أخذوا الفتــاةَ أسيــرةً لأميرِهــم
تدعو الكرامَ وماهناك كرامُ

ثم أخذ الشاعر يؤنب المسلمين الذين تقاعسوا عن اغاثة تلك الفتاة لأنهم "نيام" ويزيدهم تأنيبا وتوبيخا بأنه لايوجد بهم رجل "كالمعتصم" ، بل ولايوجد بينهم همام ، ويعلل السبب فى عدم استجابتهم بأن العواطف ماتت بموت الرجال ، واصبح البقية أيتاما لاحول لهم ولاطول .

ياهذه كفّى الدعاءَ فقومُنا	لو تعلمينَ عن الدعاءِ نيام
لاتستغيثى ليس معتصمٌ بنا	كلّا ولافينا بُعيدُ همام
ماتت عواطفُنا بموت رجالنا	فجميعُنا بمماتهم أيتام (١)

وفكرة القصيدة بارعة - كما سبق - واتت صياغتها بأسلوب قصصى ، إذ أتت على شكل فقرات شعرية ، وحافظ الشاعر على التدفق والتساوى فى مقاطعه ، ولم يكن معتمداً على إيصال الفكرة فحسب ، فتجنب السرد ، واتى بمشاهد متحركة نابضة ،

---

(١) خيرى الهنداوى حياته وشعره ص ١٩١-١٩٢ .

فتحولت الفكرة من مصرع محبين في ساحة المعركة إلى استنهاض لهمم المسلمين من جهة ، وتأنيب للحكام من جهة أخرى ، إذ يتضح ذلك من قوله :

ياهذه كفّي الدعاءَ فقومُنا ... لو تعلمينَ عن الدعاء نيام

كما كان موفقا أيضا في أساليبه ، إذا استخدم النداء في فقرتين للفت الانتباه ، كما استخدم أداة الاستفهام على لسانه ولسانها .

أسماءُ ها أنا ميت فتأملي ... هل تذكريني والعظام رمام

أمجرّعي الثُّكْلَ الممضّ أنائمٌ ... أم قد أتاك عن الوشاة كلام

واتسمت لغة الشاعر بلهجة رومانسية حين جعل ذلك الفتى يمتشق الحسام تاركا محبوبته على الرغم من غرامه بها ، فكان موته بطوليا .

و"الرصافي"بعد أن عرض لجرائم البلقانيين في إحدى قصائده ، استنهض همم المسلمين للذود عن الاسلام والمسلمين ، وأنبهم في قعودهم والمصائب تترى بالغة منتهاها .

أرى الدهرَ أنهضَ كلّ العدا ... على حين قد قَعَدَ المسلمون

فكم جرّعونا كئوسَ الرّدى ... ونحنُ على كيدِهم صابرون

أيحْسُنُ ياقومُ أن نقعدا ... وقدآن أن ينهض القاعدون

فسيلُ المصائب غطّى الرُّبا ... وغيمُ النوائب قد طبّقا

وأوشكت الأرضُ أن تُقلبا ... وصبحُ القيامة أن يفلقا (١)

ويبين "محمد بن محمود" (٢) أن السيف والنار اجتمعا ليفتكا بالمسلمين ، وأن دول البلقان ارتكبت في حقهم فظائع عدة ، فالمساجد خربت ، وحول بعضها إلى كنائس ، والدماء أهرقت ،

---

(١) ديوانه ٤٨٤/١ .
(٢) لم أعثر على ترجمته .

والعفاف انتهك ، والهلال نكس ، والصليب اصبح عاليا ، ويدعو رئيس الحكومة «انور باشا» إلى أن يثار لما استبيح من أعراض المسلمين ودمائهم[1] .

ماذا جنى مسلمو البَلْقان حين غَدَوْا
يُسْتصرخون فلا يُلقون مُستمعـا

والسيفُ والنارُ فيهم يفتكان معـا
فتكاً تسيلُ به أرواحهم دُفعـا

ياويحها أرْبُعُ البلقانِ كمْ شهـدتْ
من الفظائعِ ماضاقتْ بـه ذرعـا

أضحتْ مخضبـةَ الأرجـاءِ شارقـةً
وإنّما بدمِ الإسلام قـد هَمَعـا

يا أنورُ التركِ نعم الفألُ تسميـةً
قل للثّعالب قد هيّجتمُ السّبُعـا

وللمساجـدِ أمسى بعضُهـا خُربـاً
والبعضُ واحرَّ قلبى قد غدا بِيَعا

وللدمـاءِ التى قـدْ أُهرِقتْ هَـدَرا
وللعَفَافِ الذى قد باتَ مُفترَعـا

وللهـلالِ الذى قـدْ باتَ منتكِسـاً
دونَ الصليبِ الذى من فوقِه وُضِعا[2]

---

(١) انور باشا بن أحمد بك ، ولد سنة ١٢٩٩هـ ، من حاشية السلطان عبد الحميد ، مستعيد ادرنة من البلغاريين ، وزير الحربية فى حكومة الاتحاديين ، وعندما انهزمت الدولة إبان الحرب العالمية الأولى ، حاول استغلال فرصة الخلاف بين روسيا وأوربا الغربية فقاد حربا ضروسا ضدها وعندما شعرت بتعاظم قوته جردت جيشا كثيفا قضى على قوته ، إذ تفرق الجند عنه بسبب عيد الأضحى ولكنه قاتل حتى قتل سنة ١٩٢٢م .
انظر : تاريخ الدولة العلية ، العثمانيون والروس .

(٢) ديوانه ٢/١٠٣ .

وقد سلك الشاعر مسلكا حسنا في تعداده لجرائم العدو من تحويل المساجد إلى بيع ، وتنكيس الراية العثمانية ، وإعلاء شعار النصارى ، ثم انتهاك للأعراض ، وهذه القضايا من أهم ماتثير الإنسان المسلم .

على انه كان مقررا في ذلك ولم يكن شاعرا بمستوى الشعراء المشهورين ، برغم عاطفته المتقدة تجاه قضايا الإسلام والمسلمين .

ويخاطب/شوقي«ادرنة آملا أن تتذرع بالصبر فان كل ملك زائل ، ولن يبقى إلا الله الواحد العلام ، ثم شرع يبين أن أهم مظهر يدل على المسلمين قد خفت ولم يعد له ذكر هنالك ، ذاك هو الاذان ومافيه من عبارات التوحيد ، بل ولانجد الجمع التي تلم شمل المسلمين في أهم مظهر أسبوعي لوحدتهم .

ويذكر أن قبور الفاتحين في مدينة «أدرنة» قد طالها الخراب والدمار بعد ماكانت فيه من عزة ومنعة .

ولاشك أن ذكر هذه الأمور ومآلت إليه لها دلالتها في حس المسلم ، فتستثير همته للدفاع عنها وإعادتها إلى ماكانت عليه .

صبراً "أدرنةَ" كلُّ ملكٍ زائلٌ
يوماً ويَبْقى المالكُ العلّامُ

خَفتِ الاذانُ فما عليك موحدٌ
يسعى ولا الجمعُ الحسانُ تُقامُ

وخَبَتْ مساجدُ كنَّ نوراً جامعا
تمشي إليه الأسْدُ والآرامُ

يدْرُجْنَ في حرمِ الصلاةِ قوانتاً
بيضَ الإزارِ كأنهنَّ حمامُ

وعفت قبورُ الفاتحين وفضّ عن
حُفر الخلائقِ جندلٌ ورِجامُ
نُبِشتْ على قعساءِ عزّتها كما
نُبِشتْ على استعلائِها الأهرامُ (١)

ولايخفى أن الشاعر بدأ هذا المقطع بنغمة حزينة ، ثم بعبارة "كل ملك زائل" وأتت الأفعال الماضية دالة على الزوال .

وقوله "كن نورا جامعا" لبيان وظيفة المسجد فى حياة المسلم ، والأوصاف التى أطلقت على النساء كلها توحى بالطهر والصفاء .

ويخاطب عبد الرحمن المصرى (٢) العرب والأتراك ، ويدعوهم إلى اتخاذ السيف فى الحرب عوضا عن البنادق "الموزرية" :

بنى يعربٍ أين الشجاعةُ فى الوغى
بنى التركِ أين الحزمُ فى شدّةِ الكَرْب
دعوا الموزرَ المرتين فى الحرب واسحبوا
السيوفَ فإنّ السيفَ أحكمُ فى القُرُب (٣)

ويدعو فخرى البارودى (٤) إلى مد يد العون لإخوانه ، والإسراع فى ذلك لئلا يطمع العدو فى أملاك المسلمين إذ "كل حصاة فى ممالكنا قلب" .

بدارِ بنى عمّى أرونى سيوفَكم
وهُبّوا خِفافا لايؤخّرْكم رهَبْ
فما اليومُ إلا يومَ عزٍّ ورفعةٍ
كما أن رفعَ الشأنِ تأتِ به القضب

---

(١) ديوانه : الشوقيات ٢٣٨/٢ .
(٢) لم أعثر على ترجمته .
(٣) المقتبس عدد ١٠٣٠ ، ذو القعدة ١٣٣٠هـ .
(٤) لم أعثر على ترجمته .

ولايطمع الأروامُ في سلْب ملكِنا

فكلّ حصاةٍ في ممالكِنا قلب (١)

ويدعو «أحمد أفندي يبرود» (٢) أمته إلى خوض المعركة ، بل واحتلال عواصم أوربا !!

وخوضوا النّقعَ والهيجاءَ حتّى

تنالوا منهم أقصى المُرادِ

وتحتلّوا العواصمَ من ملوكٍ

مغطرسةٍ بأبناءِ السّوادِ (٣)

والحق أن الشاعر رقيق العاطفة والشعر معا ، اذ أن الجيش العثماني يلقى أشد البلاء من عدوه في عقر داره ، ويأتي هذا الشاعر ليهيب به أن يحتل عواصم الأمم التي هاجمت الأتراك مما يشير إلى :

ركة المشاعر وسذاجتها ، وانعكاس هذا على الشعر مما أدى إلى التهويل والمبالغة والسبب في ظني هو ضحالة الثقافة بعامة ، والثقافة اللغوية بخاصة ، عند هذا الشاعر وأمثاله من الشعراء المجهولين جدا الذين ساعدت الصحافة على نشر شعرهم برغم ضعفه .

وهذا واحد من أولئك الشعراء رمز لاسمه "بالصارخ" يحض المسلمين على خدمة إخوانهم ، تبرعا بالمال ، وذبا باللسان حفظا للدين وخدمة للسلطان .

وليس أعظمُ أجرا	من خدمةِ الإنسان
عاينْتمُ وشهدْنا	ماحلَّ بالأوطان
إنْ لمْ تجودوا بمالٍ	فحرّضوا باللّسان

---

(١) السابق عدد ١٠٣٧ ذو الحجة ١٣٣٠هـ .
(٢) لم أعثر علي ترجمته .
(٣) نفسه عدد ١٠٤٢ ذو الحجة ١٣٣٠هـ .

حفظاً لدينٍ ودنيا ونصرةِ السّلطان
ياقوم شعب غريق قد مُدّ منه اليدان
ياللعظائم ان لم ننهض باسرع آن (١)

ويوضح "محمد منيب زعيتر" أن حالة المسلمين تدمى القلوب وأن الغرب استذلهم ، ويخاطب المسلمين ويبين انهم إن رضوا بهذا الذل فإن العدو سيسلب جميع أملاكهم ، لذا يطلب منهم أن يبذلوا الانفس والأموال حماية لأوطانهم ، وليوقنوا أن الله ناصرهم فهو رحمان ، معين لكل مظلوم .

فنحنُ في حالةٍ تُدمِي القلوبَ جوىً
ومجدُنا عند أهلِ الغربِ قَدْ هانا
وإنَّ رضيتم بهذا الذلّ من كَسَلٍ
فأيقنوا أنَّ سلّبَ الملك قدْ حانا
فبادِروا واسمحوا بالمالِ وابتذلوا
أرواحَكم كى تصونوا اليومَ أوطانا
واللّه معوانُ أقوامٍ إذا ظُلِموا
وناصرٌ لهمُ إذْ كان رحمانا (٢)

وشعراء "المقتبس" وإن عمدوا إلى النبرة الخطابية والناحية التقريرية فى تأنيبهم للمسلمين ودعوتهم إلى إغاثة بنى دينهم ، إلا أنه يكفى وعيهم بذلك الدور المنوط بالمسلمين فى تلك الفترة العصيبة .

وأما "محمد حسين آل كاشف الغطاء" فقد دعا المسلمين أن يهبوا لخوض المعركة ، وأنبهم على استكانتهم ، فالإسلام يستغيثكم ولكنكم تصمون آذانكم عن سماعه على الرغم من عظم المصيبة وفداحتها عليكم .

---

(١) السابق عدد ١٠٤٥ ذو الحجة ١٣٣٠هـ .
(٢) نفسه عدد ١٠٢٧ ذو القعدة ١٣٣٠هـ .

أيُّها المسلمون هبّوا فليس ال
مموتُ إلا حياتكم بهوان
قدْ دهاكم ويلٌ فماذا التّمادى
وأتاكم سيلٌ فماذا التّوانى
جاءكمْ جارفٌ من الغرْب تيا
رٌ يهدّ البنا وأسّ المبانى
يستغيثُ الإسلامُ فيكم فيلْقى
عنهُ منكم تصامم الآذان
صارخاً فيكمُ فهلْ من سميعٍ
صرخات الإسلامِ والقرآن
أفيرجو الإسلامُ لقيا سلمٍ
بعد حربِ الطليان والبلقان (١)

"ولايكتفى كاشف الغطاء" بهذا بل يحرج المسلمين احراجا ليستثير همتهم ونخوتهم فى سبيل مساعدة إخوانهم حينما يقول" (٢) :

إنّ بيض الوجوه سودٌ إذا لم	تعدّ حمْراً من النّجيعِ القانى
إنّ لبس الثياب خزىٌ إذا لم	تجعلوها لكم من الأكفان
إنّكم والنساء مالمْ تذودوا	عن حماها عدوّكم سيان
إنّكم والأوطان فيها الأعادى	تتهادى عارٌ على الأوطان (٣)

ولايكتفى الشاعر بتأنيب الشعوب الإسلامية ، بل فى هذه القصيدة سخط واضح على السلطان ، وعلى حاشية السلطان ، فقد قال صراحة : إن الملوك يجب أن يحموا البلاد لاأن يحموا عروشهم وتيجانهم ، وصور هؤلاء الحاشية الذين غرتهم نعومة

(١) شعراء الغرى أو النجفيات ١٨٠/٨ .
(٢) الشعر العراقى الحديث ص ٥٣ .
(٣) شعراء الغرى أو النجفيات ١٨٠/٨ .

العيش وركنوا الى الدعة ناسين الشعب الذى يعيش فى الفقر والفاقة ، لانهم غلق القلوب الا عن ترفهم وملذاتهم ، عمى العيون الا عن مصالحهم الشخصية والا فاين الضمير الحى الذى يدفعهم الى أن يدرءوا الضيم عن أوطانهم (١) .

إن عزّ الملوك فى حفظها الأملا
ك لافى العروشِ والتيّجان

حبذا موتُنا على موردِ العز
وبئسَت حياتُنا بهوان

يصرعُ البغيُ أهلَه مستثيراً
وعلى نفْسِه سيجْنى الجانى

غير أهل الإسلام ضلّوا عن الحزّ
م وناموا على غرورِ الأمانى

انذرتْهم وقايعُ الدهرِ فيهم
ناطقاتٌ لهم بكلِّ لسان

فتعامَوا عن العظاتِ وهاموا
بزخاريفَ نعمةٍ ولسان

استلانوا نعومةَ الغربِ حتّى
راعَهم منهُ نهشةُ الأفعوان

تركوا دينَهم لدنيا سواهم
ربَّ ربحٍ يكونُ من خُسران

وإذا القلبُ كان أعمى عن الرشـ
ـدِ فماذا تفيدُه العينان

وإذا ما اليدان لاتدفعُ الضيمَ
فاولى بالقطع تلك اليدان

(١) الشعر العراقى الحديث ص ٥٥ .

ليت من لايكون ذا حسٍّ دين

في البرايا يكونُ ذا وِجْدان [1]

وهذه النظرة تدل على وعي الشاعر بأوضاع الدولة وسخطه عليها ، ولكن عاطفته الإسلامية جعلته يقف بجانبها في هذه الحرب ، فنلفيه يركز على الجانب الإسلامي في تأنيبه ، والخطاب يوجهه للمسلمين "أيها المسلمون" ،والإسلام هو الذى يستغيث "يستغيث الإسلام" ، والصرخة صرخة الإسلام والقرآن "صرخات الإسلام والقرآن" ، والتعبير "بصرخات" فيه دلالة على شدة وتنوع الهجمات ضد الإسلام ، ولكن ليس هنالك من يسمع ، وإنّ تأكيداته الأربعة المتتالية "إنّ بيض الوجوه" ، "إنّ لبس الثياب" ، "إنّكم والنساء" ، "إنّكم والأوطان" لزيادة التأنيب ، ولأن أهل الإسلام كما يقول :

.... فلوا عن الحزم ونا موا على غرور الأماني

وينشد ،أحمد الكاظمي، [2] قصيدة على صفحات "المقتبس" يستنفر فيها المسلمين للذود عن دينهم ووطنهم ، ويدعوهم إلى الكفاح ، ويؤنبهم على قعودهم ، ويبين أن من يأبى الضيم ، لابد أن يسلك الطرق الموصلة إلى ذلك :

أبيُّ الضيمِ من طلبَ الكفاحا

ومنْ وَجَدَ الرَّدى عذباً قَراحا

ومن راحتْ تعاطيه المنايا

كؤوساً تَنْزِعُ الأرواحَ راحا

ومن أضحى ينادى كلَّ عَضْبٍ

رهيفِ الحدِّ لاالخودَ الرَّداحا

---

(١) شعراء الغرى أو النجفيات ١٨١/٨ ، الشعر العراقى ص ٥٥

(٢) لم أعثر على ترجمته .

ومن أمسى يسامرُ كلَّ لَدْنٍ   من الخُرصان لا الغيدَ الملاحا
ومن للمشرفيةِ والعوالي   على مُهجِ العِدى عقدوا النّكاحا
فذاك مشيِّدُ أبنيةَ المعالي   وذاك مقوّم المجدَ المُراحا

ويبين ندرة من يتصف بتلك الصفات ، إذ لو كان المسلمون كأسلافهم ما استبيح حماهم ، ولا تجرأ عليهم أحد ، لكنهم لمّا استرخوا وأخلدوا إلى الضعف ، فقدوا مناعة آبائهم وقوتهم .

ولكنّ لا نرى أبداً أبيّاً   بمُستنِّ الوغى يأتي ارتياحا
فيزمعَ عن حلول الضيم بيناً   ويتخذَ الوشيجَ لهُ مُراحا
ويركبُ للرّدى وهْلاً وهَوْلاً   ويعتنقَ الصّوارمَ والرّماحا
ويكشفَ كلّ حادثةٍ وخطبا   رمى الإسلامَ فادحُه فداحا
وهد دعامه فانحط منه   لعمر أبيك شامخه وطاحا

ثم يخاطب أبناء الأمة ويدعوهم إلى مقارعة العدو ، ويتساءل أما فيكم بني النجدات ، وحلال العويصة ، ليحفظ الأعراض من اللئام ؟

ألا هبّوا فقد لَمَحَتْ عليكم   بوارقُ عصبةٍ البغي التماحا
ألا هبّوا وقد منحت صروفُ   اللّيالي منكمُ الشرفَ امتناحا
ألا هبّوا فقد قَدَحَت عداكم   لكم زنداً من الذلّ اقتداحا
وزاحتْ تشرئبّ لكم ببعدٍ   لتكثرُ في رياضكمُ النُّباحا
أما فيكم بني النّجدات شهمٌ   تميحُ الموتَ عزمتُه امتياحا
وحلّالِ العويصةِ كلّ يومٍ   عبوسٌ فيه ريحُ الموتِ فاحا (١)

عمد الشاعر إلى النغمة الخطابية كما هو واضح ، وكثرة استخدام المفعول المطلق لإقامة القافية ، كما استخدم الجناس و"وهلا وهولا" ، "فادحه فداحا" ، "رماحا مراحا" .

---

(١) المقتبس عدد ١٠٢٥ ذو القعدة ١٣٣٠هـ .

ويهيب الشاعر العراقي عبد الحسين الحويزي[(١)] أن يهبوا لنصرة الإسلام ، ويتساءل عن غياب حماة الدين عن نجدة الأمة وإنقاذها عن التطاحن فيما بينها .

تطاحنت أمةُ الإسلام خاضعةً
وفي المواطن لم يَخفقْ لها عَلَمُ

فأينَ عنها حماةُ الدّين تمنعُها
بنجدةٍ من لقاها الموتُ ينهزِم

هبوا بني المجد من إغفاءِ رقدتِكم
لاعاقكم مللٌ عنها ولاسأم

وينهاهم أن يمنعهم مانع عن الجهاد ، ويسأل عن المسلمين العجم ، لم لاينصرون إخوانهم الأتراك والعرب ، ويحض المسلمين على الذود عن دينهم وأوطانهم ، ويأمرهم بالجهاد في سبيل الله ، ويذكرهم بانتصاراتهم الماضية على الروم حين قال :

فلاتكونوا وقد سايلتكم زمراً
كالخيلِ ماسكةً أفواهها اللجم

العربُ والتركُ قاموا دونَ حَوزتِهم
لِمَ لاتقومُ مواساةً لها العَجَمُ

ذبّوا عن الدّينِ والأوطانِ حيثُ بها
يصانُ عن كلِّ ذي بغيٍ لكمْ حَرَمُ

وجاهدوا في سبيلِ اللّهِ وادّرعوا
بالصبرِ حيث خطا الأهوالِ تقتحم

---

(١) عبد الحسين الحويزي شاعر من العراق ، من علماء النجف البارزين ، نهبت أمواله في ثورة النجف على الأتراك ١٣٣٠هـ ، له مجموعة من الدواوين ، عمر تسعين عاما . انظر : تاريخ الشعر العربي الحديث .

وَالهامُ تَبكي دماً والقضبُ تقرعُها
لكنْ ثغورُ المواضي البيضِ تبتسمُ
فالرُّومُ قد غُلِبَت قِدْماً ببيضتِكم
وبيضُكم في المعالي شأنُها القدمُ (١)

وقد عمد الشاعر في بيان عاطفته إلى أساليب الطلب من أمر ونهي واستفهام ، "فأين عنها حماة الدين تمنعها" ، "هبوا بني المجد من إغفاء رقدتكم" ، "فلاتكونوا وقد سايلتكم زمرا" .

ويدعو عبد الحميد الفراهي (٢) المسلمين أن يهبوا للجهاد بمختلف فئاتهم وأوطانهم ليطفئوا تلك النار التي أشعلها أهل الصليب .

شبَّتْ على بلقان نارُ الحُروبِ	أشعَلَها بالبغي أهلُ الصَّليبِ
ياكردُ ياتاتارُ ياكابلُ	ياكلَّ منْ للّهِ عبدٌ منيبِ
في مشرقِ الآفاق أو مغرب	أوفي شمال الأرضِ أوفي الجنوب
يدعوكم الإسلامُ جَهْراً إلى	ذبِّ العدى عنه فهل من مُجيب
قوموا لنصرِ الحقِّ من فَوْرِكم	واستنْفِروا من كلِّ مُردٍ وشيبِ
مستنصرين اللّهَ ينصرْكمُ	بنصرِهِ الموعود غيرِ الكذوبِ (٣)

وهذه القصائد ومثيلاتها وإن كانت تدل على عاطفة إسلامية وروح تواقة للجهاد ، واعية بالدور الذي يجب أن تقوم به الأمة ، إلا أنها لاترقى إلى الشعر الرفيع الذي يتغلغل إلى الوجدان فيشعره بالجمال ، والمتعة الذهنية وكل مايقال عن هذا أنه مع أمثاله كان كقرع الطبول على صفحات المجلات والصحف لتهيئة المناخ لشعر أجمل وأرقى .

---

(١) ديوانه ص ٣٧ جمع وتعليق حميد مجيد هدو ، بيروت .
(٢) لم أعثر على ترجمته .
(٣) ديوانه ص ١٨ المطبعة الحميدية ، الهند .

ويستنفر عبد المحسن الكاظمي المسلمين للقتال ويخاطب أولي الأمر "حماة العلا" بصيغة الآمر الناصح أن يقيموا العلا ، ويستأصلوا كل البغاة ، وأن يتحينوا الفرص لاقامة مجدهم ، ولايرضوا أن تحط من عزماتهم النوائب .

حُماةَ العُلا قد آن حصدُ الجماجمِ
أقيموا العُلا واستأصلوا كلَّ هادمِ

وما أنتمُ للمجدِ إنْ لم تشيّدوا
قواعدَه فوقَ الأنوفِ الرّواغمِ

لقد دَهَمَ اليومُ الخطيرُ فخاطِروا
وقُوموا بأعباءِ الخُطوبِ الدّواهمِ

فإمّا إلى مدّاحةٍ تُطرِبُ الورى
وإمّا إلى نوّاحةٍ في المآتمِ

لقد أينعتْ تلك الرؤوسُ فبادرُوا
إلى قطْفِها واجْنُوا ثِمارَ الصّوارمِ

....

ورُبَّ أمانٍ حقّقَ السيفُ نيلَها
بجَزِّ النواصي أو بحَزِّ الغلاصِمِ

ومن لمْ يَنلْ في يقظةِ العزمِ قصدَه
فإنَّ المنى أضغاثُ أحلامِ نائمِ

من الحَيْفِ أن يرضى الكميُّ لنفسِهِ
نزولاً على حكمِ الزّمانِ المُصادمِ

وإنّ الفتى من يصدِمُ الخطبَ عزمُه
وينقُضُ أحكامَ الخُطوبِ الصّوادمِ

إذا جلْجلتْ إحدى الحوادثِ عدَّها
أخو العزْمِ من دُنْياه إحدى العزائمِ (١)

---

(١) ديوانه ٢/١١٠ .

ويعاتب أولى الأمر على حلمهم الذى زاد عن حده ، مما حدا بدول البلقان أن تزيد من غرورها ، ويتساءل سؤال الحيران لماذا العدو يعبر عن بغضه لكم بما أبداه من مظالم وأنتم على عكس ذلك ، وكيف ينال العدو منكم وأنتم أصحاب خبرة فى الحروب ، ولايخفى مافى ذلك من استثارة لهمم الأتراك ليردوا كيد عدوهم .

حماةَ العلا ضاقَ الزمانُ بحِلْمكم
الا غضبةٌ تأتى بعُذرِ الحَوالم

سكتمْ فغرَّ الطامعين سكوتُكم
الا كلمةٌ من ذى هزاهزَ كالم

وداويتمُ بالحِلمِ داءَ غرورهم
وربَّ جروحٍ أفسدَت بالمَراهم

أتطلقُ أحشاءُ العدى من همومها
وأحشاؤكم أسرى الهمومِ اللّوازم

وكيفَ ينالُ الخصمُ منْكم ودونَكم
صرائمُ أمْضى من شِفارِ الصَّوارم

وكم ظهرُ جماحٍ ركبتم فرضْتُم
به كلَّ جمّاحٍ من الخَطبِ عارم

وكمْ نارِ حربٍ كنتم فى لهيبها
كما عصفت هوجُ الرياحِ الهواجم

وكم وقعةٍ فى الدّهرِ فرّت كماتُها
امامَ مواضيكم فِرارَ النّعائم

وكم أطربتْكم نغمةُ السّيفِ فى الطُّلى
ورنّحكم فى الرّوع رجعُ الغمائم (١)

(١) السابق ١١١/٢ .

ويرسل الشاعر الاستثارات المتتالية فى هذه المطولة إلى حكام الدولة لأنهم إن وعوا دورهم فسيعى الشعب واجبه كذلك ، حيث أشار فى هذا المقطع إلى الاستقرار الذى ساد ربوع البلاد الإسلامية أيام العثمانيين على زعمه ، ثم حذرهم من العدو المتربص بهم ، ويأمرهم أن يريشوا السهام ويصوبوها إلى قلوب أولئك الحاقدين ولاتأخذهم الرأفة بهم ، وماذلك إلا لأن دول البلقان تمادت فى طغيانها وبغيها ، ويأسى الشاعر من تطاول تلك الدويلات على الدولة العثمانية .

بكم ياحماةَ الدّين قد أَمِنَ الحِمَى
وقدْ هجموا شرَّ المغير المُهاجم

خذوا الحذرَ من نائي التّخوم ونبّهوا
ظُباكم إلى كيدِ العدوِّ المُتاخم

أريشوا سهامَ الموتِ واستهدفوا لها
قلوباً براها الحقدُ غيرَ رواحم

ولاتعطفنكم رقّةٌ فى خدودِهم
فتَحْنُوا على تلك الخدودِ النّواعم

ولاتأخذنكم رحمةٌ فى قلوبكم
على كلِّ عاتٍ قلبُه غيرُ راحم

....

حماةَ العُلا طال السكوتُ فعاذرٌ
إذا نَطَقَتْ أسيافُكم فى الجماجم

خصومُكمُ ضَلُّوا وطاشَتْ سهامُهم
وماوُسِمُوا إلا بِشَرِّ المَيَاسم

طغَوا وبغَوا واستمرءوا كلَّ باطلٍ
وهاجوا وماجوا فى الرُّبى والمخارم

أذيقوهمُ حَرَّ الحديد وأوْقِروا
مسامعَهم بالمُمليات الصّوالم

....

أرى دولَ البلقان طالتْ أنوفُها
على دولةٍ آثارها في المَخَاطم
بإيمانها جاءتْ لِثَلِّ عُرُوشِها
ودكِّ مباني عِزِّها والمعالم

ويذكر أن أولئك بعد ماكانوا رعايا تابعين للعثمانيين أصبحوا ملوكا بغاة ، وبعدما كانوا خدما لهم أضحوا يساومونهم في ملكهم . ويعجب كيف يحدث ذلك وهم بنو القوم الذين شادوا ملكا عظيما اقاموا صرحه على العدل - كما يرى - ويذكرهم بدورهم ودور آبائهم في الحروب ، وجهادهم في سبيل الله .

ويبلغ بالشاعر الأسى مما آل إليه أمر الدولة فجعل ينادي مؤسس الدولة العثمانية ليبعث من قبره ، ويرد كيد الطامعين عن الملك الذيإشاده ، والامل يحدوه أن يحذو أبناؤه حذوه .

والشاعر يصنع ذلك حفزا لهمم العثمانيين ، وبعثا لغيرتهم على ملكهم الذى لعبت به الريح العاتية :

رعاياكمُ ياآل عثمان أصْبحوا
ملوكاً ، وملكُ البغي ليس بدائم
أخدامُكم ياسادةَ الملكِ أصْبحُوا
يسومونَكم في المُلك سُومُ الخوادم
وانتم بنوا القومِ الأولى قوّضوا الطُّلى
وشادوا بناءً المجدِ فوق الجَماجم

أقاموا صُروحَ العـدلِ فـي كلِّ بقْعةٍ
مـن الأرض واجـتثّوا أصولَ المظالم
أعادوا الهدى من بعد ما طُمِسَ الهـدى
وشـادوا العُلا من قبلِ شدِّ التمائم
اذا مـا أشـاروا بالبَنـانِ لحاجـةٍ
رأيتَ قضاءَ الحاجِ بين البَراجم
إذا غضبـوا أوْطـوا حوافـرَ خيلهـم
مـواضعَ تيجـانِ الملـوك الغواشم
اذا مادُعُوا طاروا إلى حَوْمةِ الوغى
بأجنحـةِ الجُـردِ العِتـاقِ الصّلادم

....

لقد جاهدوا في اللّه حقَّ جهادِهِ
وماتوا كِراماً في سبيلِ المَكارم
أعثمانُ قمْ وانظرْ لملكك واحتفظْ
بحقّك واصدمْ دونه كـلَّ صـادم
تقـدّم إلـى ملـكٍ فُنيتَ لأجلِهِ
وإلّا فسلْ عن حالِهِ كـلَّ قـادم
غدا بعضُه نهبُ المغيـرِ وبعضُـه
مجالاً لغـاراتِ الشرير المُداهم

....

أعثمانُ ظـنَّ القومُ انّـك ميـتٌ
وذكرُك فيّاحُ الشذا في المَواسم

....

إذا كنتَ تحتَ التُّرب طرفك نائماً
فعزمُك فـوقَ التُّرْب ليس بنائـم

يجرّده إبناؤك السادةَ الأولى
تدينُ لهم شمّ الملوكِ القماقم

فلاتخشَ من جيشِ العدوّ وجندِهِ
فجندُك في الهيجاءِ أُسْدُ الملاحم

ويورد في هذه القصيدة تعاطف المسلمين من هنود ومصريين وسوريين مع بني دينهم ووقوفهم صفا واحدا ، ونوه بتبرعاتهم للدولة ، ويشير إلى دور بعض الأخيار من المثقفين الذين لايضنون بتقديم العون للمنكوبين ، ويبشر جرحى تلك الحرب بالإغاثة ، ويوجه النداء لكل صاحب حمية لدينه أن يجود بنفسه ، وإلا بماله ، ويسأل سؤال المتعجب ، لماذا التذرع بالاعذار عن نصرة الحق ، ونبخل بالقليل بينما نلفى عدونا يجود بأثمن مالديه ؟

عن الهندِ ام عن مصرَ أم عن شامها
أردُّ أنباءَ الكرامِ الأعاظم

كأنَّ ندى السّوري وهو سجيةٌ
ندى كلِّ شُؤْبوبٍ من الغيثِ ساجم

وأمّا بنو مصرَ فسُحْبٌ هواطلٌ
جسامُ الأيادي في الخُطوب الجسائم

ندى "عمرٍ" أحيا النَدى و"محمدٍ"
فما جودُ "معنٍ" في الأنامِ و"حاتم"

أميران في دُسْتِ الفَخَار تلاقيا
إلى النّسبِ الزاكي النّقي المقادم

قد اتّحدَ السيفان عزمُ "محمدٍ"
وعزمُ "عليٍ" باجتياح المآثم

أجلُّ كلّ نفسٍ في الحياة كريمةٍ
تجدُّ لإحياءِ النّفوسِ الكرائم

تجدُّ لكشفِ الكَرْبِ عن كلِّ ساهرٍ
يبيتُ بوجهٍ كاسفِ اللونِ ساهمِ

أجرّحى الوغى بُشراكمُ بعواطفٍ
تُبدِّدُ من آلامكم ومراحمِ

يُواسيكم في الحرب أكبرُ سيدٍ
تواضعَ حتّى خيل أصغرُ خادمِ

أناديك يامنْ أيقظتْه حميةٌ
إذا نامَ عنها الدهرُ لم تتناومِ

وادعوك يامَنْ شاقَهُ نصرُ دينِه
وقد هامَ في وادي النّدى كلُّ هائمِ

إذا لم تمكنْك الأحاظى من الوغى
بنفسِك فاغنمْ أجْرَها بالدراهمِ

أيصرفُنا عن نُصرةِ الحقّ صارفٌ
وتأخذُنا في اللّه لومةُ لائمِ

ونبخلُ بالطّلِ اليسيرِ وخصْمُنا
يجودُ بصَوّبِ العارضِ المُتراكمِ (١)

وينبّه أبناء الشرق عامةإلىما يكنه الغرب لهم من عداوة وما يخطط لهم من أمور ، ويسدى لهم مجموعة من التوجيهات ، ويدعوهم إلى لم شتاتهم ، ليردوا كيد الطامعين .

بني الشرق هبُّوا إنَّ في الغرب هبة
تعدُّ عليكم كلَّ بارٍ وحاطمِ

تسيرُ إلى أيمانكم بغلائلٍ
وتمْشى إلى أفواهكم بكمائمِ

---

(١) السابق ١١٨،١١٧/٢ .

أعدّت عليكم منكم كلّ غافلٍ
وعدّت لها أوطانكم غنمُ غانم

فهلْ وثبةٌ ضاريةٌ بعدَ وثبةٍ
تُقاومُ دون المجدِ كلَّ مقاوم

تُعيدُ إلى أوطانكم كلّ عاملٍ
يعيدُ إلى أوطانِكم كلّ عالم

ألا فاجمعوا أشتاتكم وتدبّروا
وردّوا إلى آرائكم كلّ حازم

ولاتشفقوا إلا بأبيض ناثرٍ
يُمَسّ بأيديكم وأسمرَ ناظم

ولاتعتدوا إلا على كلّ معتدٍ
ولاتُرْجموا بالشرّ غيرَ المُراجم

ولاتغمضوا عن طامعين تيقظوا
وعجّوا عجيجَ اليَعْملات الرّواسم (١)

ومن خلال ماسبق من هذه المطولة تبدو للباحث أمور .

(١) إن الشاعر كان مخلصا للدولة - فى هذا الوقت - من خلال نصائحه المتتالية فى هذه القصيدة ، باعتبارها رمزا للمسلمين ، أو بالأحرى كان مخلصا لقضية الإسلام الذى تكالب عليه خصومه لأسباب كثيرة .

(٢) إن أسلوبه كان جزلا مترسما خطى شعراء العربية الأقحاح وهذا ينم على شاعريته من جهة ، وعلى قدرته اللغوية وسعة محفوظه من العربية من جهة ثانية .

(٣) من الملاحظ أنه كرر الحديث عن عدالة الدولة وماضيها ، وكذا توجيهاته الجمة ، ومايتبغى أن يسلكه

---

(١) السابق ص ١٢٠-١٢١ .

ولاة الأمر تجاه عداوة الغرب وأطماعه ، ولكن لاضير فإن الموقف العصيب الذى مرت به الدولة فى تلك الحقبة جعلت من كل مخلص لها أن يسلك شتى الوسائل لإنقاذ الأمة مما هى فيه ، وتكرار ذلك أملا أن تتقد النفوس ، لإرجاع المجد المتهاوى ، وهذا مما يتصل بقصيدة الحرب بل هو من صميمها .

(٤) إنه استخدم الألفاظ الحماسية بكثرة لأن الموقف يستدعى ذلك بعدما لاحظ شراسة العدو ، وإخلاد بنى دينه إلى الاستكانة وعدم الوعى والإحساس بذلك الخطر ، فأضحت ألفاظه بمثابة الطرقات المتتالية ليمحو كل غافل ، وكانت أدوات الطلب خير معوان له على ذلك نحو قوله : "خذو الحذر من نائى التخوم ونبهوا" ، "أريشوا سهام الموت واستهدفوا لها" ، "ولاتعطفنكم رقة فى خدودهم" ، "ولاتأخذنكم رحمة فى قلوبكم" ، "حماة العلا طال السكوت" ، "أعثمان قم وانظر ..." ، ونحو ذلك من الأمثلة الظاهرة فى هذه المطولة .

الاتحاد ونبذ الفرقة :

في هذه الفترة التاريخية وضحت الدعوة إلى النعرات القومية وخاصة بعد تسلّم "الاتحاد والترقي" دفة حكم البلاد العثمانية بل ظهر تصارع الأتراك أنفسهم ، بينما الحرب على أشدها كما مر بنا ، ولذلك كان لابد للشعراء وهم علية المثقفين أن يدعوا الأمة إلى الوحدة ليتمكنوا من مواجهة العدو .

فهذا «شوقي» يخاطب الامة من خلال خطابه لأهل "فروق" ناصحا إياهم الى نبذ الفرقة وترك الخصومة ، ويتساءل والحسرة تملأ فؤاده ، فيم التخاذل ووراءكم الأمة تنحدر إلى الضياع بأعمالكم تلك ، وذلك أقصى مايمكن أن يفعله شوقي وأمثاله إزاء تلك الأحداث ، وحين يستحوذ اليأس على قلب الشاعر فمعناه أن النكبة احدقت بالامة من كل صوب ، وإذ ذاك لاحيلة له غير الاستسلام والرجوع إلى القدر .

يا أمة "بفروقَ" فرّق بينهم
قَدَر تطيشُ إذا أتى الأحلامُ

فيم التخاذلُ بينكم ووراءَكم
أُمَمٌ تُضاعُ حقوقُها وتُضَام

الله يشهدُ لم أكن متحزِّباً
في الرُّزءِ لاشيعٌ ولاأحزام

وإذا دعوتُ إلى الوئامِ فشاعرٌ
أقصى مُناهُ محبةٌ ووئام

من يفجر البلوى فغايةُ جهدِهِ
رُجْعَى إلى الأقدار واستسلام

لايأخذنّ على العواقبِ بعضُكم
بعضاً فقِدْماً جارت الأحكامُ (١)

وأما «شكيب أرسلان» فيؤكد في قصيدته التلاحم بين المسلمين عربا وأتراكا ، ويكرر لفظة "الأخوة" بينهم ، كما يكرر لفظة "العرب والترك" مما يوحي ببوادر الفرقة بينهما ويؤكد أنهما على الحنيفية السمحاء ولن يتقسما .

والشاعر كان واعيا بما يدور في الساحة ، وكان صوته قويا في الدعوة إلى الوئام .

فمن مُبلغ البلغار أنّا إلى الوغى
واخوانَنا الأتراك نزحفُ توأما
وأن جميع العُرب والترك إخوةٌ
عليهم إليهم يبتغون تَقدُّما
وليس يَزال العُرب والترك أمةً
حنيفيةً بيضاء لن تتقسّما
وقولوا لهم بانت سعادُ فلا يزل
فؤادكمو دهراً عليها متيَّما
سَتلبثُ عثمانية رغم أنفكم
وأنفِ الأولى منا يصيحون لُوّما (٢)

ويقف الشاعر العراقي «محمد الهاشمي» عند هذا الموضوع وقفة متأنية ، وصور ألمه وحزنه تجاه تفرق المسلمين ، وعجب من اختلافهم والعدو محيط بهم ، ودعا إلى نبذ الفرقة ، وأكد الوحدة بين الأمة عربا وأتراكا ، وأن أخوة الدين تجمعهم ولكل منهما فضل لاينكر ، وبيّن أن الأمة إذا لم تع ذلك فإن

---

(١) ديوانه : الشوقيات ٢٣٥/١ .
(٢) ديوانه ص ١٠١ .

عرى الدين ستمزق ، والملك سيضيع ، ويسأل سؤال المتحسر كيف يحدث أن يدعو أقوام إلى العنصرية الممقوتة ، والعدو جاثم على أرضنا ، وذلك ليس من الدين ، إذ انه يأمر بالمساواة بين جميع العناصر .

إلى أُمم الإسلام اهدى تحية
بها الحزن يطوى والمدامع تسجمُ
لماذا اختلفتم والأعادى تظاهرت
عليكم وانتم فى التخاذل نُوّم
دعوا الخُلْف إنّ السيل قد بلغ الربى
فما الخُلف الا مَرْتعٌ مُتوخّم
أرى العُرب والاتراك فى الدين إخوة
وما الترك إلا فى بنى العرب تعمم
لأوّلهم فضلٌ وفضلٌ لآخر كأنّهم للدين كف ومعصم
وما الفرق بين العُرب والترك بالذي
يُسدد ما ايدى الحوادث تَفصمُ
فيا أيها العربُ الكرامُ تظاهَرُوا
مع الترك إن الحقّ بالحقّ يُدعم
وإلا فانتم للخطوب دَريئةٌ
تروح امورُ الذلّ فيكم وتَعتم
فلا الدين دين الله يبقى ولا الهدى
يؤيد دعواه ولا الملك يسلم
فكونوا بنساءٍ فى المصائب واحدا
إذا الدهر يبقى أو إذا الشر يَهجُم
أليس من الخسران أنّ بلادَنا
تُوزّع ما بين العِدى وتُقسّم

أترضون أن نُمسى عبيداً جميعنا
لمن ليسَ يَهدينا ومن ليس يَرحمُ
فلاتَجدعوا آنافكم بأكفّكم
ولاتصبحوا الذكرى لمن يَتوسّم
تعصّبَ بعضُ الناس في الشرق واقتفى
سبيلَ العمى وهو الطريق المذمّم
أفي الدين ياللناس كان تعصّبٌ
بقوميّةٍ أم ذا عن الجهل يَنجُم
لقد ادخلوا في الدين مالم يكن له
من الحق أصل أم من الدين مَعْلَم
ومارجّح الإسلام ممن تمسّكوا
به احدٌ أو قال هذا مُقَدّم
ولكنه ساوى فكان كما ترى
سواء به عُرْبٌ وفُرْسٌ ودَيلم
ستُؤخذُ طراً امةٌ بعد أمةٍ
إذا نحن في هذا التعصّبِ نجزم (١)

والشاعر وإن كان قد وُفّق في شرح أبعاد الفرقة ، ومايؤول إليه الأمر إن سارت الأمور كما هي عليه ، إلا أن النثرية كانت واضحة في قصيدته لأن معالجة القضايا الفكرية بالشعر يتطلب حذرا من السقوط عن سمائه ، ولكن الشاعر مع ذلك تحمد له هذه المواقف التي تدل على عاطفته الإسلامية تجاه الدولة برغم ماآلت إليه في عصر الشاعر .

ويعبّر (عبد الحسين الحويزي) عن ثقته بالنصر ، وأن دول البلقان مهما عمت بظلامها الديار الإسلامية ، إلا أن الحق

---

(١) ديوانه ص ٢٥٣-٢٥٤ .

يأبى ذلك ، وتأبى بيوت الله أن يعلو الصليب وترجع عبادة الأصنام من جديد ، ويؤكد رسوخ الوحدة بين العرب والأتراك ضد عدوهم المشترك ، ويعود إلى حض المسلمين على الجهاد ، وينفرد ببيان أهمية وجود الخليفة بين ظهراني الأمة باعتباره رمزا لوحدة الصف الإسلامي .

مالليماني لم تُرهق مضاربه
أَجَلّهُ عن قراع الهام مُنثلمُ

مالنقابةِ في بغداد خاملة
ولم يكن زَندُها الواري به ضَرم

دارُ السعادة بالبلقان قد مُلِئَت
كأنّها الشمسُ أخفت نورَها الظُلم

يأبى الهدى وبيوتُ الله أجمعُها
يعلو الصليبُ بها أو يُعْبَد الصنم

القوم إخواننا نرضى وإن غضبوا
والرومُ أعداؤُنا نأبى وإن حَلُموا

هم العروق ونحن الجسم إن قُطعت
من المفاصل لم تُقطعْ لها رَحِم

تقدّموا للوغى والبيضُ عاديةٌ
والموتُ أَصلعُ مافي رأسه لَمم

فلاتَقِرّ بلا حامٍ ممالكُنا
وكيف من غيرِ راعٍ تأمنُ الغنم (١)

ومن الشعراء الذين أكدوا تلاحم العرب والأتراك عبد القادر المبارك (٢) ، اذ يندد بالمحرشين الذين يحاولون

---

(١) ديوانه ٣٨/١ .
(٢) عبد القادر بن محمد بن محمد المبارك ، ولد سنة ١٣٠٤هـ/١٨٨٧م جزائرى الأصل ، دمشقي المولد والنشأة ، أديب غزير العلم ، اشتغل بالتعليم ، عين عضوا فى المجمع العلمى ، يقول الزركلى : "له نظم له جودة" . الأعلام ٤/.

التفريق بينهما ويشيد بالروابط العثمانية التى لاتنفصم عراها ويسمح لنفسه أخيرا بأن ينطق باسم الدولة مهددا ، متوعدا كل مشاغب بالسحق والمحق .

حَمَى التركَ والعُربَ الكرامَ من الردى
حُسامُ إخاءٍ لايزال مجرّدا

حسام إخاء قد أمنّا بحفظه
على عقدِ شملِ الشعب أن يتبدّدا

لحى الله من يغدو ببُهتانِ قوله
لنيران شحناءِ العناصر مُوقدا

أيبغون قسم الشعب لادرّ درُّهم
طوائفَ شتّى حسبما تشتهى العدا

فيا ويحكم خلّوا العناصر وابتغوا
سلامة شرقٍ فجرُ إصلاحهِ بدا

عناصر هذا الشعب ضمتهمُ عُرى
روابطِ عثمانيةٍ تَدفعُ الردَى

وهادولة الشّورى ستَسْحقُ كلّ مَن
لإفسادذاتِ البين يَسترهفُ المُدى (١)

وعلى الرغم من ضعف تراكيبها إلا أنها تدل على إحساس عام لدى كثير من أفراد الأمة بضرورة وحدتها فى فترة ظهرت فيها الطائفية لتفرّق المسلمين .

(١) شعر الحماسة والعروبة فى بلاد الشام ص ٣٨ .

الموقف من السلم :

ارتاب بعض الشعراء في السلم الذى نادى به بعض ساسة أوربا واعتبروه خدعة ، لتتمكن دول البلقان من التزود بأدوات الحرب ، ومن الشعراء الذين تنبهوا لهذا الأمر أحمد شوقي حين قال :

ومُبشّرٍ بالملح قلت لعلّه خيرٌ عسى أن تصدقَ الأحلامُ
ترك الفريقان القتالَ وهذه سِلْمٌ أمرُّ من القتالِ عُقام
ينعى إلينا الملكَ ناعٍ لم يطأ أرضا ولا انتقلت به أقدام
برق جوانبُه صواعقُ كلُّها ومن البروقِ صواعقٌ وغمام
إن كان شرٌّ زار غيرَ مفارقٍ أو كان خيرٌ فالمزارُ لِمام (١)

اما فخرى البارودى فيشوقه المناداة بالسلم الذى لايشوبه شائبة ، وكذا انداء "محكمة لاهاى" لوقف الحرب ، الا أنها أصبحت من الأحلام ، ويمقت مخاتلة الأوربيين ، إذ مفهوم السلم خاص بأمم الغرب ، أما الشرق فنصيبه – في منظورهم – النهب والسلب لممالكه .

فبينَا نرى أهلَ التمدّن في الورى
تنادى بسلم لايدانيه الشوبُ
وبينا نرى "لاهي" ومَن سارَ سيرها
تنادى برفع الحرب كي يَنجلي الكرب
نُحبّذ ماتبغي ونُبدى سرورَنا
ونكتب في هذا فيقرؤه الشعب
ولاتلبثُ الأحلامُ الا هنيهةً
فيعقبها حربٌ ويتبعُها سلب

---

(١) ديوانه : الشوقيات ٢٣٢/٢ .

كأن ملوكَ الأرض أضحوْا لصوصَها
فأشغلَهم سلبُ الممالك والنهب

إذا كان رب البيت بالنهب شاطرا
فشيمة أهل الدار كلهم السلب

أرى السلم أضحى قسمة الغرب وحده
فظلت بلاد الشرق ليس لها محب (١)

والنثرية واضحة في هذه القصيدة ..

ويسأل محمد منيب زعيتر في بداية قصيدته عن سر هذا الطغيان وذاك الظلم والعدوان من قِبَل أوربا ، فهي تنشئ الفتن المتتالية ، وتدّعي مع ذلك حفظ السلام العالمي ، ويبين زيف تلك المقولة ، وأنها دعوى لارصيد لها من الواقع ويوضح حقيقة التعامل الأوربي مع الآخرين ، فهو قائم على المصلحة فقط وإلا فحقيقة حالهم الكذب والروغان ، ونشر الشر والحنق على الآخرين .

ماللنفوس تُسام القتلَ طُغْيانا
والحقّ مُهتضَمٌ ظُلْماً وعُدوانا

كأنّما الكونُ فوضى لاسراةَ له
وأصْبحَ اليوم للإيقاعِ ميدانا

واهل أوربة تُنْشي لنَا فِتَنًا
بَغْيا وغَدْرًا وتمويهًا ورَوْغانا

وهْي التي تدّعي حِفظَ السّلاَم ولا
ترضى بأن يظلمَ الانسانُ ماكانا

---

(١) المقتبس ١٠٣٧ ذو الحجة ١٣٣٠هـ/١٩١٢م .

وأنّها تنصرُ الحق المهانَ كما
تَهدى الممالكَ تمدينا وعمرانا
يانعمَ ماتدّعى قولاً تُزخرفُه
وبئس ماتنقضُ الأقوال سرعانا
يالفضيحةٍ من دعوى تزوّرُها
كانت على خُبْثٍ ماتنويهِ عنوانا
لاتستطيع لدينا أن تؤيدها
وقد اقامت على التكذيب بُرهانا
لم يَجْل فى ذوقها غيرُ المنافع إن
اذكت على ساحة المعمورِ نِيرانا
كأنما قلبُها يهوى المروف أذًى
حتى انْبرى فى انْتِشارِ الشّر وَلهانا
يا أيها الغرب يكفينا مراوغةً
من السياساتِ أشْكالاً وألوانا
ولايهولُك إزهاقُ النفوس جوًى
ولاتغار انْدِهَاشًا عند شكوانا
فأين دعواك للانصاف تُظهرُها
فى رحمة منك للإنْسان أحْيانا (١)

وهكذا تبرز من خلال شعر الحرب والجهاد فى هذه الحقبة قضية الصراع الأزلى بين الشرق والغرب على مر التاريخ المدون ، وأن كرة الحضارة سجال بين أقدام الشرقيين والغربيين ، ماإن تستقر هنا أو هناك .

لكن الإسلام بحسب منهجه وهدفه لتحقيق السلام فى ربوع الأرض ، وبين البشر قاطبة عجز الغربيون عن الاقتناع به ،

---

(١) المقتبس ١٠٢٧ ذو القعدة ١٣٣٠هـ/١٩١٢م .

فناصبوه وأهله العداء ، ولعله يوم قريب يأتى فيقفون على حقيقته ، ويفتحون قلوبهم لمبادئه .

القوة هى الفيصل فى التعامل مع الغرب :

وعى بعض الشعراء أن المنطق الذى يفهمه الغرب هو القوة ، ولذلك نادوا بأن تكون هى الحكم فى كل تعامل معه .

فيبين شكيب أرسلان أن السيف هو السلم للوصول إلى السلام الحقيقى ، وأن دفع الشر به أحزم وأمضى لأن الغرب لايعرف غير ذلك .

فدىً لحمانا كلُّ من يمنع الحمى
ومَن ليس يرضى حوضَه متهدِّما

فما العيشُ إلا أن نموتَ أعزةً
وما الموتُ إلا أن نعيشَ ونسلما

تأملت فى صرف الزمان فلم أَجدْ
سوى الصارمِ البتار للسلم سُلَّما

ولم أرَ أنأى عن سلام من الذى
تأخر يَعتدُّ السلامةَ مَغنَمَا

يقولون وجهُ السيفِ أبيضُ دائما
وما أبيضٌ الاوهو أحمرُ بالدما

فإن يَكُ دفعُ الشرِّ بالرأيِ حازماً
فمازال دفعُ الشر بالحزمِ أحزما

تجاهل أهلُ الغرب كلَّ قضيةٍ
إذا لم يجئ فيها الحُسامُ مُتَرجِما

وكابَر قومٌ ينظرون بأعينٍ
ألا عَمَهُ الألبابِ أعمى من العمى (١)

---

(١) ديوانه ص ٥٩ .

ويؤكد الرصافي حقيقة الغرب ، وأن ادعاءه التمدن كذب وبهتان ، ويوضح أنّ حروبه التي يشنّها على المسلمين بينت زيف مايدعي ، ولذلك سنقف في وجهه "فإما الفناء وإما البقاء" .

دَعِ الغربَ ينعم في باله ... وإن لَقِي الشرقُ منه الكروب
ولاتسألَنّهُ بأفعاله ... فعهدُ التمدنِ عهدٌ كذوب
فنحنُ اغتررنا بأقواله ... ولكنّنا بعد هذي الحروب
سنأبى عليه أشد الإباء ... فإما الفناء وإما البقا
ونَركبُ من عزمنا مركبا ... ونَرقى وإن صَعُب المُرتقى (١)

ويقول محمد عبد المطلب إن السيف خير وأصدق حاكم ، إذ أن الحق بين حد السيف ومقبضه .

فلبيكَ لبيكم قضى السيفُ حكمَه
وللسيفُ في يوم الوغى خيرُ حاكمِ
وياربَّ عينٍ ضلّت الحقَ أبصرتْ
سنا الحق منهُ بين حدٍّ وقائم (٢)

وأما «شوقي» فيشوقه وقوف المدافعين عن «أدرنة» في وجه العدو ، ويبين أن الغاصبين يعرفون أن كل ماأخذ بالدم لايرجع إلا به ، وأن الحسام هو الوارث في كل حال .

شرفاً أدرنةُ هكذا يَقِفُ الحِمَى ... للغاصبين وتثبتُ الأقدام
وتُرَدُّ بالدم بقعةٌ أخذت به ... ويموتُ دون عرينِه الضرغام
والملكُ يُؤخذ أو يُرَدُّ ولم يزل ... يرثُ الحسامَ على البلاد حسام (٣)

---

(١) ديوانه ٤٧٩/١ .
(٢) ديوانه ص ٢٧٢ .
(٣) ديوانه : الشوقيات ٢٣٧/١ .

الدعوة إلى الأخذ بأسباب العلم :

استبان لبعض الشعراء الطريق بعدما وضح ضعف الدولة وتخلفها في المجال الحضاري ، وعدم قدرتها على مواجهة الغرب نظرا لتفوقه المادي ، لذا انبرى بعضهم ينصح ولاة الأمر إلى الأخذ بأسباب العلم ،وعدم ترك الشعوب في جهلها .

فيهيب "الرصافي" بالأمة إلى ترك العبث والفرقة والجهل ، ويوضح أن سبب رقي الأمة في الأزمنة السالفة بسبب أخذها بالعلم ، لذا يأمرهم بالأخذ بأسبابه بكل حماسة .

لقد آنَ ياقومُ تركُ الونى	وتركُ الشقاق وتَرك الدَدِ
إلى كمْ نكابدُ هذا العنا	ونخبطُ في جهلنا الأسود
وبالعلم من قبلُ نلنا المُنى	وفزنا من العيش بالأرْغد
ولكنّما العلمُ قد غرّبا	فلاعيشَ إلا إذا شرّقا
فهُبّوا إليه هبوبَ الصَّبا	عسى أن يسحَّ ويُغدودقا (١)

ويسأل "محمد منيب زعيتر" عن الأسطول العثماني ومدى المحافظة عليه ليحمي الأمة من كيد العدو ، ويبين أن أدوار ملوك الظلم لم تنظر إلى صيانته ، ولاشك أن في هذا دعوة إلى الأخذ بأساليب العلم والتقدم العسكري .

فأين أسطولنا الفخمُ العظيمُ إذا
رُمْنا احتفاظاً به من شرِّ أعدائنا
قد أهملَتْ أمرَه أدوارُ غطرسةٍ
من العُصُور الأولى بذْخاً ونسيانا
كفى اصطباراً على إهمال قوّتنا
فقد أدامَ لنا الإهمالُ خذلانا

---

(١) ديوانه ٤٧٩/١ .

كمْ باتَ من أجلِهِ الحرُّ الغيورُ على
جمْرِ الغَضَى يصْطلى الآلامَ حيْرانا (١)

وينادى الشاعر الشامى "الصارخ" ولاة الأمر أن ينتشلوا الشعب مما هم فيه من جهل ، ويؤكد أن أمانى الشعوب تنال بالعلم ، وأن المصائب تنتظركم إن لم تنهضوا بأسرع وقت .

ياقومُ شعبٌ غريقٌ	قد مُدَّ منه اليدان
ياقومُ شعبٌ نجيبٌ	عوّدْته بالمثانى
ياقومُ لاتتركوه	بالجهل كالهَيْمان
الا نهضْتُم لعلمٍ	به تُنالُ الأمانى
أنتم رجانا وإلا	فكلنا للهوان
يالَلْعظائم إنْ لم	ننهضْ بأسرع آن
عذراً كرامَ السجايا	وابكوا لما أبكانى (٢)

ولاشك أن هذه الدعوة من قبل الشعراء تدل على عطفهم وولائهم للدولة .

الفخر والأمل فى غد مشرق :

عندما تعاضدت دول البلقان على الدولة العثمانية ،رأى بعض الشعراء ما أحدثته من استلاب للبلاد ، وما ارتكبوا من جرائم بحق المسلمين ، أخذت نفوس الشعراء تغلى لما حدث فأرسلوا عبارات التهديد والوعيد لدول البلقان ، ونفوسهم يحدوها الأمل أن يستعيدوا ما سلب فتحدثوا مفاخرين بالقوة المنتظرة .

فهذا ،محمد عبد المطلب،يهدد دول البلقان وأنها عميت

(١) المقتبس عدد ١٠٢٧ .
(٢) نفسه عدد ١٠٤٥ ذو الحجة ١٣٣٠هـ .

عن طريق الحق وأغراهم بنا حفظ العهد ، وهم لايعرفون إلا السيوف ، والقواطع عهدا .

ويقول مفاخرا بأنا عاهدنا السيوف قديما ، وإذا ماوردت سيوفنا هام الملوك رجعت ريانة ، وكذا الخيل لها ذمة علينا ، أن نخوض بها لجج المعارك ، ثم يتحدث عن الفتى المنتظر الذي يفي بتلك الذمم ، فهو خبير بشئون الحرب ، يخوضها غير هياب ولاوجل ، ومن صفاته أنه يرى بذل النفس لله خير المغانم .

تعامى بنو البلقان عن مَنْهج النُّهى
لخوضِ عُبابِ الفتنةِ المُتلاطم

وأغرى بهم أنّا حَفِظْنا عهودَهم
ولاعهدَ إلا للخفافِ الصوارم

علينا عهودٌ للمواضي قديمةٌ
نفيها على رَغْمِ الأنوفِ الرَّواغم

إذا وردَتْ هامَ الملوكِ أكفُّنا
بهنَّ ظِماءً عُدْن غيرَ هوائم

أبيْنا عليْهَا أن يقرَّ قرارُها
على تِرةٍ كلّا ولاضيم ضائم

وللخيلِ منّا ذمةٌ لانضيعُها
رعيْنا لها حقّ العتاقِ الصَّلادم

نخوضُ بها لجَّ المنايا عوابساً
ونوطِئُها هامَ الذُّرى بالمَناسم

بكلِّ فتىً يغشى على الليث غابَه
بصيرٍ بإرغام الليوثِ الضراغم

بصيرٍ بحبات القلوبِ سنانُه
ومخذمُه طبٌّ بضرْبِ الجماجم

تسيرُ المَنايا عنــد بَابَيْـه حفلا
إلى كلِّ جيّاش الحَصَـا والزّمـازم
إذا اقتحمَ الهيجاءَ لم يعدُ كبشها
بصارمةٍ مـن ذي غراريـن صـارم
إذا خَطَرت زرقُ الأسنّـةِ لـمّ يـرمّ
مجرّ العوالى بَاسِمـاً غيرَ ساهـم
وإمّا تقاضته العُـلا بذلَ نفسـه
راى بذلَها فى اللّه خيرَ المغانم
إذا ماستمدّوا للعظائمِ اقبلـوا
يمدّون من أيـدٍ عـوامٍ عواصـمِ
وإنْ عَرضتْ غـرّ المناقب أسرعـوا
إلى وردِها بالمفنيات العزائـم (١)

ولايخفى أن نفس الشاعر كانت مفعمة بالامل ، وحنّقد حدة على العدو ، وساعدته عباراته الجزلة على الحديث عن المعركة الآتية ، ونلفيه أكثر من عبارات السيف ومرادفه ، وكذا العبارات الدالة على القوة ، "الخفاف الصوارم" ، "الانوف الرواغم" ، ضيم ضائم ، العتاق الصلادم ... ناهيك عن العبارات المجازية التى أرفدت الالفاظ القوية لتضفى جوامخوفا على القصيدة .

"اكفنا بهنَّ ظماء عدْنَ غير هوائم"
بصيرٌ بحبّاتِ القُلوبِ سِنَانُـه
ومخذمه طَبٌّ بِضَرْبِ الجَمَاجـم
تَسيرُ المنايا عِنْدَ بَابَيْه حفّلا
إلى كل جيّاشِ الحَصَا والزمازم

(١) ديوانه ص ٢٧٢ .

ثم إن الشاعر التفت التفاتة جميلة ، فبعد أن كان حديثه عن شخص واحد انتقل إلى الجماعة "إذا ما استمدوا ..." شعورا منه بأن الفرد الشجاع إذا لم تعضده الجماعة فإن بطولاته الفردية لن تحقق النصر المرتجى .

ويقول عبد الرحمن المصري: إذا أردتم أن تعرفوا من نحن فاسألوا دول البلقان عن شجاعة الترك والعرب ، فجيشنا تخشى المنايا لقاءه ، وكم تركنا جيش العدو مشتتا بالسيوف القواضب ، ثم يعود بالذاكرة إلى أيام الفتح العثماني لليونان ويتحسر أن لو هدموا "أثينا" لئلا يقوم لهم قائمة .

سلُوا دولَ البلقان عن نَقْمةِ الحربِ
إذا ما دهَتْها هَجْمةُ الترك والعُرب

سلوا الجبلَ المغرورَ هل ثَمَّ مُطْمَعٌ
سلُوا عَسْكرَ اليونان عن موقفِ الضَّرب

بنا كلُّ مِقدامٍ إذا جاشَ جأشُه
يخوض غبارَ الموتِ في المهْمَةِ الصَّعب

لنا عسكرٌ تخشى المنايا لقاءَه
وتنحلُّ من إقدامِه مولةُ الخطب

فمن مبلغٍ عنّا الأعادي بأنّنا
إذا اجتمع الجمعان نحمي حِمى الشعب

لعمرُك ما البلقانُ إلا ابنُ بومةٍ
وما جيشُه إلا أخسُّ من الضَّب

فكمْ قد تركْنا جيشَه مُتَشَتِّتاً
وما ذاك إلا بالمُثقَّفةِ القُضب

عفوْنا وكان العفوُ منّا جنايةً
على أمةِ اليونان في ساحةِ الحرب

فلو أننا لمّا اتينا بجيشنا
"أثينا" هدمناها إلى أسفل الترب (١)

ويهدد «فخرى البارودى» الدول المتحالفة قائلا :

سينظر "آل الروم" يوم نزالنا
صليل سيوف الشرق يسمعها الغرب

وأنتم "بنى البلقان" بلغاركم خسا
كذاك جبال السود يتبعها الصرب

....

فمهلاً بنى البلقان عودوا لعقلكم
فليس من الإنصاف أن تنشب الحرب

....

ونحن أسود فى الحروب شبالنا
تعوّدت الإقدام فليخسئ الذئب

وعادة أسد الغاب تحمى عرينها
وليس يخيف الضيغم الهر والكلب (٢)

وعلى نفس المنوال يتوعد «احمد افندى يبرود» ، ويوضح أن أمانى المتحالفين لن تتحقق ، إذ السمر العوالى مشرعة ، والأسد تقد هام المعتدين ، والجيش يهد الراسيات :

لقد رامت بنو البلقان ملكاً	حماة حصونه آل الرشاد
تحاول أن يزول المجد عنّا	ودون مناهم خرط القتاد
ودون مناهم الأسد الضوارى	تقد الهام بالبيض الحداد
ودون مناهم جيش عظيم	يهد الراسيات بكل واد (٣)

---

(١) المقتبس عدد ١٠٣٠ .
(٢) نفسه عدد ١٠٣٧ .
(٣) نفسه ١٠٤٢ .

وأما «محمد منيب زعيتر» فيهدد الدول المتحالفة ، ويؤكد أن اتفاقهم على حرب المسلمين يهيجهم لاسترداد حقوقهم ، ويفخر بأن للمسلمين نفوسا أبية تستعذب الموت وتثور من أجل كرامتها ، ويذكر الأوربيين بالحرب الدائرة في طرابلس الغرب وأنهم لم يتعظوا بما رأوا فيها من شجاعة الجنود المسلمة .

أما علمتم بأنَّ المسلمينَ رَأَوْا
هذا التعدِّي لأجلِ الدِّينِ فاجانا

وأن اتفاقَكم هذا يُهيجُهم
بأنْ يهبُّوا بسوحِ الأرض غَيْلانا

وأن يثيروا حروباً في ممالكهم
يعزُّ إخمادُها وُسْعَاً وإمكانا

لنا نفوسٌ أبياتٌ تَهُزُّ على
حفْظِ العريناتِ أسيافاً ومُرَّانا

تستعذِبُ الموتَ إن سيمَتْ بعاديةٍ
والكونُ إنْ غضِبتْ يهتزُّ أرْكانا

وتُرْهِبُ الدهرَ إنْ صالت مناضلةً
والأسدُ تخْضعُ إعظاماً وإذعانا

ياجهل أوربةَ فيها إذا حَرَدَتْ
كأنَّها الليثُ إذْ يشتدُّ غضبانا

أما استفادَتْ دروساً من طرابلس
وأهلُها الشوسُ هجمات وهيَّجانا

ويقول في مقطع آخر مفتخرا ، برغم ماوصلت إليه الدولة من تفكك .

ونحن شعبٌ نرى العزَّ الرفيعَ لنا
بأنْ نموت بحدِّ السيف شجعانا

وإنْ طلبْنا مِعابَ الأمــرِ فى هِممٍ
ذلَّت لدينا وانفُ الدهرِ قدْ دانا
وإنْ اشرْنا إلى نجمِ السُّها طلباً
هوى الينا مطيعَ الأمرِ مذعانا (١)

ويهدد «أحمد الكاشف» فى إحدى قصائده دول البلقان ، ويؤكد أن أعمالهم العدوانية على الدولة ستكون عقباها عليهم ، ويتمسك بالخلافة ، ويزعم أنها أصلد وأقوى من الجبال الراسية ، وهذا مايبين لنا صدق توجه هذا الشاعر والتفافه حول الدولة .

افى كلِّ بر يحملُ الشرَّ جَحفلٌ
وفى كلِّ بحر يرْتمى بالأذى الفلكُ
تعالَوا فما الخطبُ الذى توسعونهُ
على الشركِ إلا محشرٌ لكم ضَنْكُ
شكاكم إلى اشياعِكم فتنكّروا
فعادَ إلى أسيافِهِ والقنا يشكو
تخرُّ الجبالُ الراسياتُ عليكم
ولاتنْقضى هذى الخلافةُ والمُلكُ (٢)

ويدعو «عبد المحسن الكاظمى» أمم البلقان أن ترجع عن غيها وتحترم حق الجوار ، ويهددهم إذ يخيفون المسلمين بالحرب فيثبت انها اشهى إلى نفوسهم ، ويطلب منهم أن يرجعوا إلى خدورهم لأنهم لايقووا على مصارعة الأسود .

ايا أممَ البلقان فيئُوا لرُشْدِكم
ولاتَتَرامُوا فى حُضون الجَواحِم

---

(١) السابق عدد ١٠٢٧ .
(٢) ديوانه ص ٢٤ .

أفي أيّ حقٍ غدرُكم بجواركم
وفي أيّ دينٍ حربكم للمسالمِ

جنايتُه إحسانُه لجوارِه
وآثامه رَعْيَ البُغاةِ الأواثم

فما أنتمُ الاّ جناةٌ تعوَّدوا
ركوبَ الدنايا وارتكابَ الجرائم

تخيفوننا بالحَرْبِ والحربُ عندنا
لِمَن أَلِف العدوانَ أشْهَى المطاعم

دَعوا الأسدَ في آجامِها وتَطلَّبوا
لشمّ الدنايا غيرَ شمّ المراغم

ذروا الحرب يغشى ساحَها كلُّ أروعٍ
اذا قام أقعى دونَه كلُّ قائم

رجوعا إلى حيث الخدور فانتم
صنائعُ ربّات الخدور النواعم

إلى غيرِنا او فابعثوا غيرَكم لنا
فما أنتمُ الأكْفاء عندَ التصادم (١)

الهجـــاء :

نجد بعض شعراء هذه الحرب ادرجوا ضمن قصائدهم هجاء للعدو ، وتعييرا له بالجبن والهلع والفرار ... وذاك لايخرج عن مضمون قصيدة الحرب .

فهذا "فخري البارودي" يطلق على دول البلقان "الدب ، والهر ، والكلب" .

---

(١) ديوانه ١١٨/٢ .

ونحن أُسودٌ في الحروب شبالُنـا
تعودت الإقدام فليخسـأ الـدبُّ
وعادةُ أسدِ الغاب تحمي عرينَها
وليس يُخيف الضيغمَ الهرُّ والكلب (١)

وهم في نظر أحمد الكاظمي بغاة ، لئام ، وخيمو الطباع ، ضلال ، أوغاد .

ويـدْرَأُ كلَّ ذي سَرَفٍ لئيمٍ   وخيم الطبع ما عرف الفلاحـا
وضُلالا من الغرب اشمخـرَّتْ   على الشرق الذي سلك النجاحا
وأوغادا من الأعداء راموا   مذلةَ مَعشرٍ حلّـوا الفِراحـا (٢)

وواضح أن هؤلاء الشعراء استقوا قاموسهم الهجائي من المجتمع الأمي الذي بعد كثيرا عن الثقافة الأصيلة ، فأتت الألفاظ سطحية ونثرية .

ويهجو الرصافي تلك الدول هجاء مرّا في قوله :

ياعلوجَ الصرب والبلـ   ـغار أولاد الزواني
لم يكنْ إيعادُكم بـال   حربِ غير الهَذَيـان
إنما الحـربُ لدينـا   من تمـام الحيـوان
فاتركـوا الإبعاديـا   أبناءَحمراء العِجّان
ودَعوا الحَربَ فَلَيْسَ ال   حربُ من شأن الجبان
وتزيّـوا يامخانيـ   ـثُ بأزياء الغوانـي
إنمـا أنتـم تيـوس   أُولعـت بالنـزَوان
سوف تُرمون من الرعـ   ـب بداء اليَرقـان
وتذوقون مـن المـو   تِ الزؤامِ الأرجواني (٣)

---

(١) المقتبس عدد ١٠٣٧ .
(٢) نفسه ١٠٢٥ .
(٣) ديوانه ١/٤٨٧ .

ويصدق في هذه القصيدة ماقاله عنها الدكتور "يوسف عز الدين": "وليست هذه القصيدة من عيون الشعر العربي فلم يأت الرصافي بشيء جديد في هجائه يخلد هذا الهجاء سوى الكلمات القاسية اللاذعة التي لاتليق به ، ولكن الرصافي يسف دائما في هجائه ، وينزل إلى مستوى لايتناسب وماعرف عن شعره من رصانة وقوة سبك وأسلوب ضخم ..." (١) .

المعدات القتالية :

كانت هذه الحرب من مؤشرات النهاية للدولة العثمانية إذ بلغ التآمر الأوربي ذروته ، وقد استخدمت في تلك المعارك كل أنواع الأسلحة الموجودة وقتئذ ، حتى الطائرات استخدمت لأول مرة كما مر بنا .

وقد ذكر الشعراء بعض تلك المعدات ، وكان السيف بشتى مسمياته اكثر أنواع الأسلحة ذكرا ، من ذلك قول "أحمد الكاشف" عندما سأل عن سبب هزيمة العثمانيين .

وخانت سيوفُ الفاتحين أكفَّهم
وضلت سفينُ الفاتحين السواحلا (٢)

ويقول "الرصافي" بصدد تصميمه على استعادة أدرنة من البلغار :

أدرنةُ مهلاً فإن الظُّبى ستَرعى لكِ العهدَ والموثِقا (٣)

ويذكر "شوقي" أنه أحد الكوارث التي حلت بمدينة أدرنة .

السيف عارٌ والوباء مسلّط والسيل خوفٌ والثلوجُ ركام (٤)

---

(١) الشعر العراقي الحديث ص ٦٠ .
(٢) ديوانه ٢/٢٥ .
(٣) ديوانه ٢/٢٩١ .
(٤) ديوانه : الشوقيات ١/٢٣٧ .

إلى غير ذلك من الأمثلة التى مرت بنا وأشار فيها الشعراء إلى السيف .

ويذكر عبد المحسن الكاظمى أن المدافع والطائرات من الأدوات التى شاركت فى تلك المعارك :

كأن اللّظى من تحتها يقذفُ اللّظى
ومن فوقها بالطائرت الرّواجمِ

....

فتلك التى قد قيل عنها بنادقٌ
رواجم لاتُبقى على كلّ راجم

....

وتلك التى قد قيل عنها مدافع
تُهاجم أرواحَ الكماةِ الهواجم (١)

ويشير إليها محمد عبد المطلب بقوله :

مدافعُها عُمي المرامى إذا رمت
رمت لم تَمِزْذاشكةٍ مِن مُسالم (٢)

وينوه أكثر الشعراء بالخيل ودورها فى هذه الحرب مما مر أكثره فى ثنايا الصفحات السابقة ، إلى غير ذلك من الأمثلة التى تشير إلى أسماء بعض المعدات القتالية ، مما ساعد على نشر تلك الألفاظ بنوعيها القديم والحديث .

---

(١) ديوانه ١١٦/٢ .
(٢) ديوانه ص ٢٧١ .

الفصل الرابع

من معارك الحرب العالمية الأولى في أوربا ١٣٣٣هـ/١٩١٤م

(١) مقدمة تاريخية .

(٢) الدعوة لنصرة العثمانيين والإشادة بهم .

(٣) الإشادة بالخلافة والدعوة لمؤازرتها .

(٤) معركة "غاليبولى" وصداها فى الشعر .

* فرح الشعراء بالانتصار فيها ، ومباركة اختيار قائد المعركة .
* هزيمة الحلفاء والتهكم بهم .
* الجيش العثمانى المنتصر فى منظور الشعراء .

(٥) من آثار الحرب .

* سقوط "أيا صوفيا" ، ومراثى الشعراء لها .
* غروب الشمس .
* السخرية من الحضارة الغربية .

قامت الحرب العالمية الأولى والوضع الداخلى للدولة العثمانية يعانى من صراع القوى ، وكان قادة "الاتحاد والترقى" ، أقوى قوة مسيطرة على أزمة الحكم .

واختلف قادة الاتحاد فى دخول الدولة الحرب ، وجرت بعض مظاهر العداء لها من قبل الحلفاء ، علاوة على انضمام أعدائها التقليديين - كروسيا ، وايطاليا ، واليونان - لهم بينما كانت "المانيا" تخطب ودها ، إذ عرضت قروضا مالية ضخمة لتخرج الدولة من ضائقتها شريطة دخولها الحرب إلى صفها ، وفعلا استقر أمر القادة "الاتحاديين" على الزج بالدولة فى خضم ذلك البحر الهائج .

ودعا الخليفة إلى الجهاد واستجاب بعض الناس على المستوى الشعبى لتلك الدعوة ، وانضم بعض المناوئين للدولة إلى الحلفاء .

وقامت معارك ضارية بين الدولة والحلفاء على الأراضى التركية والعربية ، وكان أهم المعارك فى الجانب الأوربى فى بداية الانضمام معركة "غاليبولى" وسيأتى الإشارة إليها .

كما دارت معارك شرسة أخرى فى الجانب العربى - سأشير إلى بعضها فى موضعه إن شاء الله .

وكان من نتائج تلك الحرب أن هزمت الدولة وحليفتها ، وتمزقت أوصالها ، واقتسم تركتها المنتصرون ولم تسلم من ذلك حتى العاصمة ، وتوطدت أقدام الاستعمار فى البلاد الاسلامية .(١)

(١) انظر : تاريخ الدولة العثمانية ص ٢٢٧ ومابعدها ، ط/المكتب الاسلامى ، د. على حسون ، التاريخ الاسلامى - العهد العثمانى ٢١٦/٨ ومابعدها .

ووقف بعض الشعراء باعتبارهم جزءا من الرأى العام الإسلامى بجانب الدولة ، مناصرة لها ، وإثارة للحمية والعواطف الاسلامية .

وكانت أهم قضايا ذلك الشعر مايلى :

الدعوة إلى نصرة العثمانيين والإشادة بهم :

فى وقت اشتد فيه ضغط الحلفاء على الدولة العثمانية تعالت أصوات الشعراء من ذوى الميول العثمانية – الذين يظهرون ولاءهم للإسلام ونصرته – إلى مساندة الدولة فى تلك الحرب .

"فأحمد محرم" يدوى فى "مصر" صوته مشيدا بالعثمانيين تغذيه عاطفته الإسلامية تجاههم على الرغم من إحكام سيطرة الإنجليز على "مصر" إبانئذ،يمدح الأتراك بقوله :

التّركُ جندُ اللّه لولا بأسُهم
لم يبقَ فى الدّنيا مُقيمُ أذان

خلفاؤه الأبرارُ نزّه حبّهم
فيه وطهّرهم من الأدْران

لم يَخذلُوهُ ولا أضاعوا حقّهُ
فى شدّةٍ من أمْرِهمْ ولِيان

صانوا بحدِّ السّيف حوزةَ مُلكِهم
وحِفاظَ كلِّ مشيّعٍ صَلتان

يأْتمُّ فيه خليفةٌ بخليفةٍ
ويزيدُ خاقانٌ على خاقان (١)

فركز على كونهم جند الله ، خلفائه ، صانوا الملك وحافظوا عليه .

---

(١) ديوانه : السياسيات ٣١٦/١ .

وتتجلى قيمة هذه الكلمات ودورها فى الدعوة إلى مساندة الدولة إذا ماعرفنا أن صيحات المنشقين عليها ، والقول بعدم أحقية العثمانيين للخلافة أخذت تمثل تيارا قويا داخل الوطن العربى ممثلة فى ثورة الشريف "حسين" ـ كما سيأتى ـ فأتى الشاعر ليؤكد خلافتهم للمسلمين ، وأنهم حماة الإسلام فى الشدة واللين .

ونجده يشيد بالخلافة ، ويمجد عزيمة الحاكمين ، فما إن ظهروا حتى كبرت الخلافة ابتهاجا بطلعتهم ، ومضوا يشقون طريقهم فى إرساء دعائم الدولة بعد ماعانت قبلهم من الاستبداد كما تصوره مشيرا بذلك إلى السلطان "عبد الحميد" .

سيفَ الخليفةِ والسيوفُ كثيرةٌ
والقومُ بين تضارُب وطِعان

مافى القواضِبِ والكتائبِ إنّ مضى
ومضيّتَ غيرَ مُفلّل وجَبّان

تُمضيكَ منه عزيمةٌ من دُونِها
يَقِفُ الزّمانُ ويرجُف الثّقلان

لمّا أطلّ على الخلافةِ كبّرتْ
ومَشَتْ إليه ببَيْعةِ الرّضوان

صَدعَتْ به أغلالَها وتدافعت
تَختالُ بعدَ الجَهْرِ والرَّسفان

أخذتْ برأى المُستَبدّ وغُودِرتْ
زمناً تُعالِجُ حُكْمَه وتُعانى

ظلمٌ على ظُلمٍ وسوءُ سياسةٍ
وفسادُ تدبيرٍ وطولُ توان (١)

(١) السابق ٣٠٥/١ .

استخدم الشاعر "سيف الخلافة" كناية عن زعماء الاتحاديين الذين تربعوا على عرش الدولة بعد إطاحتهم بالسلطان "عبد الحميد" ، ولذا عرَّض به بقوله : "أخذت برأى المستبد" ، وهذه الكلمة أضحت فى هذا العصر مصطلحا لعهد "عبد الحميد" وربما كان الشاعر . مؤملا فى الحكام الجدد خيرا ،لذا كانت عباراته فى تصوير مكانتهم تنبىء عن الإعجاب بهم . "كبّرت" ، "ومشت اليه ببيعة الرضوان" ، وماتحمله هذه العبارة من عمق تاريخى .

وينبرى فى قصيدة أخرى محييا الاتراك ، مشيدا بعودة التفاهم والتلاحم بينهم وبين العرب الذين تحتم المصالح الدينية والدنيوية تعاضدهم ، ناعيا على الوشاة بين الأمتين وخيبة سعيهم ، يغذى ذلك كله بعاطفة دينية جياشة إذ يصف جهاد الاتراك بأنه جهاد فى سبيل الله ، وحفاظ على كتابه ، وهامن رامهم بالسوء استؤصل ؛ وأضحت دولته طلولا دارسة .

دعوا الخلافة إنّ اللّه حافظهـا
وإنّ بأسَ بنى "عثمانَ" واقيهـا

يمْشى الزمانُ مُكِبّاً تحت ألويةٍ
راموا السّماءَ فنالتْها عواليها

صانُوا الكتابَ فصانَ اللّهُ دولتَهم
واستُؤصِلَتْ دولٌ بالسوءِ تَبْغيهـا

أمستْ حديثاً وأمسى كـلُّ مُعتمـرٍ
فيها طُلُولاً يُنَاجِي البُومَ عافيها

ويفخر بسيوف الترك التى أدبت الرئيس "ولسون" كما يقول ، ساخرا من أولئك الذين أعلوا من قيمة الرجل تضليلا للرأى العالمى .

إنّ السيوفَ سيوفُ الترك مابَرِحتْ
تَحمِي حماها وتُمضي في أعاديها

كانت "لِويلسونَ" نوراً يستضيءُ بها
في ظُلمةِ الحربِ لمّا ضلّ هاديها

لمّا مضى القومُ في أحكامهم شططاً
أوحى إليه صَوابَ الحكم مُوحيها

لاذوا به ، وأذاعوا كلّ رائعة
من الأحاديثِ تضليلاً وتمويها (١)

وفي قصيدة أخرى يرد على الطامعين في عاصمة الخلافة ، ويؤكد أن الله حاميها بالأسود الرابضة على أسوارها ، فكيف يطمع فيها الضعاف ، ولايخفى مافي الاستفهام من سخرية واستهزاء بتلك المزاعم .

هم يزعمون "فروقَ" لاحقةً بهم
وَيَرَوْنها الحقّ الذي لايُذهَبُ

كَذَبوا فإنّ الله مانعُ رُكنِها
ومُعِزُّها بضَراغمٍ لاتكذِبُ

الأسدُ رابضةٌ على أسوارِها
والبأسُ يُهدِرُ والرَّدى يتوثّبُ

إلى حِمَى "عثمانَ" في علياتِه
يتطلّعُ القومُ الضِعافُ الهُيَّبُ (٢)

وأما أديب الشام الأمير "شكيب أرسلان" فيذكر أنه قدم وفد تركي إلى "سوريا" لتقوية الأواصر بين العرب والأتراك ، فاستقبلهم بقصيدة ، عبر فيها عن ولائه للدولة ، وحيا فيها ذلك الوفد التركي ناهجا نهج القدامى في مقدمته :

---

(١) السابق ١/٢٦٤ .
(٢) نفسه ١/٢٨٦ .

قفْ بين مشتبك الأغصانِ والعَذبِ
بأرضِ "جيرونَ" ذاتِ السّلسلِ العذبِ
بربوةٍ فى حقَاقيْها المعينُ جرى
بجؤجؤ الباز حيثُ الصّيد عن كَثَبِ

ويدعو السكان إلى الفرح بتلك الزيارة الميمونة .

واهتفْ بسكّانها أن ينتشوا طربا
إنّ الكريمَ عليه هِزّةُ الطّربِ
فى ساحةِ المسجد الأقصى يقالُ لهم
أهلاً وفى عتبات المصطفى العربِ
لو أنصفْتُهم ديارُ الشامِ قاطبةً
صفّقْنَ بالكفّ من «مصر» إلى حلبِ

ولايخفى مافى قوله "أنصفتهم" من إيماء خفى إلى التيار المخالف للعثمانيين فى ربوع الشام .

ثم يخاطب الأتراك مبينا حبه لهم ممتدحا مواقفهم التاريخية ، فى خدمة الإسلام ، ذلكم هو الإنصاف بعينه .

أُحبُّكم حبَّ من يدرى مواقِفَكم
فى خدمةِ الدّينِ والإسلامِ من حِقَبِ
ومذْ تقلدتموا أمرَ الخلافةِ قدْ
آويتموا من بنيها كلَّ مغتربِ
لقد ضربْتم لعَمْري فى حياطتها
بكلِّ سيفٍ رهيفِ الحدِّ ذى شطبِ
فكلُّ غِرٍّ يمارى فى فضائلكم
لايَعرفُ الحشفَ البالى من الرُّطبِ

ثم يدعو إلى وحدة الكلمة بين العرب والأتراك ، ويبين أنه مهما كان بينهما من خلاف ظاهر فإن الرابطة الإسلامية فى الأصل ثابتة فوق كل خلاف لأن كلمة التوحيد جامعة ، وأنها فوق

الانساب والقوميات ، ولكنه مع ذلك أشار إلى عروبته ، وافتخر بها وانه ينتمى إلى "قحطان" من غير إسراف فى ذلك ، بل نجده يقدم افتخاره بالعثمانيين .

مهما يكنْ من هَنَاتٍ بيننا فلنا
معكم على الدّهرِ عهدٌ غيرُ منقضب

كفى الشهادةَ فيما بيننا نسباً
إنْ لمْ تكنْ جمعتْنا وحدةُ النّسب

مجدى بعثمانَ حامي مِلّتى وأنا
لم أنسَ قحطانَ أصلى فى الورى وأبى (١)

وللدلالة على الولاء للعرب والدعوة إلى الوئام بين الأمتين والإشادة بمواقف العثمانيين "نظمت قيادة الجيش الرابع وفدا من أكثر من ثلاثين رجلا يمثلون "سوريا" و"لبنان" و"فلسطين" وشمالى الجزيرة العراقية وأرسلتهم إلى عاصمة السلطنة" (٢)، ونظم بعضهم قصائد أشادوا فيها بالعثمانيين فهذا "حسين أفندى" (٣) يقول :

أيّها الوفدُ الذى سار إلى
ساحةِ الحرب أمامَ الدّردنيل

حيّ عنّا "آلَ عثمان" الأولى
حرسوا الكعبةَ من كلِّ دخيل

حرسوا الملكَ قروناً
خدموا القرآنَ والدينَ الجليل

يارجالَ الملك إنّا أمةٌ
لاترى عن "آل عثمان" بديل

حيّها ياوفدُ حيّ جندَها
قاهرَ الاعداءِ بالسّيفِ الصّقيل

نصرَ الدينَ وأعلى شأنَه
فغدا الإسلامُ فى ظلٍّ ظليل (٤)

---

(١) ديوانه ص ١٢٩ ومابعدها .
(٢) الاتجاهات الادبية فى العالم العربى الحديث ص ٩٤ ، ط/دار العلم للملايين ، أنيس المقدسى .
(٣) لم أعثر على ترجمته .
(٤) البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلامية ص ٦٧ ، ط/العلمية ، يوسف صادر بيروت ، محمد كرد على وآخرون .

ويقول الشيخ "علي الريماوي"[1] مادحا الأتراك ، منوها بدورهم في حماية الملك ، مشيدا بسعيهم إلى التقريب بينهم وبين العرب ، حتى أضحت الأمتان – كما تصوره الشاعر – متآخيتين لاينقم أحد على أحد ، هدفهما خدمة الدولة وسياستها .

تَيقّظتم حَزماً فأيقظتمُ الدّهرا
واعملتُم عزماً فادهشتمُ العَصرا

سلامٌ عليكم ما أجلّ فِعالكم
واعظمَ في الأيام آياتها الكبرى

سلامٌ على الدّستور حلوٌ مذاقُه
وإنْ كان بعضُ الناس قد ذاقَه مُرّا

حماةَ الهدى والملكِ لله درّكم
على الخصم قد طبّقتم البرّ والبحرا

ومنها قوله :

سعيْتم فقرّبتم بني العربِ منْكمُ
وقلْتم همُ الإخوان في الضّر والسرا

يعدّون هذا الملكَ فيهم ومنهم
ولاينقمون التّركَ سرّاً ولاجهرا

فكنْتم نجادَ الملكِ والعربُ سيفَه
وكنْتم يمينَ الملك والعربُ اليسرى[2]

---

(١) علي بن محمود الريماوي ولد بالقدس سنة ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م أصله من حلب ، درس بالأزهر ، كان مواليا للعثمانيين ، درّس بالقدس ، حرر مدة في جريدة "القدس المشرف" ، ثم في "النجاح" ، له ديوان شعر ، مات بالقدس سنة ١٣٣٧هـ ١٩١٩م .
انظر : الأعلام ٥/
(٢) السابق ص ٢٠٨ .

وواضح أن الشاعر عمد إلى الطباق بين مجموعة من الألفاظ "حلو ومر ، الضراء والسراء ، سر وجهر" ، والجناس في قوله "أزر ، ووزر" .

وتتجلى قيمة هذا النص وأمثاله مما ذهبت مذهبه أنه يضيء حقبة تاريخية يتعذر على كثير من المؤرخين الفصل فيها لأنها اتجاهات تتصل بضمير الأمة أكثر مما تتصل بوقائع خارجية تصلح للمشاهدة والتدوين .

وإن كانت رسالة الشعر تتجه في معظم أهدافها وغاياتها إلى اثراء الوجدان بالمشاعر الجديدة أو الجميلة . فلابأس فيما يرى الباحث أن تتجه إلى تصوير الواقع ، وإلى مايستكن في ضمير الشاعر من حدب على دينه وأمته ، لاسيما والشاعر العربي ينتمي إلى أمة بلغتها وبيئتها وظروفها شاعرة ، الشاعر فيها يحول كلّ شيء إلى شعر .

الدعوة إلى مساعدة الخلافة :

لقد عبر بعض الشعراء عن عواطفهم تجاه الدولة ، فما ان أعلنت الحرب على الخلفاء حتى انبروا يحثون المسلمين على مساندتها ، فهذا "الرصافي" ينظم قصيدة يدعو فيها إلى الجهاد والذود عن الوطن ، مستنفرا كل الطبقات "من يسكن البدو والأرياف والمدن" مؤكدا أنه لاعذر للمسلمين عن الانضمام في هذه الحرب بجانب دولتهم ، وعار الا يهبوا لإنقاذ أوطانهم .(١)

ياقومُ إن العدا قد هاجموا الوطنا
فانْفُروا الصوارمَ واحموا الأهلَ والسكنا

(١) انظر : الشعر العراقي الحديث ص ٨٥ .

واستنفروا لعدوّ الله كلّ فتى
ممن نأى فى أقاصى أرضكم ودنا
واستنهضوا من بنى الإسلام قاطبة
من يسكن البدو والأرياف والمدنا
واستقتلوا فى سبيل الذود عن وطن
به تقيمون دين الله والسننا
واستلئموا للعدا بالصبر واتخذوا
صدق العزائم فى تدميرهم جننا
واستنكفوا فى الوغى أن تلبسوا أبدا
عار الهزيمة حتى تلبسوا الكفنا
وإن لم تموتوا كراما فى مواطنكم
متم أذلاء فيها ميتة الجبنا
ولا حياة لهم من بعد إن جبنوا
كلا وأى حياة للذى جبنا
عار على المسلمين اليوم أنهم
لم ينقذوا "مصر" أو لم ينقذوا عدنا (١)

فظاهر أن الشاعر كان متحمسا لنصرة الخلافة ، وأكثر من استخدام فعل الأمر لينبه الغافين من قومه ، كما أنه ركز فى الدعوة إلى الحرب على النخوة الدينية .

وهذا شعر أدنى فى لهجته وأسلوبه إلى اللهجة الخطابية فليس فيه الخيال الخصب ، ولا الصور الموفقة ، ولا العناية بالقيم الجمالية فى الأداء .

والباحث بعد متابعة هذه المرحلة التاريخية الدقيقة فى حياة الأمة ولغتها وثقافتها وآدابها يعتبر هذا اللون مرحلة صحوة فى تاريخ الشعر الحديث ، خرج فيها من تفاهة

---

(١) ديوانه ص ٤٨٩

المعانى ، وركتها ومن سقم الخيال ومن الإسراف فى المحسنات فى غير طائل .

ومن الطبيعى أن يتخلص من هذا الإسفاف إلى السلامة والصحة أولا ، ثم إلى الجمال بعد ذلك ، بعد أن ينضج الوجدان ، ويتهيأ للشاعر بل للأديب عامة طلاقة التعبير ، وصحة الأداء وجماله .

وأما "عثمان هاشم"[(١)] فيدعو إلى مساعدة العثمانيين الذين حموا الثغور ، ومركز الخلافة ، لذا يتساءل حتى متى التخاذل عن نصرتهم .

والتركُ قد تُركوا بغيرِ معونةٍ
وهمُ الأولى حاطُوا الثغورَ وحاموا

قد فُوجِئوا فى عُقرِ دارهمُ التى
هى للخلافةِ مركزٌ ودعام

فتبادَروا نحو السّيوفِ وجرِّدوا
تلك المواضى للدِّفاع وشامنوا

فإلى متى هذا التخاذلُ بينَكم
هبُّوا فكم ردَّ الحقوقَ حُسام[(٢)]

---

(١) لم أعثر على ترجمته .
(٢) شعراء السودان ص ٢١٩ سعد ميخائيل ، بدون تاريخ ولاطباعة .

معركة "الدردنيل" – "غاليبولي" وصداها في الشعر[1] :

ما إن أعلنت "تركيا" الحرب ضد الحلفاء حتى خفت الأساطيل "البريطانية" إلى فتح مضيق "الدردنيل" الذى أغلق في وجه الحلفاء وحال دون مساعدة "روسيا" العدو التاريخي للدولة العثمانية .

وشيد الأتراك تحصينات قوية في ذلك المضيق ، مما جعل اقتحامه مغامرة محفوفة بخطر ، فما إن بدأ الإنزال حتى ووجه بنار حامدة ، ولاح النصر باديء الأمر للقوات المهاجمة بعد أن تعرضت خيرة الجيش التركي لمجهود مضن دفاعا عن ذلك المضيق الحيوى ، ولكن "مصطفى كمال" الضابط الشاب جمع عددا وافرا من الجنود وطار على جناح السرعة إلى مكان المعركة ودارت رحى معركة طاحنة أدت إلى انسحاب "بريطانيا" مخلفة وراءها مائة وعشرين ألفا من خيرة رجالها قتلى وجرحى بعد اخفاقها في تحقيق الهدف[2] .

(أ) "فكان لفشل الإنزال أثر كبير ورنة فرح في نفوس الشعراء" المسلمين[3] .

فهذا "أحمد محرم" يعبر في مطلع إحدى قصائده عن الفرحة الغامرة التى خالجته مضفيا تلك النشوة على الحطيم والحرمين إذ أن دين الله عز بذلك الانتصار كما بدا له حين قال :

طَرِبَ الحطيمُ وكبَّرَ الحرمان   واعتزَّ دينُ اللّهِ بعدَ هَوانِ

---

(١) الممر الذى يربط أوربا بآسيا .
(٢) انظر : تاريخ أوربا في العصر الحديث ص ٥٠٤،٥٠٦ ، التاريخ الاسلامى – العهد العثمانى ٨/٢٢١-٢٢٢ ، الشعر العراقى الحديث ص ٧٤-٧٥ .
(٣) الشعر العراقى الحديث ص ٧٥ .

قامتْ سيوفُ الفاتحين بنصرِه والنّصرُ بين مُهنّدٍ وسِنَانِ
ظمئَتْ جوانحُه إلى حرِّ الوغى فسقتْه شؤبوبُ النجيعِ القاني (١)

ونلقيه يشيد بالخليفة وأنه "بر السريرة صادق الإيمان" ويبارك اختيار ذلك القائد .

ثم يضفي عليه أوصافا جمة كلها تدل على الإعجاب الشديد بقائد المعركة ، فهو قسور ، عندما زار في "فروق" جفلت جبال "الصين واليابان" ، فهو أعظم من أسد "المتنبي" به عز الإسلام ، ويمضي في إعطاء صورة بديعة فيما تخيله عن ذلك القائد وجنده المحاربين حين قال :

اللّــهُ أيّدَ دينَــه بخليفــةٍ
بَرِّ السريرةِ صادقِ الإيمـان
أخذَ السبيلَ على العدوِّ بقَسْوَرٍ
دامي المكرِّ مُخضّب الميدان
ريعَتْ لَهُ أُممُ النّمال وأجْفلَتْ
دولُ الثعالبِ منه والذّؤبان
لمّا تردّدَ في "فروقَ" زئيرُه
رَجفَت جبالُ الصّين واليابان
في مخْلبيهِ إذا الحصونُ تهدّمت
حِصنان للإسلام مُمتنعان
جرحَ الألى صَدَعوا الخلافةَ فاشتفَى
جُرحانِ في أحشائِها دَميان
حملا الهلالَ على عُبابٍ من دمٍ
الدِّينُ والدّنيا به غَرقان

(١) ديوانه : السياسيات ٣٠٢/١ .

الملك معتصمٌ بـه مُستَمسِك
منه بأوثق ذمَّةٍ وضمان
سيفُ الخلافةِ جرّبـوه فكَشَفَتْ
منه التجاربُ عن أغرَّ يمان

ويقول عن أفراد الجيش ودورهم في شد عضد القائد وتنفيذ خططه :

خيرُ الغُزاةِ الفاتحين أَعانَـه
أَوفى الصِّحاب وأكرمُ الأخدان
طَلبُوا شبابَ المُلكِ واحتسبوا الفِدى
في اللّهِ من شِيْبٍ ومن شبّان
وسَمَتْ بـأركانِ الخلافةِ أنفسٌ
يسمو الأمينُ بها إلى رِضوان
كان الدمَّ المسفوحَ أكبرُ مابنوا
وأجلَّ مادعَمُوا من الجدران (١)

أشار إلى الخليفة في البيت الأول فقط ليدلل على حسن اختياره لقائد المعركة ، وبالغ في وصفه ، واستخدم الاستعارة المرشحة إيغالا منه في المبالغة كقوله "لمّا تردد في فروق زهيره ..." ، "في مخلبيه إذا الحصون تهدمت" ، والمبالغة أيضا في قوله "في مخلبيه عباب من دم" .

ثم إن معاونيه همهم صيانة الملك ، واحتساب ذلك عند الله وهذه من ملامح الجندي المسلم .

وقد امتدح "محمد مهدي البصير" (٢) وزير الدفاع "أنور

---

(١) السابق ص ٣٠٥-٣٠٦ .

(٢) محمد مهدي بن محمد البصير ، ولد في الحلة سنة ١٣١٣هـ ١٨٩٥م ، فقد بصره مبكرا ، درس بجامعة "آل البيت" ، درس بمصر ، ثم في فرنسا إذ نال درجة الدكتوراه في الأدب الفرنسي ، درس بعدها بمعهد دار المعلمين العالية ، شارك بشعره في الثورة ضد الإنجليز ، له عدد من المؤلفات منها ديوان شعر الشذرات ، وديوان البركان وغيرها ، توفي سنة ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م .

باشا " بقصيدة - بعد معركة "الدردنيل" - قال فيها : إنه صان تاج الخلافة ، وأمّن الخائف من أبناء الأمة ، وبذل جهده في سبيل الإصلاح ، ورفع الظلم عن أبناء الشعب .

عَقَدَ الإلهُ لواك فهو مُظَفَّر
بالنَّصر مابين الممالك يُنشَر

وأطالَ عنُق الدِّين سيفُك إذ غدا
في حدِّه باعُ العدو يقصِّر

ياصائناً تاجَ الخلافةِ والذي
فيه أُقيمَ سريرُها والمنبرُ

مثلُ الخلافةِ من يكونُ مُحكَّماً
بينَ العبادِ ومثلُك المُستوزر

مهَّدتَ هذا الشعبَ ملتمساً لهُ
إصلاحَه فيما تُسرُّ وتَجهَر

أمَّنتَ خائفَه ورُعتَ مُخيفَهُ
تَنهى به عمَّا تشاءُ وتأمُرُ

كمْ من يدٍ آسْدَيْتَهالك أوْجَبَتْ
شُكرًا لأنام ونعمةً لاتكفر

كم ظلمةٍ للظُّلمِ أنت جلوْتَها
وبنورِ عدْلِك أشْرقت ياأنورُ

كم وقفةٍ لك دونَ ملةِ أحمدٍ
فيها برأيك بلْ بسيفك تُنصر

وتطرق إلى سهره على راحة الشعب وأمنه فقال :

كم ليلةٍ ليلاءَ أنْت سهرْتَها
لتنامَ حولك أعينٌ لاتسهر (١)

(١) الشعر العراقي الحديث ص ٩٧-٩٨ .

عمد الشاعر في هذا المقطع إلى الطباق بكثرة ، تسر وتجهر ، أمنت ورعت ، تنهى وتأمر ، كم ظلمة للظلم ، بنور عدلك ، سهرتها لتنام ، مما ينبىء عن أن الإكثار من المحسنات البديعية مازال يهفو إليها بعض شعراء هذه الحقبة

(ب) وصف هزيمة الحلفاء والتهكم بهم والإشادة بالجيش العثماني :

سخر بعض الشعراء من هزيمة الحلفاء في "الدردنيل" واخذوا يظهرون الشماتة بهم بعد انسحابهم منها .

فيصور "أحمد محرم" الرعب الذي أحاط بالحلفاء ، فالبحر بأمواجه العاتية ، والنيران المندلعة من البوارج التي تخوض عباب البحر ، ومن الجبال المحيطة به ، وتغور السفن في ذلك البحر مثنى وفرادى نتيجة إصابتها من النيران . وأما البر فملتهب كله ، لذا فإن العدو شرب الموت الأحمر المتدفق من كل الجهات .

في الدَّرْدنيلِ وفي الجزيرةِ بعدَهُ
رُعْبُ المياه وَرَوْعَةُ النِّيران

نارانِ بــرَّحَ بالكتائبِ منهُمَـــا
حالان في الهَيْجاءِ مُختلفــات

هذي تَفيــضُ مــن البُــرُوجِ وهـــذه
تَنْسابُ بين اباطِــحٍ ورِعـــانِ

البحــرُ يفتَــحُ للبَــوارِجِ جَوْفَـــهُ
فتغورُ من مَثْنىً ومن وحُـــدانِ

والبَــرُّ مُلتهبُ الجوانِـــحِ مُضمِـــرٌ
حَنَــقَ المغيظِ ولوعةَ الحرَّانِ

شَربُوا المنايا الحُمْرَ يَسْطعُ مُوجُها
بين المُروجِ الخُضْرِ والغُدْران
ترمي بهـا لُجَجٌ يَظَلُّ شُواظها
مُتدفِّقاً كتدفُّقِ الطُّوفان (١)

ثم يستفهم ساخراً من العدو ، إذ زعم أن الحرب دعابة ، وما الذى غرّهم عن معرفة خصمهم ، أما دروا أنهم الترك والألمان» ، وهما سيفان إذا ماضيا فإن قضاء الله يجرى فى حديهما .

ثم يهزأ بالوعود التى أطلقت قبل بدء المعركة ، مما جعل قائد أسطول الحلفاء يغتر بما يمتلكه ، ولكنه فوجىء بما لم يكن فى حسبانه ، ومنى بهزيمة نكراء .

ويحَ الألى زعموا الحروبَ دُعابةً
ماغرَّهم بالتُّركِ والألمانِ
سَيْفانِ ما استبقا مَقاتِلَ دَوْلةٍ
إلّا مضى الأجلان يَسْتبِقان
يجرى قضاءُ اللّه فى حدَّيهما
ويجولُ فى مَدرَيْهما المَلَكان
أين المنايا السَّابحاتِ حواملاً
فَزَعَ البحارِ ورِعْدَةَ الخُلجانِ
غرّت "جِراي" فجاءَها من تَحْتِها
مالم يكُن "الجِراى" فى الحُسبان (٢)

والشاعر كان موفقا فى وصف تلك الهزيمة ، واعتماده فى الوصف على الثنائية البر والبحر ، ونار البر ونار البحر ،

---

(١) ديوانه : السياسيات ٣٠٦/١ .
(٢) نفسه ٣٠٧/١ .

وكذا حديثه عن الترك والالمان ، وتعبيره عن التحام الدولتين بقوله "سيفان" ، وتصريحه باسم القائد الانجليزى "جراى" زيادة فى السخرية .

ونراه يصف الهزيمة فى قصيدة أخرى ، ويعيد نفس الفكرة السابقة من أن العدو دعاهم غرورهم إلى مهاجمة "تركيا" ولكن أسطولهم قوبل بمقاومة قوية من البحر والبر .

سَلِ الرُّوسَ والأحلافَ ماذا لَقُوا بها
وهل يملكون اليومَ إلا التّشاكيا

ونحن صدعْنا جمعَهم إذ تألّبوا
يُريدون مُلكاً للخلائفِ عاليا

اهابَ بهم داعي الغُرورِ فأقبلوا
يَمنُّون ضُلّالَ النُّفوسِ الأمانيا

ترامى بهم أسطولُهم فانبَرتْ له
بُروجٌ تصُبُّ الموتَ أحمَرَ قانيا

وأخرى كأفواهِ البراكينِ ترتمى
حِثاثَ الخُطى تعلو الذُّرى والرَّوابيا

وجاشتْ بأعماقِ الغِمارِ صَواعِقٌ
تُذيعُ بها سِرّاً من الحَتفِ خافيا

ولاذتْ بأكنافِ الجزيرةِ منهمو
كتائبُ حلّتْ من جهنّمَ واديا (١)

ولاضير على الشاعر وقد كرر نفس الفكرة كما اتضح ، إذ التكرار هنا فيه نوع من الإلحاح على الفكرة التى يريد إبرازها بذلك الشكل الذى يرضيه لما فيها من تثبيط لهمة العدو ، ورفع لمعنوية المناصرين للعثمانية من جهة أخرى .

---

(١) السابق ١/٢٩٨ .

وفـى الأبيات إشارة سافرة إلى ما أضحى ظاهرا للعيان من تـألّب الأوربيين على الخلافة ودولتها ، أما ما حيك قبل من أسباب وتمحلات وعلل واهية فلم يكن غير ادعاء يخفون به حقيقة نواياهم "إنه الاسلام ودولته" الجمرة التى فى قلوبهم تتحرك حينا بعد حين ، وقد عبر "محرم" عن هذه المعانى بلغة صافية ، لامعاظلة فيها ، ولاتكلف "صدعنا جمعهم إذ تألبوا" ، "يريدون ملكا للخلائف عاليا" .

ويصور "محمد عبد المطلب" خيبة أمل "الإنجليز" و"الفرنسيين" حين عادت جيوشهم خائبة بعد أن فشلت فى تحقيق مبتغاها من ذلك الهجوم ، ويبين ذلك على محورين :

(أ) الهجوم البحرى وضراوته وشدة مقاومته وهزيمته .

حيث شقت الأساطيل عباب "الدردنيل" لتشن غارة قوية على مقر الخلافة "إن تقرع بها الدهر يغرق" ويصف ضخامة تلك السفن وألوانها ، وكيف بيتوا العدوان ، وائتلفوا من أجله .

ثم يبين خيبة أمل تلك الأساطيل وكيف "عدن بشمل بالهوان مغرق" ، وماذلك إلا لشدة المقاومة العنيفة ، والاستعداد التام من قبل دولة الخلافة كما يقول . حيث نصبت المدافع فى كل مكان تصب عليهم نيرانها ، وفعلت تلك النيران فعلها بهم ، فهم بين طائح على الموج أو غارق أو محترق ، وأما سفنهم فتتصدع وتسقط الواحدة تلو الأخرى ، لذا فقد أضحى العيوق أقرب منالا من "فروق" بالنسبة لهم .

فأَبلغْ بنى "التّاميزَ" عنّا وحِلْفَهم
لابباريس» أنباءَ النذير المُصدَّقِ
عشيةَ يحّدُون الأساطيلَ شُرَّعاً
على اليمّ تحْبُو فِى الحديد المطبَّق

تَشُنّ على دار الخلافة غارةً
من البحر إن تقرعْ بها الدهرَ يفرَقِ

كأنّ جبالاً سُيّرت فوق لُجّةٍ
تداعيْنَ مثنى بين جَوْن وأزرق

تألفْن بالعدوان يَجْرين باسمه
إلى غرض في مَدْحض الهون مَزْلق

سرينْ على برقٍ من الرأى كاذبٍ
لمعتسفٍ عارٍ من الحزم أحمق

فأقبلْن في شَمْلٍ من البغى جامع
وعُدْن بشملٍ بالهوان مفرَّق

ومَن يتحرّشْ بالرَّدى يَكْرعْ الردى
زُعافا ومن يُسْتنبثِ النّار يُحرَق

نصبْنا لهم في كلّ جوٍّ خبيئةً
تصبُّ عليهم كلَّ شعواءُ خَيْفق

وقمْنا لهم في مُرتقى كلِّ تَلْعة
بكلِّ مليءٍ بالرَّدى متفيهق

فباتوا على نار شببْنا شُواظَها
فكانت عليهم غيرَ نار المحلِّق

كأنّ بني شَيْبان يوم أُوارة
بما كَسَبوا يصلَوْن نار مُحرِّق

سُقُوا بأسَنا صِرْفاً فهم بين طائحٍ
على المَوْجِ صالٍ بالجحيم ومُغْرَق

رأوا ذَنَب "العَيّوق" أهونَ مطلباً
وأيسرَ مَرقىً من "قَرُوقَ" لِمُرتقِى (١)

---

(١) ديوانه ص ١٦٢-١٦٣ .

(ب) أمـا الهجـوم الـبرى فهو لايقل عنفا عن الهجوم البحرى فكوّن الشاعر عدة صور لجنود العدو .

فما إن خاب سعى العدو فى البحرحتى جمع جيشا كثيفا له جلبة وبأس .

وقابل الجيش العثمانى جموع الحلفاء ، حيث ما إن حطوا رحالهم .

..... حتى كسونا سماءَهم بأسودَ من نسج القنابل عَوْهقِ

ويصف حيرتهم واستغاثتهم ، ولكنهم يغاثون بنار تشوى الوجوه لاينجو منها أحد ، حتى أضحوا إما صريعا على الثرى ، وإما فزعا أصيب بالجنون من هول مارأى ، أو هائما على وجهه مندهشا ، أما كوكبة أخرى فقد فرّت إلى البحر علّها تجد نجاة ولات نجاة فهو لم يعصم أولئك السابقين .

وأما فرقة أخرى فقد أخذت تستجمع قوتها ، وآثرت العبور ، ولبأس العثمانيين صيّروهم أشلاء ممزقة ، لذا لجأ بعضهم إلى رفع يده مشيرا باستسلامه ، وأضحى بعد ذلك متربعا فى بحبوحة من العيش والأمان ، حتى ود من هرب أن لو استسلم لينعم بالراحة ، من قبل العثمانيين بعد استسلامه .

هنالك لمَّا ضلَّ فى البحر كيدُهم
وصاروا إلى كيد الضعيفِ المحمّقِ

تداعَوا بجرّار على البحر زاخرٍ
يزوف مُدِلّا فى صفيح وبُندق

له زَجلٌ يُغشى به العُصْم فى الذُّرى
وبأسٌ متى يُنذرْ به النجم يَصْدُق

فلمّا التقيْنا والمنايا جواثمٌ
تُطالعهم من كلِّ شِعْب وخَنْدق

دَلفنا إليهم كوكباً خَلْف كوكبٍ
وجاشوا إلينا فيلقاً بعد فيلقِ
فما خيّموا حتّى كسَوْنا سماءَهم
بأسودَ من نسجِ القنابل عَوْهق
دَجَا فاستكانوا تحته بين حائرٍ
يَشُقُّ بعينيه السماءَ ومُطرق
وإن يستغيثوهُ يُغاثوا وإنّما
بذى لَهبٍ يشوى الوجوهَ مُحرِّق
طَغَتْ نارُنا فيهمْ فَمَا لِمُغرِّبٍ
من النّار مَنجاةٌ ولالِمُشَرِّق
يَوَدُّون لو أنَّ السماءَ تشقّقت
لهم طُرقاً هيهاتَ لم تَتشقّق
فما إن ترى إلاّ صريعاً على الثَّرى
وملتهباً يقفوا مُصاباً بأولق
ومُختبطاً فى الدَّوِّ يرْكُبُ رأسه
ضلالاً ومن يَسْتكبرِ الهولُ يُخرَق
يقولُ انج سعدٌ بالهوانِ فقدْ هَوَى
سعيدٌ وحاقَ البأسُ بالمتعوِّق
وكوكبةٌ يعدو الفِرارُ بخيلها
إلى البحر بالإدبار للنّار تتقى
إذا البحرُلم يَعصِم من الحَيْن جندَه
فهيهاتَ يُنجى عائذُالبرِّ او يقى
واخرى تولاّها الغرُورُ فاقدمَتْ
لمَهلكِها مَلْمومةً لم تُفَرَّق
غدتْ تستجمُّ البأسَ فانسطرَت به
هنالك فى لَوْح الفناءِ المُنمَّق

تركْنا عِتاقَ الطير فى حُجَراتها
تَخَطَّفُ منهم كلَّ شِلْوٍ مُمَزَّقِ

فكانت جزاءَ الظالمين مَضَوا بها
كذلك نَجْزِى منهمُ كلَّ من بَقِى

ومُستأسَرٍ بالذلِّ يرفعُ نحونا
اكفَّ مُنيبٍ بالهوان مُطوَّقِ

تَربَّع فى ظلٍّ من العفو وارفٍ
لدينا وعهدٍ بالأمان مُوثَّقِ

وباتَ طليقاً فى الإسار تحُفُّه
مكارمُنا كالسلسبيل المُصَفَّقِ

واصبحَ من ولَّى يودُّ لو انَّه
أسيرٌ لدينا عانياً غيرَ مُطْلَقِ (١)

وكان الشاعر موفقا فى إعطاء صورة عن تلك الحرب ونتائجها ، ويسترعى القارىء مجموعة من الظواهر وردت فى هذا النص :

(١) كثرة استخدام الشاعر للمشتقات وخاصة فى القافية وهو "الوسيلة التى لابد منها للشاعر العربى الذى يريد أن يتناول المعنى من جميع نواحيه ويتدرج به فى مختلف درجاته ..." (٢) .

(٢) إن الأفعال المضارعة تحظى بنصيب وافر داخل هذه القصيدة ، ليساعد فى إعطاء الصورة عن تلك الحرب بما فيه من حركة وتجدد .

---

(١) السابق ص ١٦٣-١٦٥ .
(٢) ابن الرومى ص ٢٧٤ ، ط/دار الهلال ، عباس محمود العقاد

(٣) إن الشاعر أعطى القارىء صورة كاملة عن الحرب بدءا من الاستعداد للهجوم وسير الجيش والأساطيل البحرية ، ونهاية بغرق الأساطيل وقتل وفرار جنود تلك الحملة ، وأسر بعضهم الآخر .

(٤) إنه كان يضرب فى أعماق التاريخ محاولة منه فى تفخيم تلك الحرب ونتائجها .

(٥) إن لغته جزلة قوية عميقة ذات ألفاظ قليلة الشيوع مما يدل على ثروته اللغوية ، وغرامه بها ظنا منه أن قوة الشعر تتأتى من ذلك .

(٦) استرسال الشاعر مع القافية الصعبة ، دليل على غزارته واعتداده بموهبته وثقافته اللغوية .

(٧) وعاطفته صادقة تجاه الأتراك إذ يستخدم ضمير المتكلمين فى حديثه عن دفاعهم إيمانا منه بالرابطة الإسلامية التى تجمعه بهم .

ويصف "محمد مهدى البصير" محاولة جيوش الحلفاء فى "الدردنيل" ، ومقاومة العثمانيين لها بمدافعهم ، التى أضحت كالسحب تمطرهم بالعذاب لذا تقهقر أسطولهم وعاد خائبا بعد ما أشعلت فيه النيران .

لئن أتتْ للدّردنيل فحاولَتْ ... أمراً بِهِ عنه تقِلُّ وتَصغُرْ
فلقد درى الأسطولُ كيف تذودُه ... عنه المدافعُ بالصواعقِ تُمطرْ
فكأنّها كانت بأعلى جوّها ... سحباً عليه بالعذاب تُسَخَّر
ما أن تقابله برمى شواظها ... إلا وردَّ مخافةً يتقهقر

ومنها :

فعلى ضفاف البحر تلك تذودُه ... ووراء لُجّته الفناءُ المُضْمر
خَبّاتٌ له الأمواجُ نارَ وغىً سوى ... ما فيه أفواهُ المدافع تَفْتر

فهناك قِرٌّ إلى قرارةِ لُجّةٍ   والنارُ في حافاته تسعر (١)

وكل مافي هذا اللون من الشعر انه يعطينا تصورا عن عواطف الشعراء تجاه الدولة .

وأما موقف "محمد علي اليعقوبي" (٢) فموقف المتهكم من هذه القوات التي هاجمت "البسفور" ولكنها لم تنل منه شيئا وإنما اكسبت الجيش العثماني فخرا جديدا ، وعزا مجيدا .

ولم ينس "اليعقوبي" مالالمان من يد في مساعدة الجيش "التركي" في طرد المهاجمين الذين أرادوا احتلال "الدردنيل" عنوة فقال في ارجوزته :

سلْها غداةَ ازْدلفَتْ للبوغاز   إذْ خابَ من خاب وفازَ من فاز

نِلْنا بها مكرمةً وإعزاز   والفوزُ أحرزناه أيَّ إحراز

وانكفأت أعداؤنا بالجرمان

قد أقبلتْ تطفو بها الأساطيل   فنازَلتْها ميدُنا البهاليل

تحسُبُها يومَ سَطَتْ أبابيل   ترمي العدى حجارة من سجيل

حتّى انجلى النصر لآل عثمان (٣)

والشاعر في هذه الأرجوزة علاوة على مايحمله من عواطف للدولة ، فإنه مثل غيره من شعراء جيله امتاح من التراث ، ومن القرآن الكريم بعض الصور .

وينشر "محمد حسن أبو المحاسن" (٤) قصيدة يصفها الدكتور "يوسف عز الدين" "بأنها أطرف قصيدة نشرت في هذا الحادث ،

---

(١) الشعر الحديث في العراق ص ٧٧ .

(٢) محمد علي بن يعقوب بن جعفر اليعقوبي ، ولد سنة ١٣١٣هـ/١٨٩٥م ، عالم وأديب من أهل النجف ، له عدد من المؤلفات منها البابليات في تراجم شعراء الحلة ، وديوان شعر وغيرهما ، مات سنة ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م .
انظر : الأعلام ٦/

(٣) نفسه ص ٧٦ .

(٤)

فقد جمع فيها بين الغزل والتهكم على قوات الحلفاء التي هاجمت المضايق" .

وأن مناهم باقتحامه قد آبت بالخذلان بعد فرار أساطيلهم ومصرع جنودهم على يد العثمانيين فقال :

وشادنٍ أورثني حبّه	كالائتلافيين حزناً طويل
عزَّ على الوصلِ منه كما	عزَّ عليهم موقفُ الدردنيل
والكلُّ منّا لم ينلْ قصده	وهكذا مَنْ طلبَ المستحيل
قد هِمْتُ بالثّغر وهاموا به	والثّغر ناءٍ ما إليه سبيل
وفتحه كان لهُم منيةً	ومنيتي أنّه السلسبيل
أشكو ويشكوني الهوى والوغى	فكلنا يُصلى بنار العليل
ياذُولاً فرّت أساطيلُها	فِرارَ سُلواني وصبري الجميل
كانت "غاليبولي" لهم مصرعاً	ومصرعي خدُّ المليح الأسيل
دماؤهم مثلُ دموعِ النوى	على الظُبا والخدِّ سالت مسيل
قد صادني الظّبيُ ولكنّما	صادتهمو من "تركيا" أسْدُ غِيل
أوْدَت بهم بيضٌ حِدادٌ ، كما	بالصبِّ أودى سيفُ لحظٍ كليل
ضيّعتُ قلبي يومَ ترحالِه	وضيّعوا الشوكةَ يوم الرحيل
ولستُ مسئولا بشرْعِ الهوى	إن سألوا "كجنرَ" أو "جورجيل"
قدْ رجعوا بالعارِ لكنّني	رجعتُ في العشق بمجدٍ أثيل
وجدتُ للحبّ بنفسي ، وهم	قد آثروا جُبْناً حياةَ الذليل
إنْ ندموا اليوم على ما مضى	فلا أُقيلت عثْرةُ المستقيل
قد نزلوا بالحربِ أوطاننا	ونحن عجّلنا القِرى للنّزيل (١)

فتأمل هيامه بثغر حبيبه ، وهيامهم بثغر "الدردنيل" ، وكلاهما هو والحلفاء يصليان بنار الجوى ، أما هو فبصاحبته

(١) السابق ص ٧٧-٧٨ .

وأما هم فباحتلال الثغر ، وقد كانت "غاليبولى" مصرعل لهم كما كان مصرعى من خد المليح الأسيل .

حقا إنها لطريفة ولاتعود طرافتها وحسنها إلى محسنات لفظية أو مايشبهها بل إلى هذه الموازنة التى استطاع أن يجمع فيها بين مواقف الحب ومواقف الحرب فى تجانس معجب ، مما يدل على صحوة الحياة عند الشاعر .

(ج) وصف الجيش والإشادة به :

بعد أن ترامت الانباء بوقوف الجيش العثمانى فى وجه قوات الحلفاء ، عرض بعض الشعراء لوصفه والإشادة والافتخار به .

فيصفه "أحمد محرم" بأعظم مايوصف به جيش إسلامى ، فهو مانع للخلافة ، حام للحجيج ، ناصر للقرآن ، ولتأكيد هوية ذلك الجيش نلفيه يذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم يسير به ، وحوله ملائكة وبينه "العمران" ، وعمرو وخالد وعلى رضى الله عنهم ، كل هؤلاء يسير الجيش محتذيا حذوهم إيمانا وشدة بأس ، وخبرة فى الحروب .

ولذلك لايمكن مقارنته بغيره لأنهم "جنود رب العالمين" ويستطرد ممجدا القوة مبينا دورها فى انتزاع الحق .

ويعود ليوضح أن ذلك الجيش ، قرينه النصر أينما حل ، فهما اخوان متعانقان متنادمان لايمكن أن ينفصل أحدهما عن الآخر .

مَنعَ الخلافةَ أن تُضامَ وحاطَها ... حَامى الحجيجِ وناصرُ القرآن

جيشٌ يُسيرُ به النبيُّ وحولَه ... جُنْدُ الملائكِ بينه العُمَران

يهتزُّ عمرو فى اللّواءِ وخالدٌ ... ويمورُ حيْدَرةٌ بكلّ عِنان

أَخَذَ الفوارسَ أخْذَ أغلبَ باسلٍ
ترتدُّ عنه بواسلُ الأقران

خاضَ الحروبَ فما تدافع لُجُّها
إلا تَدَافعَ فيه يلتطمان

يطفو على ثَبجِ الدّماءِ إذا هَوَت
في الهالكينَ رواسبُ الشّجعان

ويشقُّ مُصطفقُ العُباب إذا طغى
يَرْمي عَبابَ الشّرِّ والطّغيان

ماللجنودِ الباسِلين وإنْ عَلَوا
بجنودِ ربِّ العالمينَ يدان

الحافظين على الخِلافةِ عِزَّها
النّاصرين خليفةَ الرّحمن

غَدَرَ العدوُّ فعلّمته سيوفُهم
صِدقَ العُهُود وصحّةَ الأيمان

السّيفُ إنجيلُ الهدايةِ إنْ دجا
ليلُ الضّلالِ فطاحَ بالعُميان

يجلو عماياتِ النّفوسِ بأسرها
مافيه من عِظةٍ وحُسْنِ بيان

دِينُ اليقين لكلّ شعبٍ جاحدٍ
سنَّ العقوقَ ، ودان بالعِصْيان

قومٌ إذا رفعوا اللّواءَ فإنّه
والنصرُ بينَ سيوفِهم أخَوان

مايفتتان إذا الوغى جَمَعتْهما
يَتَناجيان بها ويَعتنقان

بين الدّمِ الجارى نديمَيّ لذّةٍ
إن لذت الصّهباءُ للنّدمان

ينبتّ حبلُ الأصفياءِ وينطوي
وهما بحبلِ الله مُعتصمان (١)

فالشاعر كان معجبا ببطولة ذلك الجيش ، مؤمنا أن الأتراك حماة الإسلام وإلا ما أضفى عليهم تلك الصفات ، ويقرنهم بأبطال الإسلام ، مما يدل على عاطفة الشاعر الإسلامية القوية .

وصوره وألفاظه كلها قوية تدل على الحركة وعدم السكون "يطفو على ثبج الدماء" ، "يشق مصطف العباب" ، "يرمى عباب الشر" ، مما ساعد على إعطاء صورة بارعة عنه حسب تصور الشاعر له .

وينوه فى قصيدة أخرى بدور الجيش العثمانى مع تأكيد هويته وصفته الإسلامية .

اللّهُ أكبرُ جاءَ الحقّ وازْدلفتْ
جنـدٌ ملائكةٌ يعتزّ غازيها
المصحفُ السّيفُ والآياتُ أدرُعُها
والقائدُ الرّوحُ والمختارُ حاميها
من ذا يُصارعها؟من ذا يُقارعها
من ذا يُدافعها ؟ من ذا يُناويها (٢)

ونلفيه فى قصيدة أخرى يعود لتمجيد القوة ممثلة فى سيف الجيش ، وخوضه للمعركة البحرية بعصا "موسى" عليه السلام التى كانت معجزة كبرى .

والدّينُ فى كلّ الممالك لم يقُمْ
إلا بحدّ الصّارم البتّارِ

(١) ديوانه : السياسيات ٣٠٤،٣٠٣/١ .
(٢) نفسه ص ٢٦٤ .

السيفُ من رُسُلِ الهدايةِ مادَجَا
ليلٌ فغادَرَهُ بغير نهار
جيشُ الخليفةِ مالباسِك غالبٌ
من ذا يُغالِبُ صولةَ الأقدار
خفتَ الفيالقَ موجُها مُتدافعٌ
كالبحر يُدفعُ زاخِرُ التّيار
أشبهتَ "موسى" غيرَ أنّك ضاربٌ
بغِرارِ أسطَعَ باهِرِ الأسرار (١)

ويهاجم "كاظم آل نوح" (٢) "فرنسا" و"انجلترا" ويقول :
"إن حصن الدردنيل حصن مكين قوى تحرسه الاسود ، وعندما أنزل العدو جيوشه ، كانت قوى الجيش تقف لهم بالمرصاد فأذهلتهم وأدهشتهم بعددها وعديدها" .

حصّنَ اللّهُ حوزةَ الدّردنيل
بكُماةٍ غُلْبٍ وآسادِ غِيل
طهّرَ اللّهُ أنْ تُنجّسَ منها
باحتلالِ الأعداء بعضُ الطّلول
يومَ سالت إنكلترا وفرنسا
بالأساطيل مثل جرْي السّيول
وجموعٍ ضاقت رحابُ الفيافي
فيهمو والرّعيلُ إثر الرعيل

---
(١) السابق ص ٢٤٨ .
(٢) كاظم آل نوح ، ولد سنة ١٣٠٢هـ/١٨٨٥م من أهل الكاظمية له مؤلفات منها ديوان شعر ، وديوان في أهل البيت وغيرهما ، توفى سنة ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م .
انظر : الأعلام ٥/

جعلت للإسلام حصناً منيعـــا
عنه عادَتْ بدهشةِ المذهـــول (١)

والمهم في هذا النوع من الشعر ، أن الناس كانوا ينظرون إلى الدولة العثمانية حامية للإسلام .

وقد بلغ من اعجاب "البناء" (٢) بالمحاربين ، أن تمنى أن يفديهم بنفسه لأنهم حفظوا الاستانة نفسها ، من عدوان الحلفاء ، وكبدوهم الكثير فقال :

يابنفسي منَ حفظوا الدّردنيلا
وعلى الائتلاف سدّوا السّبيـــلا
حفظوا مركزَ الخلافـــةِ حتّـــى
عادَ ماحاول العدى المُستحيلا
حصّنوا ثغرَ بحرِهمْ بدِقّـــاعٍ
كمْ وكمْ أغرقُوا بـــه أُسطـــولا (٣)

ويفخر "الرّصافي" بدولة الإسلام وجيشها الزاحف لرد العدو وحماية الوطن الإسلامي من كيده .

هذي جيوش بني التوحيد زاحفةٌ
على العِدى وعلى من ضلَّ مفتتنا
لازلتَ ياوطنَ الإسلام مُنْتَصِـــرا
بالجيشِ يزحفُ من أبنائك الأمنا
يردُّ عنك يدَ الأعـداءِ خاسـرةً
ويكشفُ الغمَّ عن أفقيك والمحنا
سعديْك من وطنٍ جلّتْ مفاخـــرُه
عن الزّوالِ فلاتخشى بلىً وفنـــا (٤)

---

(١) الشعر العراقي الحديث ص ٧٥-٧٦ .
(٢) لم أعثر على ترجمته .
(٣) نفسه ص ٧٦ .
(٤) ديوانه ٤٨٩/٢ .

من آثار الحرب :

كان من نتائج تلك الحرب سقوط "الآستانة" فى يد الحلفاء ، وسيطرتهم عليها ، ولذلك فزع بعض الشعراء من هول المصاب ، وانتابهم الحزن على سقوط العاصمة فبكوا حالها ومآلت إليه ، وبكوا فرقة المسلمين وهزئوا بالحضارة الغربية .

سقوط العاصمة :

فأما "الآستانة" فقد عبر كل من "حافظ ابراهيم" ، و"أحمد شوقى" عن حزنهما لما صارت إليه بعد العز والتمكين.

فيناجيها "حافظ" مناجاة الكمد "بيا النداء" ، معتقدا أنه مادام الحلفاء سيطروا عليها فقد حان فراق المسلمين لها ، ولكنه يرجوها أن تذكر العهد الوضيء الذى عاشته أيام العثمانيين الكرام ، ويصفهم بأعظم صفة إسلامية "صلوا وسلموا" ، وأنه إذا عدت للصليب وأظهر أهله شعائرهم فى نواحيك ، فلاتنكرى أيام المسلمين وشعارهم "الأذان" ، فإن الإسلام خاتم الأديان وأكرمها عند الله .

ثم يبين - ونفسه يملؤها الأسى - أن المصاب الذى "بالآستانة" مصاب للإسلام إذ أن سقوط الدولة هو سقوط للمسلمين باعتبارها ممثلة له .

ويشير إلى أن هذه الهزيمة التى منى بها المسلمون كانت بسبب ابتعادهم عن مصدر عزهم كتاب الله وسنة رسوله ، وأن هذا الأمر يحزن النبى صلى الله عليه وسلم ، ويطرق البيت أسفا على ذلك المصير ، ويختم القصيدة ببيان نتيجة المخالفة ، هو ما آل إليه حالنا من استيلاء من لايرحم على

بلادنا ، وفى ذلك العقاب إشارة الى قوله تعالى : {إنّ اللهَ لايُغيّرُ مابقومٍ حتى يُغيّروا مابأنفسِهم} (١) .

أيا صُوفيا حان التفرّقُ فاذكرى
عهودَ كرامٍ فيك صَلّوا وسَلّمُوا

إذا عدتِ يوماً للصّليبِ وأهلِه
وحَلّى نواحيكِ المسيحُ ومريمُ

فلاتُنْكرى عهدَ المآذنِ إنّهُ
على اللّهِ من عهد النواقيسِ أكرم

تباركتَ بيتُ القدسِ جذلانُ آمنٌ
ولايأْمنُ البيتُ العتيقُ المحرَّم

أيُرضيكَ أن تغشى سنابِكُ خيلِهم
حِماكَ وأن يُمنى الحطيمُ وزمزم

وكيف يذلُّ المسلمون وبينَهم
كتابُك يُتْلَى كلَّ يوم ويُكرَم

نبيُّكَ محزونٌ وبيتك مُطرِقٌ
حياءً وأنصارُ الحقيقةِ نُوَّم

عصيْنا وخالفْنا فعاقبتَ عادلاً
وحكَّمتَ فينا اليوم من ليس يَرحم (٢)

ونلحظ أن نفسه لم يكن طويلا فى هذه المقطوعة المشجية ربما لشدة هول المصاب جعله لايستطيع التفكير والاستزادة ، أو لأن خوف الرقابة جعله لايزيد على ذلك ، ثم إن الأسلوب الإنشائى من نداء وأمر ونهى واستفهام هو السائد فى هذه القصيدة على قصرها ، فخلعت على صورها كثيرا من الأسى .

---

(١) سورة الرعد : ١١
(٢) ديوانه ٨٨/٢ دار العودة ، بيروت ، تحقيق أحمد أمين وآخرين .

وبدا "شوقي" أكثر تفصيلا من "حافظ" في قصيدته "مسجد أيا صوفيا" ، حيث بين كيف أن ذلك المسجد كان بيعة قبل مجيء "الفاتح" وما تحويه من مظاهر النصرانية المحرفة من صور للعذراء من فضة ، ولابنها صور من عسجد ، وكيف أن ذلك المصور الروماني أبدع في نقش جدران الكنيسة ، وتخيل صورا للملائكة الكرام فرسمها على حيطانها ، كل تلك المظاهر وغيرها تشيد بمكانة تلك الكنيسة عند المسيحيين .

كنيسةٌ صارت إلى مسجدِ ... هديّةُ السيّدِ للسيّدِ
كانت لعيسَى حرماً فانتهتْ ... بنُصرة الرُّوح إلى أحمد
شيدها الرومُ واقيالُها ... على مِثال الهَرَم المُخْلَد
تنبيءُ عن عزٍّ وعن صَولَةٍ ... وعن هوىً للدين لم يخمُد
مَجَامرُ الياقوتِ في صَحْنِها ... تملؤهُ من نَدِّها المُوقَد
ومثل ماقد أودِعَتْ من حُليٍّ ... لم تتَّخذ دارا ولم تُحشَد
كانت بها العذراءُ من فضةٍ ... وكان روحُ اللّه من عسجد
عيسى من الأمِّ لدى هالةٍ ... والأمُّ من عيسى لدى فَرْقَد
جلاّهُما فيها وحلاّهُما ... مُصوِّرُ الروم القديرُ اليد
وأودعَ الجدرانَ من نقشه ... بدائعاً من فنِّه المفرد
فمن ملاكٍ في الدُّجى رائحٍ ... عندَملاكٍ في الضُّحى مغتدى
ومن نبات عاش كالببَّغا ... وهو على الحائط غَضٌّ نَدِي
فقل لمن شادَ فهدّ القُوى ... قوَى الأجيرِ المُتْعَبِ المُجْهَد
كأنّهُ فرعون لمّا بنى ... لربه بيتاً فلم يَقصِد
كنيسةٌ كالفَدَن المعتلي ... ومسجدٌ كالقصْر من أصْيد
واللّهُ عن هذا وذا في غنى ... لويعقلُ الانسانُ أويهتدى (١)

(١) ديوانه : الشوقيات ٢/٢٥، ٢٦ .

وبهذا البيت يختم الشاعر الحديث عن الكنيسة ، وفى المقطوعة تجلت موهبة "شوقى" الفنية فقوله :

كنيسة صارت إلى مسجدٍ هدية السيِّد للسيِّدِ

من أدل مايكون على كياسة الشاعر ولباقته ، لأنه لم يجعلها اغتصابا بل هدية من سيد لسيد ... ثم كشف عما استكن وراء هذا البناء الشامخ الأنيق من ابتزاز للضعفاء ، واستغلال لقوى الأجير المجهد ، ثم يختم بهذه اللفتة الرائعة التى تؤكد أن الأديان فى غنى عن هذى المظاهر كلها لو يعقل الانسان أو يهتدى .

وينتقل بعد ذلك الى الحديث عن المسجد ، وكيف أن "محمدا الفاتح" أتى بقواده ، وحول تلك الكنيسة إلى مسجد ، وتعالت تكبيرات الفاتحين وصلاتهم بين جنباتها وحاول الروم فداءها ولكنهم لم يوفقوا ، ويضفى أعظم الصفات الحميدة على الفاتح العثمانى .

ثم يوضح بعد ذلك أن هذا الفتح كان مدعاة لاثارة الصدام بين المسلمين والنصارى ، وهو تفسير واع للتاريخ .

ويتوعد بعد ذلك باسترداد المسجد ، ويخاطب القوات الأوربية بقوله : لايغرنكم هذا الهدوء من المسلمين فلسوف يرجع المسجد لحوزتهم بحرب يشيب لهولها الأطفال ويزعج الميت فى قبره .

قد جاءَها الفاتحُ فى عصبةٍ من الأُسُودِ الرُّكَّعِ السُّجَّدِ
رمى بهم بنيانَها مثلما يمطدمُ الجلْمَدُ بالجَلْمَد
فكبروا فيها وصلَّى العدا واختلط المشهدُ بالمشهد
وماتوانى الرومُ يفدُونَها والسيف فى المَفْدِىِّ والمفتدِى
فخانها من قيصرٍ سعدُه وأُيِّدَتْ بالقيصرِ الأسعد
بفاتحٍ غازٍ عفيفِ القَنا لايحملُ الحقدَ ولايعتدِى

أَجارَ مَنْ أَلقى مقاليدَهُ	منهم وأَصفى الأمنَ للمرتدي
وناب عما كان من زُخرف	جلالةُ المعبودِ في المعبَد
فيالثأْرٍ بيننا بعده	أقام لم يقرُبْ ولم يبعُد
باقٍ كثأرِ القدس من قبله	لاننتهي منه ولايبتدي
فلايغرَّنْك سكونُ الملا	فالشرُّ حولَ الصارمِ المُغْمَد
لن يترك الرومُ عباداتِهم	أو ينزلَ التركُ عن السُّؤدَد
هذا لهم بيت على بيتِهم	ما أشبه المسجدَ بالمسجد
فان يُعاد وافي مفاتيحه	فياليومٍ للوَرى أَسود
يشيب فيه الطفلُ في مهدِه	ويُزعَج الميْتُ من المَرقد (١)

فالشاعر عندما تحدث عما كان موجودا في الكنيسة ، وكذا عندما كانت بيد المسلمين أضحت صيغة الماضي طاغية في القصيدة ايحاء منه بالانتهاء في كلا الفترتين ، بينما عندما هدد القوى المتحالفة كان حديثه بالمضارع تفاؤلا منه بأن الحال ستكون كذلك .

ثم كان صريحا في أن الصراع الدائر ، هو صراع بين الاسلام والمسيحية وكانت الواجهة لذلك هذه الكنيسة وتحولاتها وفي قوله :

وناب عما كان من زخرف   جلالة المعبود في المعبد

إيماء الى أن دين الاسلام لايعنى بالزخرف ولايقصد إليه .

---

(١) السابق ٢/٢٦-٢٧ .

غروب الشمس :

لما أحكمت جيوش الحلفاء سيطرتها على العالم الإسلامي ، هال بعض الشعراء ذلك فأخذوا يبكون حال المسلمين وماوصلوا إليه من فرقة وشتات .

ويذكر "أحمد محرم" في مطولته في هذه الحرب بالفوضى التي عمت ديار «الأندلس» أيام كان المسلمون بها ، وأن حالهم اليوم أشبه بحال المسلمين هنالك لذلك كانوا لقمة سائغة للعدو، فالتاريخ يعيد نفسه ، ثم يبكي حال المسلمين ويتحسر على حالتهم التي وصلوا إليها .

عَصَفَتْ بأندلسٍ رياحُ جهالةٍ
مادَتْ لها الدُّنيا من الرَّجَفانِ

صَدَعَتْ قُوى الإسلامِ بين مُلوكها
ورَمَتْ بنيهِ بأبرحِ الأشجانِ

راحوا يُديرون الشِّقاقَ وحولَهم
عينُ المُغيرِ تَدورُ كالثُّعبانِ

خطبٌ تباعدَ حِيْنُهُ وإخالُه
أدْنى الخطوبِ وأقربَ الأحيانِ

ابكي، ورزْءُ المسلمين ومالَقُوا
في العالَمين أشدُّ ما أبْكاني

ابكي لداميةِ الجوانحِ هاجَها
ماهاجني من دائِها وشجاني

الدَّهرُ أندلسٌ وكلُّ دِيارُها
وعهودُ سُكّانٍ لها ومغاني (١)

---

(١) ديوانه : السياسيات ٣١٦/١ .

ويصور "محمد عبد المطلب" جور الحلفاء ، وأطماعهم ، وكيف غدت بلاد المسلمين نهبا لهم من بلاد "السند والهند والشام" إلى "الجزائر" ، وأنهم يحملون أهل البلاد المغلوبة على مايريدون ، ويبين الحال التي وصل إليها المسلمون بسبب جهلهم وبعدهم عن كتابيهم .

إذ الشَّرقُ فيما بينهم نَهْبُ غالبٍ
متى يعتقدْ رَهْناً على الشَّرق يُغْلَق

يُقلِّبُه موجُ المطامعِ بينَهم
كما اعتسفَتْ هُوجُ الرِّياحِ بزَوْرَق

وتحملُ أهليه على كلِّ مذهبٍ
شريعةُ الاستعمارِ في كلِّ مُوبِق

فمن لمْ يكرِّمه الإباءُ يُدِنْ لها
ذليلاً ومنْ يأبَ المذلَّةَ يُرْهَق

شريعةُ جُودٍ لم يخنَّا رسولُها
بمُعجزِ وحيٍ أو كتابٍ مصدَّق

ولكنَّها إرهاقُ قومٍ هوتْ بهم
يدُ الدّهرِ أو تأييدُ حقٍّ مُغلَّق

بلاد أذلَّ اللّهُ بالجهل أهلَها
وذو الجهلِ من حوضِ المذلّةِ يستقي

تُقسِّمُ كالأنفالِ بين مَعاشرٍ
تنادَوْا إليها في عديدٍ ورَدْرَق

فهذي لها في المغربين مصالحٌ
وتلكَ لها حقٌ على كلِّ مشرِق

وهذي لها أرضُ الجزائرِ نُحْلَةً
وماكيدُ أخرى في "البوير" بمُخْفِق

وإن سبقت هذى إلى الهند غيلةً
تُصلّ بارض السّند أخرى فَتَلحق

وإنْ هجستْ بالصّين أحلامُ طامعٍ
فرُبَّ رُؤىً مــرّت ولم تتحقّق

وهذى لها فى الشام بعضُ مرافقٍ
وتلك لها فى أُخته كلّ مُرفَقٍ (١)

ويبكى "محمود صادق" حال المسلمين وانقسامهم مخاطبا طائرا تخيله شاكيا مأساته لذلك الطائر ، وأنه لم يكن مثل حاله مضيع ملكه ، ولا أحد يذود عنه .

أَ ياطيرُ والأبصارُ عنك كليلةٌ
مداها بأشْباك الظلام مُقيَّد

لأىّ عِراك السّهد لا أنْت شاعر
فَتَشْدو ولا أنْت الحزينُ فَتَسْهد

ولالك وُكْرٌ نامَ عنه حُماتُه
ولالك رَوْضٌ بابه عنْك مُوصَدُ

ولالك سِرْبٌ يجْمعُ الحقّ شملَه
فأمسى شتاتا ليس تجمعُه يَدُ

ولالك حَوْضٌ لم يذُدّ عنه طيرُه
بُغاثاً غدتْ من دونه تتردد

ولالك ريشٌ فى الخوافى فقدتَه
ولافيك مابين الجناحين مَغْمَدُ

ولا أنْت مقصوص الجناحِ فتغْتدى
إلى سَرْحةِ الأطيار عيّان تجهد

---

(١) ديوانه ص ١٧١ .

ولالك بين الدّوح شرقا ومغربا

مواطنُ لمْ تَحرصْ عليها فتفقد

مواطن تزْهى بالجنان وإنها

عليها سلامُ اللّه تِبّر وعَسْجد (١)

والشاعر فى المقطع عبر عن حزنه ناعيا حال المسلمين ، ولقد كان موفقا فى مخاطبته للطير فهو لم يخرج عنها مستعيرا الوكر ، والروض ، والسرب ، والحوض ، والجناح ، والدوح ، رموزا للوطن المسلوب ، وهى مناسبة للطير وأحواله .

ثم يدعو ذلك الطائر مشاركته فى حزنه وألمه لما صار إليه ملك الأمة من ضياع ونهب بيد العدو ، والشعوب المسلمة مشردة طريدة تحت سيطرته .

أياطيرُ أصدقْ ان تكنْ ثمَّ باكياً

وإلا فخلِّ الدَّمعَ إنْ كنت تجحُد

ألمْ تنتهلْ من مائنا قطّ جرعةً

فتحمد للأوطانِ مانحن نحمَد

وتَرْثى لهذا الملكِ وهو مُضيّعٌ

وتَبْكى لهذا الشّعبِ وهو مُشرّد

عواطفُ فى نفسى عواصفُ ليتها

تطيرُ بأنفاسى فتهدأ أكبد

لنا الملكُ لاملكٌ سلامٌ ورحمةٌ

وللّه مجهود الجدود المبدّد

سقا الغيثُ منهم أعظماً فى ترابها

أنينٌ لها بينَ السّموات مُصعَد

---

(١) ديوانه ص ١٣٨ .

تسائلُنا أين الذى من دمائنا
سقيْنا وهل جئتم بنيناً لتحصدوا

من الهندِ شرقا للبرانس مغربا
لكم دوحةٌ كانت ومجدٌ وسؤددُ

فأين تولّى المجدُ لامجد مثلَه
وكيف أُستبيح الملكُ واجتازَهُ العدو

فالشاعر تملؤه الحسرة وهو صادق العاطفة فى ذلك ، فلقد تمنى أن لو تذهب نفسه ليهدأ مما هو فيه ، ويغيب عن ذلك الحال المشين لأنه لم يعد يطيقه .

ثم ينفذ إلى مكمن الداء الذى أدى بهذه الممالك إلى الضياع من "فينا إلى الهند" . ويؤكد أن الخلاف والعداء الذى دب بين المسلمين كان السبب فى ذلك بينما نجد الحقد على الأمة الاسلامية وحد العدو ضدها .

وماضرَّنا أن وحّدَ الحقدُ غيرَنا
ولكنّ أضرّ المسلمين التّعنّدُّ

وكانوا شعوباً يَجْمعُ الحقّ بينها
فبدّدَها يُمنى ويسرى التّمرد

فيا حرَّملكٍ من "فينا" لطارق
إلى الهندِ نُبْكيه ويُبْكى له الغدُ

أيصبحُ أشتاتاً فلا الشرقُ مشرقٌ
ولا الغرب إلا صاعقاتٌ وأجْند (١)

فلم يقتصر الشاعر على البلاد العثمانية بل تعداها إلى "الهند والأندلس" مؤكدا أحقية المسلمين بها غير هياب من السيطرة "الإنجليزية" على "مصر" آنذاك .

---

(١) السابق ص ١٣٨-١٣٩ .

استخدم الشاعر بعض الأساليب الإنشائية كالاستفهام والنداء ومافيهما من تقرير للحقائق وتأكيدها في ذهن المتلقي .

ويأتي العيد على الشاعر نفسه سنة ١٣٤٠هـ فينظم قصيدة بعنوان "أحزان الشرق" ، وجاء في مقدمة توضيحية لها بأنها "نشرت قبل العيد الاكبر وكانت الحالة العامة في الشرق على أسوأ ماوصلت إليه ، ففي "مصر" كان عصر الإرهاب سائدا ، ومحاكم التفتيش قائمة ، والزعماء مشردين ، وكانت وطأة الاحتلال في "الآستانة" على أشدها ، والخلافة مهددة ، و"الاناضول" مضرج بدمائه ، والفظائع على قدم وساق ، أما "العراق" و"الشام" و"فلسطين" فقد غدت خاضعة لحكم الحلفاء باسم الانتداب الذي أقرته "جمعية الأمم" ، وفي "الهند" كانت ثورة "الموبلاه" على أشدها دفاعا عن الخلافة ، والمدافع تفتك بهم فتكا ذريعا ، وكان الشرق كله غارقا في بحر من دمه ودموعه " .(١)

ولذلك استقبل الشاعر العيد بحزن عميق ، وكيف لايحزن ؟ بعدما أضحت الأمم الإسلامية ذوات المجد ، تمشي ذليلة خانعة من قبل جبابرة الاستعمار .

عيدَ الضحيةِ إمّا هِجْتَ آلامي
خلِّ الضحايا وخذْ من قلبي الدّامي

إنّا لنلقاكَ لابشرٌ ولافرحٌ
فلست ياعيدُ إلا عيدَ أيتام

لهْفي على الشّرق والويلات تقذفُه
في كلِّ ساحقةٍ من يَمِّها الطامي

---

(١) السابق ص ١٣١ .

على الشعوب ذواتِ المَجدِ من قِدَمِ
أمسى يُساقُ بنوها سَوْقَ أنعام

من كلِّ ذي عِزّةٍ أمسى أخا ضعةٍ
وكلِّ ذي حُرْمة دِيسَت بأقدام

عدا على الشرقِ أقوامٌ جبابرةٌ
من كلِّ عاتٍ شديدِ البطشِ ظلّامِ

فبُدِّلَ الشرقُ واندكّتْ معالمُه
وأظلَمَ الصبحُ فيه أي إظلام

ثم يخاطب المسلمين عامة مذكرا إياهم بماضيهم العريق وملكهم الواسع الذى أغار عليه العدو ،وعبث به حتى لم يسلم منه اى ركن يؤويه ، وانتشر الجهل فى أرجائه حتى كأنه لم يكن يوما مهبط الرسالات ، ويعود مخاطبا بنى الشرق مناشدا إياهم أن يستيقظوا مما هم فيه ، ويبصرهم بواقعهم المؤلم إذ أضحوا عبيدا بعد أن كانوا سادة الدنيا نتيجة تشردهم وفرقتهم .

بنى الشرقِ هذا ملكُكُم عبَثَتْ
به الليالى فأين العاصمُ الحامى

لم يبقَ فى الصّرح ركنٌ نستظلُّ بهِ
إلا أغارَ عليهِ الصفُّ هدّام

حتى غدا الصّرحُ أنقاضا مُبعْثرةً
ونحنُ نهبُ خرافاتٍ وأحلامِ

كأنّما الشرقُ لم تهبِطْ به رُسُلٌ
ولم يكونوا ذوى وحيٍ وإلهام

بنى الشّرق هل منْ يقظةٍ فتزوْا
بالعينِ مَصْرعَ جُهّالٍ ونُوّامِ

الدّهرُ عاندَكم والخصمُ نازلَكم
فأنتمو بين أيامٍ وأخصام
وكنْتم سادةً فالخلق ميَّركم
لدَى الآلى خدموكمُ بعضَ خُدَّام
شتَّتمْ الشَّملَ أم قطّعتموا رُحِماً
وأكبرُ الإثم عندى قطعُ أرْحام (١)

ويعود مخاطبا بنى الشرق مستثيرا لهممهم ومذكرا إياهم بالمخاطر التى تهددهم ، وتنذر بيوم عصيب ، وتستدعى منهم الفطنة والحذر ، ويعدد الجرائم التى ارتكبها العدو بحق الأمة ، "فالأناضول وفلسطين" أضحتا مسرحا للويلات المروعة ، عدت على أهلها العوادى ، فالعرى والجوع والعطش تفعل فعلها فالدور مهدمة والغيد مشردة ميتمة ، وأصبحن بين نارين أوقدها العدو ، نار حسية ونار من سباعه الضارية التى طالت حتى الشيوخ ، والضعاف والمرضى ، حتى غدا حالهم كحالى مسلمى الأندلس ، عندما احتلها الأسبان وأقاموا المذابح بها فما أشبه الليلة بالبارحة "عهد كعهد وأيام كأيام" .

بنى الشّرق مهما الدهرُ فرّقنا
أاخوةٌ نحن أمْ أبناءُ أعمام
كم فى فلسطين ويلاتٌ مروّعةٌ
تكادُ تبدلُ أقواماً بأقوام
ونحن نلْهو بآمالٍ مجوفةٍ
هى الحماقةُ لو كنَّا بأفهام

---

(١) السابق ص ١٣١-١٣٢ .

هنا الحقائقُ إنْ شئتم مجسّمةً
وإنْ أردْتم ففيها كلّ إبهام

إنّي لأبصرها كالصّبح مُنبلجًا
هبّت تحذّرُنا من رميةِ الرّامي

نهيبُ بالشرقِ أن يستنّ معتزما
فالغربُ أمضى عليه حُكْمُ إعدام

هذا الأناضولُ لو أبصرْت ساحتَه
شهدتَ أفجعَ ويلاتٍ وآلام

ليس الجهادُ بأسيافٍ مرهّفةٍ
مثلَ الجهادِ بأقوالٍ وأقلام

هانتْ عليهم إذا قيسَتْ بعزتهم
أرواحُهم فى سبيلِ المبدأ السّامي

عَدَتْ عليهم عوادٍ لم تدعْ لهم
من قوةٍ غير إيمانٍ وإقدام

عريٌ وجوعٌ وآلامٌ مبرحةٌ
ونحن مابينَ إرواء وإطعام

دورٌ مهدّمةٌ غيدٌ مشرّدة
أمست ميتّمةً أو ذاتَ أيتام

النارُ تدفعُها والخصمُ يُصْرعُها
فالغيدُ مابين نيرانٍ وأزوام

لهفى على الخدرِ قد أمستْ عقائلُه
تهيمُ بين أخاديدٍ وآكام

على الشّيوخ وقدْ سالت مدامعُهم
عانوا الأمرّين من عَجْزٍ وإرغامِ

على الضّعاف على المرْضى وماشَفِعَتْ
لهم تباريحٌ أوصابٍ وأسقام

أفى الأناضول من ويــلاتِ أندلـــسٍ

عهـــدٌ كعهـــدٍ وأيـــامٌ كـأيّـــامِ

ويخـاطب أئمـة الدين أن يهبوا لنصرة الإسلام والمسلمين ويتساءل لمن تركتم لواء الدين بعد أن كنتم ترعونه ؟

ويناشـدهم نصرة الخلافـة التـى هانت وذلت بعد المنعة والعــز .

أئمةَ الدّين ماللدين ويحكمو

أكادُ أكفرُ لولا صدقُ إسلامى

لمن تركتم لواءَ الدّين يحفظُه

وكان منكم عليه خيرُ قوّام

خلافةُ اللّهِ هانتْ بعد عزّتِهـــا

وبُدّلتْ ذِلةً من بعد إكـرام

فمن إباءٍ وتقديسٍ إلى ضعـــةٍ

إلى هوانٍ إلى تنكيس أعلام (١)

والقارىء لهذه القصيدة يسترعيه بعض الظواهر أهمها :

(١) أنه ركز فى مخاطبته للأمة على الأساليب الإنشائية وخاصة النداء والاستفهام .

(٢) أنه ركز على أسباب فرقة الأمة ، وحذرها من عدوها .

(٣) آنـذاك كــان اصطلاح "بنى الشرق" عاما يمتد إلى "الهند والصين" وسـائر جـنوب شـرق آسـيا ، لكنه هنا يخص به المسلمين وحدهم .

(٤) كــان متحمسا للإسلام والخلافة ، وألفاظه ذات رنة خطابية ممـا جـعل عنصـر الوضـوح سائدا فى قصيدته دونما إخلال بالفكرة المراد ايصالها .

---

(١) السابق ١٣٢-١٣٤

(٥) يلتقي مع بقية الشعراء في تشبيه حال الأمة في عصره بحال مسلمي الأندلس ، وهذا يدل على وعي الشعراء بحركة التاريخ وماتؤدي إليه .

(٦) ناشد علماء الأمة أن يستعيدوا دورهم ، في نهضة الأمة ، مما يوضح قيمة العلماء في إحداث نهضة عقلية وروحية ، تعيد للأمة مافرط منها ، وتصحح مسيرتها في التاريخ .

ويصور "عثمان هاشم" من السودان حال العالم الإسلامي بقوله :

هذي الجزيرةُ وهي باكيةٌ أسىً
والهندُ تُندُب حظَّها والشامُ
وبمصرَ أقوامٌ يُطاحنُ بعضُهم
بعضاً وفيم يطاحن الأقوامُ (١)

ولاشك أن الاستفهام يحمل في طياته إنكارا شديدا على ذلك التطاحن إذ الملك كله في طريقه إلى الضياع ففيم التطاحن اذا ؟

مصير روسيا :

ومن آثار الحرب أن قامت الثورة الشيوعية في "روسيا" ضد القياصرة ، فاستغل "محمد عبد المطلب" ، و"أحمد محرم" هذا الحدث في ملحمتيهما :

فهذا "محمد عبد المطلب" يدعو العدو الجاثم على أرض المسلمين أن يكف عما هو فيه من طغيان وظلم ، ويطلب منه أن يأخذ العبرة من "روسيا" التي مزقها الظلم .

---

(١) شعراء السودان ص ٢١٩ .

وماذا عليهم لو أنابوا إلى النُّهى
فلم يأتفِك غاوٍ ولمْ يَتَخَرَّق
فللحقِّ نورٌ كلّما ائتلق ازْدهى
وللبطْلِ برْقٌ حيثما يُزْهِ يُزهق
ألمْ ترَ كيف استأصلَ الرّوسَ بغيُهَا
ومزّقها العدوانُ كلَّ مُمَزّق (١)

ويعرض "أحمد محرم" لمصير القياصرة ، وكيف أصبح عظة للشعوب الظالمة ، ويعرض بحلفائهم وأنهم نفضوا أيديهم منهم مع ملاحظة أن الشاعر بنى هذا المقطع على السخرية منهم :

ركبوا العقوقَ فتلك عقبى أمرهم
إنّ العقوقَ مطيّةُ الخُسران
مَسَحَ الأذى ومحا وصيةَ بُطْرسٍ
ماحي العروشِ وماسحُ التّيجان
جيشٌ من النّصر المبينِ مشى له
جيشٌ من التّضليلِ والهَذَيان
أفَيُؤمنون بقولِ "بُطرسَ" أمْ لهم
فيه كتابُ "لابن مريمَ" شان
يا "آلَ رومانوف" أصبحَ ملكُكم
عِظَةَ الشعوبِ وعِبْرةَ الأزمان
ضجّ النُّعاةُ فما بكى حلفاؤكم
أين الدّموعُ وكيف يُبْكى الجاني (٢)

ولعل الواقع الراهن الذى تحياه "روسيا" الآن أصدق برهان على صدق حس شاعرنا العربى ، وصفاء قريحته ، وبعد

---

(١) ديوانه ص ١٧٤ .
(٢) ديوانه : السياسيات ٣٠٩/١ .

نظره فمن مبلغهم الآن قول "أحمد محرم" :

يا آل رومانوف أصبح ملككم عظة الشعوب وعبرة الأزمان

السخرية من الحضارة الغربية والالتجاء إلى الله من شرورها :

عندما رأى "أحمد محرم" نتيجة الحضارة المادية الأوربية ، وكيف سامت العالم خسفا وعذابا لم ير مثله قبل ذلك فى التاريخ البشرى ، نجده يفرع إلى الله وهو العليم بأحوال خلقه أن يرحمهم وأن يكف شر أولئك الطغاة ، الذين يزعمون أنهم رسل سلام ، والسلام فى مفهومهم "تناحر وجلاد" .

يا ربِّ إنّك فى سمائك ناظرٌ
مايصنعُ الذبّاحُ والجلّادُ

رحماكَ يا ربَّ الممالكِ إنّها
أُمَمٌ تُساقُ إلى الرَّدى وتُقادُ

أدرِكْ عبادَك إنّهم إنْ يُترَكوا
ذهبوا كما ذهبَت ثمودُ وعادُ

تمضِي الفيالقُ والمنايا تارةً
تَطأُ الصّعيدَ وتارةً تنطادُ

تمْشى بانجيلِ السّلام وعندها
أنَّ السّلام تطاحنٌ وجِلاد

....

تلك الحضارةُ لاحكومةُ معشرٍ
ملكوا بعدلِهمُ الرِّقابَ وسادوا

ساسوا فلا صَلَفٌ ولاجَبْريّةٌ
ورَعَوا فلا خسفٌ ولا استبدادُ

والشاعر فى البيتين الأخيرين يشير إلى المسلمين وعدلهم فى حكمهم ويقارن فى سخرية واضحة بين الحضارتين .

غَالَتْ سلامَ العالمينَ جوائحٌ
مالِلنّفوسِ ولالهنَّ نَفادُ
فمتى تثوبُ إلى السّيوفِ حُلومُها
ويكُفُّ غيَّ المرعِداتِ رشادُ
عامانِ ماعَطفَ الممالكَ فيهما
حبٌّ ولاجمعَ الشعوبَ ودادُ (١)

ويسخر في ملحمته من الغرب وحضارته ، وكيف أن زعماءه زعموا أن يبيدوا الدين من الحياة بحربهم الجائرة .

ويفخر بالإسلام وما أتى به من قيم ترد الحقوق وتقيم القسط بين الناس .

زعموا الحضارةَ أن يُبيدَ طغاتُهم
دينَ الحياةِ وملّةَ العُمْرانِ
ماذا يروعُ الظالمينَ وبيننا
أمْنُ المَرُوْعِ ونجدةُ اللّهفانِ
إنّا بنو القرآنِ والدّينِ الذي
صَدَعَ الشّكوكَ وجاءَ بالتّبْيانِ
قاعتْ حقوقُ العالمينَ فردَّها
وأقامها بالقِسْطِ والمِيزانِ
ظَلَمَ العزيزَ فهدَّهُ وأهانه
وحَمَى الذّليلَ فباتَ غيرَ مُهانِ (٢)

ويأتي العيد والناس على أسوأ حال من مرض وفقر ويتم وترميل ، لذا يطلب من يؤاسي آلامهم .

---

(١) السابق ٢٨٠/١ .
(٢) نفسه ٣٠٣/١ .

ياعيدُ أسعدْ ذا الهموم إذا اشتكى
إنَّ الحزينَ يُعينه الإسعادُ
وعُدِ العليلَ مؤاسياً ومعلِّلا
إنَّ العليلَ تُريحه العُوَّادُ
وانْهَ اليتيمَ عن البكى مترفِّقاً
إنَّ اليتيمَ تهيجُه الأعيادُ
عَزِّ الفقيرَ وعِدْهُ موفور الغنى
إنَّ الذي يَهَبُ الغنى لَجَواد (١)

والشاعر هنا سلك منهجا حسنا فى المآسى التى خلّفتها الحرب ومافيها من أضرار اجتماعية .

ويلجأ فى مقطوعة أخرى إلى الله من هول المصاب ، ويسأله الرأفة والرحمة ، وأن ينتقم من العدو الذى روع الآباء والذرارى من المسلمين .

يارَبِّ أصبحْنا نخافُ العاديا
يارَبِّ لانَبْغى سِواك واقيا
هَبْ لنا أمناً وعيشاً راضيا
ولاتردَّ اليوم منَّا داعيا
إنَّ العدى قد أحدثوا الدَّواهيا
وروَّعوا الآباءَ والذَّراريا
وغادروا دينَك رسْماً عافيا
وزلزلوا أعلامَه الرَّواسيا
يارَبِّ زلْزِلْ خصمَك المُناويا
ولقِّهِ منك الجزاءَ الوافيا
وكن لما تَخْشى النُّفوسُ كافيا (٢)

---

(١) السابق ٢٨١/١ .
(٢) نفسه ٢٨٤/١ .

وهـذه المقطوعة تلمس فيها جانبا تنغيميا خاصا وكأنما قيلت ليحدوا بها الناس حداء جماعيا ، وكانت قافيته أليق بجانب الضراعة والشكوى .